

سلامه موسى
برنارد شو
الناشر: مؤسسة الخانجى بالقاهرة
والمكتب التجارى ببيروت
ومكتبة المثنى ببغداد
Bibliotheca Alexandrina
0197927

برنارد شو

الناشر
مؤسسة الخانجي بمصر
المكتب التجاري ببيروت
مكتبة المثنى ببغداد

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
شارع حفني باشا الطرزي بالسكاكيني
ت ٤٠٨٥١

المقدمة

هذه تجربة أولى للترجمة بحياة برنارد شو وأعماله رجوت أن أحقق فيها بعض ما أريد عن هذا الأديب الفيلسوف الذى حفل الصف الأول من هذا القرن بأفكاره وآرائه وتوجيهاته .

وكنت ، منذ أكثر من ثلاثين سنة على نية إخراج كتاب عنه . ولكن كان يمنعنى ما أحسه من الجمود العام فى الجمهور . وهو جمود كانت تؤيده قوات رجعية عديدة مثل القصر ، والاستعمار ، ودعاة التقاليد .

وقد كان كل هؤلاء فى تحالف خفى ، غير واع أو داع ، لأنهم كانوا يستغلون الشعب ويكرهون ارتقاءه الذى يحيف بامتيازاتهم وينتقص من قوة مراكزهم ومبلغ ثرائهم . ولكن الهواء الجديد الذى هبت نفحاته منذ قيام الثورة فى ١٩٥٢ قد أتاح لى التفكير فى هذا الكتاب والتفريج عما اختمر واحتبس فى نفسى طوال السنين الماضية .

وكتابى هذا للعقول المفتوحة التى ترحب بالأفكار وتجترىء على تخطيط المستقبل وتضع البرامج للحياة . وليس هو للعقول المقفلة التى تضع التقاليد فوق التطور ، وتستسلم للغيبيات التى كان يؤمن بها الفراعنة

قبل خمسة آلاف سنة ، والتي تعتقد أن الفقر من سنن الطبيعة ، وأنه خالد لا يمكن محوه من المجتمع البشرى .

هؤلاء المستحيلون الذين ارتضوا لأنفسهم إغلاق عقولهم ووضعوا العقيدة المريحة المرفهة فوق الشك المقلق هم علة تأخرنا . وقد كافحتهم نحو نصف قرن . ولكنى لا أستطيع أن أقول إنى نجحت فى تغييرهم لأن قوات الظلام التى يتخبطون فيها ويعتمدون عليها أكبر من قوات النور . ثم أنا فرد وهم جماعة . ولا أكاد أجد أديبا آخر يحمل عبء المكافحة لهم غيرى . لأن أدباءنا أو من يسمون « أدباء » قد فروا من معارك القرن العشرين إلى معارك نائية فى أعماق التاريخ قبل خمسمائة أو ألف سنة . ولذلك بدلا من أن يؤلفوا عن الفقر فى مصر أو عن استبداد أسرة محمد على أو عن استعمار الانجليز لوطننا وشعبنا أو عن الجهل العام بالقيم الانفجارية فى العلوم العصرية أو عن الاشتراكية الإنسانية التى تدعو إلى الإخاء البشرى ، أقول قد فر أولئك الذين نسميهم « أدباء » إلى شغل أذهانهم بقضايا ومشكلات منفصلة من تاريخنا الحاضر . ولذلك رأينا من هؤلاء الأدباء الفارين من يكتب من أبي نواس أو ابن الرومى أو الخوارج أو المأمون أو أسلوب الجاحظ أو أدب المتنبي أو نحو ذلك ويوهم الجمهور أنه يعالج بهذه المؤلفات صميم الأدب . وكل هذا فرار من مشكلات مصر الحاضرة . وكلمة « فرار »

هى آدب كلمة أصف بها مؤلفات هؤلاء الكتاب لأنى لا أحب أن أقول إنهم تعمدوا الكتابة عن هذه الموضوعات النائية كى يشغلوا شباب الشعب المصرى ويغشوه بها بدلا من أن يوجهوه إلى مشكلاتنا الحاضرة ويخلصوا له .

والأدب يجب ألا ينفصل عن المشكلات الاجتماعية والسياسية أى يجب أن يلصق بشئون المجتمع وارتقاء الشعب نحو القيم الإنسانية .

وفى آراء برنارد شو الأدبية ما يحل هذه المشكلات . وقد يجد فيها أصحاب العقول المقفلة ما يعد كفراً بالعقائد والأخلاق وليست هذه العقائد والأخلاق سوى عادات اجتماعية أو عادات ذهنية . والتزامها فيه تجمد يعوق التطور . وحسبنا تجمدا مئات السنين الماضية بل حسبنا هذا التجمد إزاء القوات الجديدة التى تهب علينا بنارها .

إن إسرائيل تضع الهيدروجين النظير الذى يعد أساسا للقنبلة الهيدروجينية أو جزءا خطيرا فيها .

فهل نجمد بعد هذا أو نرفض التطور ونؤلف عن أبى نواس ؟ أو هل رضينا أن نؤلف عن الأساطير القديمة مثل أهل الكهف ونسمى هذا التأليف فناً راقياً ؟

لقد منعنا التفكير اليسارى منذ الحرب الكبرى الأولى . والتفكير اليسارى هو التفكير العصرى . فوجد « أدباؤنا » الطمأنينة والأمن

والسلام فى الفرار من كل ما يمس العصر الحاضر وجعلوا يؤلفون عن القرون الماضية . وأحبتهم حكومات المستبدين لهذا السبب . كما كرهت أولئك الكتاب اليساريين الذين اشتبكوا فى معارك الذهن السياسية والاجتماعية العصرية . ولم تكرههم فقط بل حبستهم وعذبتهم .

يجب أن نقول لأدباء مصر العبوا كما تشاءون ، ولكن اتركوا أولئك الذين يجدون أن عقولهم تبصر كما أن عيونهم تنظر ، اتركوهم كى يعالجوا الشئون العصرية فى مصر . اتركوا اليساريين واتركوا الاشتراكيين ، اتركوا الأحرار ، كى ينبهوا الشعب إلى الأخطار التى تواجهه وأيضا إلى الفرص التى تنتظره .

إننا نحتاج إلى تجديدات لا إلى تقاليد ونحتاج إلى استخدام العلوم لترقية إقتصادياتنا وأيضا كى نتعلم منها كيف نضع الهيدروجين النظير .

ونحتاج إلى أدب يكتب لأبناء القرن العشرين عن شئون القرن العشرين وليس عن شئون القرن الرابع أو العاشر .

نحتاج إلى أدب الأفكار لا إلى أدب الألفاظ .

وسيشبع القارىء أفكاراً من هذا الكتاب . ولكنى أرجو أولئك الذين يجهلون الأدب الأنجليزى أن يقرأوا مع هذا الكتاب كتابى الآخر « الأدب الانجليزى الحديث » إذ هو تمهيد وتقديم لدراسة شو .

دنيـــا

الأحلام والأماني

قل أن نجد عظيما فى شأن من الشئون البشرية إلا وله هوسة أو لوثة قد أصابته وهو فى شبابه . وهذه الهوسة أو اللوثة ، على الرغم مما تبدو لأصدقائه أو عارفيه ، كما لو كانت غفلة أو سماجة أو وقاحة ، إنما تدل على يقظة الوعى ، وأنه قد شرع يستقل فى تفكيره ويسأل . لماذا الحكومة ؟ لماذا الدين ؟ ما هى السعادة ؟ ما هى الحضارة ؟ ما هو الحب ؟

وهو فى شبابه يتحسس المبادىء ويقارن بين الأحلام والحقائق ويرفض التسليم بالقواعد ويحاول أن يبتكر فى نظم المجتمع أو نظام حياته . وقد يسخف فى بداياته ومحاولاته . ولكنه ينتهى منها إلى الدرس الجاد وإلى الأفكار الناضجة التى يستقر بها على فلسفة ويقين .

وكلنا سواء فى رؤية المساوىء التى تحفل بها الحضارة بل الحضارات قديمها وحديثها . وليس منا من ينكر المظالم التى تقع بالملايين من البشر ، والبؤس الذى عاناه ويعانيه الناس من الرق قديما والاستعمار حديثا ، وإرهاق العواطف بسوء العلاقات البشرية ، والتكاليف الباهظة التى تطالبنا بها الحضارة .

وكثيرون من الشبان وقفوا فيما بين العشرين والثلاثين من أعمارهم يسألون : لماذا كل هذا العذاب ؟ لماذا لا يكون هناك مجتمع عادل نعيش فيه فى بساطة لا ترهق وحرية لا تستباح ؟ وإخاء عام يشملنا بالحب ؟

ونحن فى هذه الفترة نحلم ونتمنى . وتزيد أحلامنا وأمانينا عند ما يزيد الإرهاق وتكثر المظالم ، ولذلك ننفجر بالثورة لتحقيق بعض من هذه الأحلام والأمانى فى تلك الأوقات .

ونحن نحلم لأنفسنا ونحلم للمجتمع .

والشاب حين يحلم لنفسه وشخصه بشأن الحب والزواج والعمل والكسب إنما يبنى حياته أو بالأحرى يؤسسها . وهو يدرس ويكد كى يحقق مايحلم به ؛ بل كثيرا ما أجد الموظف الذى دخل فى العقد السادس من عمره يحلم ببضعة الفدادين التى سوف يشتريها عند بلوغه سن الإقالة ويحيا فيها حياة السذاجة والقناعة ويتخلص بها من تكاليف الحضارة الباهظة التى يعانيها فى إقامته بالمدينة . وكلنا نهفو فى أى وقت من أعمارنا ، إلى تمضية بضعة أسابيع فى المصايف الساذجة حيث نستطيع التخلص من تكاليف الحضارة وحيث نسترخى دون أن نتقيد بنظام أو ميعاد .

والريف بنضرته وسذاجته وحيواناته وأشجاره وقناعة سكانه ، هو أقرب الحقائق إلى الأحكام . وريفنا فى مصر يحفل بالبؤس والقذر

والمرض وسائر مخلفات الإقطاعيين المستكرشين ، ومع ذلك يجد بيننا من الشيوخ المتعبين من يحلم ويبني أمانيه على تمضية سنى العمر الأخيرة فيه . أما ريف أوربا فمن أجمل الأرياف فى العالم ، ولذلك يصح أن يكون من الأمانى وأن يحلم به الحالمون . ولعل أعظم ما يفصل بين الريف الأوربى والريف المصرى أن الأول عرضة لأن تغسله الأمطار ثلاث أو أربع مرات فى الشهر ، ولذلك تبقى قراه بالحجر ويبقى نظيفا بل ناصعا كما يخلو من الغبار . أما ريفنا الذى تبنى منازله بالطوب الأخضر والذى يجف فيه الهواء فيمتلىء بالغبار ويحفل بالقذر . ومع كل ذلك ما يزال موضع الأمانى لما فيه من سذاجة العيش واسترخاء الحياة عند الذين تعبوا وتوتروا من حضارة المدن .

ولكن الحالمين الذين يمعنون فى أحلامهم لا يقنعون أحيانا بالريف فيتجاوزونه إلى البكر من الأقاليم النائية عند البدائيين أو المتوحشين ، وهم ينزعون إليه بخيالهم بحسبان أنه يخلو تماما من تلك المركبات الحضارية التى تربك المتحضرين وتعقد حياتهم وترهقهم بالتكاليف والنظم .

وعند ما تفسد الحضارة وتحفل بالمظالم يهفو الخيال إلى هذا الحلم .

وكانت الحضارة على أفسدها فى فرنسا قبيل الثورة الفرنسية ، ولذلك رأينا اثنين من أعظم الأدباء يدعوان إلى السذاجة والفرار

من الحضارة . أولها جان جاك روسو الذى عزا إلى الحضارة جميع الكوارث . حتى كارثة زلزال لشبونة . ودعا إلى العيش الساذج . وثانيهما برناردان وسان بيير الذى نقلنا فى « الكوخ الهندى » إلى مكان ناء فى أقصى أفريقيا حيث يعيش المحبان فى كوخ لا يزعجهما حسد من المجتمع أو ضرائب من الحكومة أو ترف مزعج من اللباس والطعام أو مواعيد موقتة بالساعة والدقيقة للعمل والكسب .

وقد قرأ نابليون هذه القصة ودعا المؤلف وطلب إليه أن يؤلف كوخا هنديا « آخر » . والعبرة هنا أن نابليون ، على الرغم من أنه كان على قمة الحضارة يسعد بكل مافيها من وسائل الإسعاد . كان ما يزال ، مثلنا جميعا ، يهفو إلى حياة السذاجة والقناعة التى رسمها المؤلف فى « كوخ » .

غاندى مع عنزته وفى شملته وتولستوى فى ريفه ، وطعام النبات بدلا من طعام اللحم ، والحياة الجديدة الخالصة من شوائب المجتمع ، كل هذه أحلام حلم بها بعضنا . وهو ، وان لم يستطيع النزول على شروطها والعمل بقواعدها ، قد انتفع بها لأنها حفزته إلى التفكير والمراجعة وما أسميه « يقظه الوعى » لأنه صحا وسأل وحاول .

والشاب الذى يستسلم للقواعد الاجتماعية ولا يكابد قط مثل هذه الارتباكات ولا يفكر فى المشكلات التى يخلقها لنفسه ؛ مثل هذا الشاب

لن يصل إلى يقظة الوعى ولن يفلسف ولن يبتكر . وهو عجوز فى سن الثلاثين يحيا بإيمان العجائز فى سن الثمانين .

فى سنة ١٨٨١ ظهر رجل أمريكى فى لندن به لوثة أو هوسة (كما ذكرنا فى أول هذا المقال) يدعى دافيدسون دعا إلى ما يسمى « الحياة الجديدة » .

وكان لهاتين الكلمتين إغراء له قوة السحر فى نفوس الشبان والفتيان والكهول والشيوخ . فما هو أن كان يعلن عن اجتماع يلقى فيه خطبة عن هذا الموضوع حتى كانت المئات تهرع إليه وكل منهم فى شوق لأن يسمع شيئاً جديدا فى وسط هذه الحياة اللندنية التى كانت تحفل وقتئذ بالمظالم الاجتماعية والتفاوت فى الكسب وقلة الطمأنينة على العيش . بل كانت الحكومة البريطانية نفسها تعدو العدوان تلو العدوان لضرب الشعوب وخطف أرزاقها كما فعلته بنا فى السنة التالية (١٨٨٢) .

وكان الناس يسمعون من هذا الخطيب أننا يجب أن نحيا حياة جديدة لها قيم جديدة تلغى التقاليد والعادات القديمة . فلا ننشد الثراء بل نكتفى بقناعة العيش الرخيص الساذج الذى لا يكلفنا الثمن الباهظ بل لا يرهقنا الحصول عليه . وعلينا أن نلبس اللباس الساذج . ولا نتزوج إلا عن حب . ولا نعامل إلا بالعدل . ولا نسكن إلا الأكواخ .

ويجب ألا يستأثر حب الكسب بوقتنا . لأننا يجب أن نقنع من الكسب بما يكفينا ، وأن نرصد معظم وقتنا للدرس الجاد والاستمتاع الناضج والتفكير الفلسفى .

حياة « الكوخ الهندى » من جديد ، ولكن بلا رحلة إلى افريقيا .

ولم ينجح دافيدسون فى إقامة مجتمع على هذه القواعد .ولكنه نجح فى إنشاء جمعية يرتبط أعضاؤها بالنية والعزم على أن يحيوا حياة جديدة وكانت المحاضرات تلقى والمناقشات تحتدم فى هذه الجمعية عن الجديد والنافع والسامى فى الحياة .

ثم يكون من المناقشات والمحاضرات انبعاثات جديدة فى التفكير والفهم إلى رحاب واسعة فى التجارب والاقتحامات فى « يقظة الوعى » فنجد عشرات من المطاعم النباتية تنشأ فى لندن ويقصد إليها الانسانيون الذين يأنفون من جعل بطونهم قبورا للحيوانات . ويبدأ برنارد شو حياته فى مقاطعة اللحوم ويعيش سبعين سنة لا يذوق اللحم . ويترك الأديب الإنجليزى ادوارد كاربنتر أعماله فى لندن ويقصد إلى الريف الإنجليزى حيث يزرع بيده الكرنب والبطاطس ويأكل من عرق جبينه ويؤلف كتابا بعنوان : « مرض الحضارة وكيف نعالجه ؟ » . ونجد العالم الطبيب هافلوك إليس يؤلف ستة مجلدات عن الحب والزواج والعلاقات الجنسية . ويتزوج الآنسة لى . ويحيا كل من الزوجين فى

منزل منفصل عن الآخر . ويشرع رمزى مكدونالد فى الدعوة إلى الاشتراكية ويرأس حزب العمال .

ويؤلف ثلاثة من الأدباء هم وليم موريس وتشسترتون وبيلوك مؤلفاتهم عن ضرورة ترك الحضارة الحديثة والرجوع إلى حضارة القرون الوسطى ، بل انهم دعوا إلى العمل باليد بدلا من العمل بالآلة .

وتؤلف الجمعية الفابية لإيجاد سياسة جديدة غير سياسة المحافظين والأحرار تستهدف العدالة الاجتماعية .

وتنمحى جمعية الحياة الجديدة . ولكن تبقى الخمائر التى بعثتها فى أعضائها والتى لا تقل فى قيمتها عن الخمائر التى بعثها جان جاك روسو فى دعوته السخيفه إلى ترك الحضارة والعودة إلى سذاجة الطبيعة . فقد نسينا هذه الدعوة ولكن بقى منها لنا ، بعد ١٥٠ سنة ، جملة مركبات سيكولوجية تمس أساليبنا فى العيش الاستحمام فى البحر ، والاقامة على الشواطىء ، دراسة الزهور وغرسها ، التجوال فى الريف . احساس دينى جديد نحو الطبيعة يحملنا على درسها بالميكرسكوب ورسمها بالألوان .

كان البحر موجودا منذ آلاف السنين ، كما كانت الحقول موجودة ولكننا كنا فى غيبوبة لا نراهما . ففتح روسو عيوننا وأيقظ عقولنا . فرأيناهما .

وكذلك الشأن فى جمعية الحياة الجديدة التى ألفها دافيدسون الأمريكى فقد ماتت هذه الجمعية ولكن خمائرها بقيت تنمو أفكاراً حية فكانت منها تلك المعانى الجديدة بشأن الاستعمار ومعاملة المجرمين وتربية الأطفال وحرية المرأة وضمان العيش للعمال وتعويض المعطلين وبناء الدولة للمساكن وإيجاد المستشفيات المجانية وحزب العمال . الخ .

اعتبارات جديدة فى الحياة الاجتماعية كان يحلم بها دافيدسون فى غموض الأحلام وظلالها . وكان يهتف بها قلب ادوارد كاربنتر وهو يزرع الكرنب . كما شرع برنارد شو يفكر فيها ويشرحها ويقلبها فى دراماته الأربعين أو الخمسين .

أجل . . إن مثل هذا الوسط الحى الذى يجيز تأليف الجمعيات التى تبعث الأحلام فى الشبان هو الذى يربّى الأدباء ؛ لأنه يتيح لهم جوا يتحمل التفكير البكر المثمر والأحلام الجريئة الذكية . وهو جو ما زلنا فى مصر نفتقده ولا نجده .

اننا نبدأ حالمين وننتهى محققين . فلا تعاكسوا أحلامنا لأنكم بهذه المعاكسة تمنعون تفكيرنا .

شئون حياته الشخصية

نستطيع أن نستخلص حياة الكاتب من مؤلفاته . وتعنى هو أخلاقه وأهواءه وفلسفته . وذلك لأن اهتمامات الكاتب فى مؤلفاته هى أيضا اهتماماته فى حياته الشخصية . وهو لا يستطيع أن يفصل بينها إلا عند ما يكون مأجورا يؤدى خدمة لغيره . وحتى هنا لايخلو الكاتب من الزج بشخصيته ، بل بنفسه التى وراء الشخصية ، فيما يؤدى من عمل يؤجر عليه وينافق فيه لأنه لا يتمالك التعبير بكلمات وسطور تتسلل إليه من حيث لايريد .

ولسنا فى حاجة إلى أن نستخلص حياة شو من مؤلفاته . فإن سيرته منذ ميلاده تقريبا معروفة مكشوفة . وكثيرا ماعنى هو بالكشف عنها فى مؤلفاته فى عبارات صريحة لاتحتاج إلى تأويل وتخريج . فإن مقدماته المسهبة لمؤلفاته وكذلك بحوثه الاجتماعية تحتوى الكثير من ترجمته الشخصية أيام طفولته وشبابه . ولذلك نحن لا نتعب فى التعرف إلى العوامل التى تكونت بها شخصيته .

فقد ولد ونشأ فى صباه فى «دبلين» عاصمة ارلندا . وكانت عائلته من

الارلنديين البروتستانت الذين يعدون أنفسهم ، بحق ، أرقى من الارلنديين الكاثوليك الذين تعزلهم تقاليد الكنيسة ويفسد نفوسهم التعصب الدينى ويؤخرهم استمساكهم بالتقاليد . وكان أبوه سكيرا فاشلا فى جميع ماتناول من أعمال . ولكن برنارد شو كان يحبه . وهو يذكره بالحنان والتقدير . أما أمه فكانت فنانة تحسن العزف على البيان كما تحسن الغناء . وكانت تحتقر زوجها لإدمانه على الشراب . وكان برنارد شو يكرهها . ولذلك لايكاد يذكرها بكلمة طيبة فى جميع ماكتب . بل إنه عندما ماتت كان يضحك فى جنازتها حتى لامه بعض أصدقائه .

وظنى أن أعظم ماجعله يكره أمه أنها كانت تحتقر والده وتعامله كما لو كانت تشمئز منه . وكان ذلك أيام طفولته حين لم يكن هو يقدر مسئولية هذا الأب أمام الزوجة والأطفال بل لم يكن يدرك معانى الانهيار فى شخص أبيه الذى يعود مساء كل يوم إلى البيت مخمورا ؛ بل لعل الطفل برنارد شو كان يستظرف من أبيه هذا الموقف ويحبه من أجله .

ومما زاد برنارد شو كراهة لأمه أنها هجرت بيت الزوجية فى دبلين وسافرت إلى لندن مع ابنتها بعد أن تركت الصبي شو مع أبيه . وهذا عمل قاس لايستطيع الإبن أن ينساه من أمه .

وهذا التفكك فى العائلة ينطوى على احتمالين . أحدهما أن يستهتر

الصبي ويأخذ بالقيم الأخلاقية لأبيه وأمه وهما فى هذا الاغلال ثم ينشأ بلا أخلاق تتماسك بها شخصيته وكثيرا مايحدث هذا .

والاحتمال الثانى أن يستيقظ وعيه ويرى خطورة مركزه بين هذين الأبوين الناقصين فيعتمد على نفسه ويحس المسئولية ويتبصر ويهدف . وعندئذ يشرع فى تربية نفسه . وهذا هو ماحدث لبرنارد شو ، كما حدث من قبل لمكسيم جوركى الذى عانى مثل هذه الظروف ، بل أسوأ ، فى عائلته .

وقد ولد برنارد شو فى ١٨٥٦ ونشأ فى وسط إرلندى جامد تستولى الكنيسة الكاثوليكية على حياته الإجتماعية وتوجهها وجهة دينية أخرت إرلندا وجعلت الإنجليز يستغلونها ويستعمرونها . وبقى شو فيها إلى حوالى سن العشرين أمضى منها بعض السنوات فى مدرسة ابتدائية كانت كل ما كسب من التعليم المدرسى . ثم حين هجرت أمه البيت إلى لندن بقى هو مع أبيه وعمل « محصلا » يجمع إيجارات المبانى التى تملكها إحدى المؤسسات ، وكان يحصل على أجر متواضع . ولكنه كسب ماهو أكبر من الأجر إذ درس أحوال السكان الفقراء فى المساكن التى كان يجمع منها مبالغ الايجارات . وعرف كيف يستغل المالكون العمال الأجراء .

وكان أول ما كتب فى الصحف كلمة فى جريدة يومية فى دبلين قال

فيها إنه لا يؤمن بالله . كتبها حين كان عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة . ودلالة هذه الكلمة ليست فى انحرافه الدينى وإنما فى إيضاحها لنا كراهته لوسطه الاجتماعى وما كان يحس من تعصب الكاثوليك نحوه وهو بروتستانتى .

وكان فى ذلك الوقت يعيش مع أبيه . ويبدو أن التلاؤم كان تاما بينهما على الرغم من إدمان الأب للخمر . وكما يحدث كثيرا فى مثل هذه الحالات كره برنارد شو الخمور بل قاطعها طيلة عمره . لأن أعظم ما يكف الإنسان عن رذيلة ما أن يعاشر أبا يمارسها ويراه وهو يتمرغ فيها .

ولا نعرف أنه ذاق الخمور إلا فى السنوات الأخيرة من عمره حين تجاوز التسعين أو قاربها . فإنه وجد فى هذه السن أن زوجته وأصدقاءه بل أن أبناء جيله الذين كان يعرفهم قد ماتوا جميعهم . فكان إذا انفرد فى الليل وأحس الوحدة والوحشة تناول شيئا من الويسكى للتخفيف من توترات الشيخوخة .

ولما وصل إلى لندن قصد إلى أمه حيث كانت تسكن مع إبنتها فى مسكن متواضع وتكسب عيشها بتعليم الغناء . ولم يسعد برنارد شو بعشرة أمه وأخته . وذلك لأنه كان يجد توبيخا دائما لأنه لا يعمل ويكسب بل يعتمد على أمه كى تكسب وتعوله . وبقى على هذه الحال

نحو سبع أو ثماني سنوات كان يحاول في أثنائها أن يؤلف القصص وأن يجد في الأدب حرفة يعيش منها . ولكنه لم يفلح . وكان إصراره على احتراف الأدب يحنق والدته وأخته حتى إن هذه حرضت والدتها على جهاده ، ولعل هذه السنوات قد تركت في نفسه مرارة نحو أمه .

ولكن الواقع أن الأم البنت كانتا معذورتين في إحساسها نحوه بأنه عاطل فاشل . ولم تكن واحدة منهما تتوقع القدرة الكاملة في هذا الإنتاج الضخم الذي ملأ به أوربا وجعل المسارح تتبارى في تمثيل دراماته .

وكانت هذه السنين العجاف ، سني التضرع للأم بأن تعطيه « مصروف جيبه » هي أيضا سني التكمل لشخصيته وبنائها على أساس آخر يحتاج إلى عزيمة وإصرار فإنه قاطع القهوة والشاي والتدخين . (لم يدخن قط في حياته) والشراب . بل قاطع اللحوم في الطعام

وكانت هذه السنين أيضا سني الامتصاص الثقافي . فقد كان يقصد كل صباح إلى « المتحف البريطاني » الذي يضم أكثر من أربعة مليون كتاب . فكان يختار ويقرأ ويربي شخصيته الفنية الأدبية .

وظن أن الأديب الحق هو الذي « يصنع نفسه » بهذا الأسلوب . أي هو الذي يختار ويدرس وفق حاجاته النفسية . فيختار بذلك أصح الغذاء . أي يقرأ ويدرس كلما أحس الحاجة النفسية . ثم له حرية الرفض

عند ما لا يحب . فتنشأ نفسه وتنمو شخصيته وهى على إستيفاء للغذاء دون إكراه .

ولذلك ليس من اليسير أن تعلم أحدا الأدب فى جامعة لأنك تفرض عليه غذاء قد لا يسيغه . وتحرق غذاء يسيغه وكان فى مقدوره أن يختاره لو كان حرا ولكنه ، حين تضع أمامه امتحانا ، تقهره على سلوك معين لا يرضاه .

والمتتبع ابرنارد شو فى سنى الامتصاص الثقافى هذه ، فيما بين سن العشرين والثلاثين ، يجد أنه قرأ ألوانا من العلوم والآداب والتاريخ والأديان لا يكاد يتصورها العقل . ودراماته التى ألفها ونجحت بعد ذلك تعود إلى هذه الدراسات التطوعية التى قام بها فيما بين ١٨٧٥ و١٨٨٥ . وحوالى هذه السنة الأخيرة نجد له إهتمامات بالسياسة والإجتماع يبتكر فيها الرأى الجديد ويدعو فيها بحماسة لا ينال عليها أجرا . فهو يخطب ويكتب ويؤلف دون أن يطلب مليما عن مجهوداته .

لقد صار ، وهو فى سن الثلاثين (١٨٨٦) إنسانا مسئولا عن البشر يتحدث ويكتب « كما لو كان له سلطان » وكأنه يحس أنه يحمل رسالة . ولهذا الإحساس وحده نجد أنه كان يتحمل توبيخ أمه وأخته وتعييرهما له بأنه فاشل ، يتحمله بنفس راضية صابرة واثقة بأنها على موعد من النجاح .

وفى هذه السنوات ، فيما بين ١٨٨٥و١٩٠٠ ، نجد له نشاطا مسرفاً فى منظمة كانت ولا تزال تسمى « الجمعية الفابية » . وكان هو روحها وخطيبها وكاتبها . وكانت غايتها متواضعة فى ظاهرها مع إطمئنان إلى قوتها . فقد إتخذت خطة التسلل إلى الأحزاب بدلا من أن تنشىء حزبا . وكانت الإشتراكية مذهبها . ولكنها كانت إشتراكية التدرج وليست إشتراكية الثورة .

وقد عرفت أنا هذه الجمعية حوالى ١٩٠٨ ولم أكن أسمع فيها اسم كارل ماركس وإنما كنت اسمع عبارة مكررة هى « التدرج المحتوم » بمعنى تجنب الثورة بشأن الإرتقاء نحو النظام الإشتراكى . وبقيت الحال على ذلك إلى الأزمة العالميه فى ١٩٣٠ حين شرع اسم كارل ماركس يعلو ويسود . ولم يكن يمثل الشيوعية فى لندن غير زعيم يدعى هيندمان يخرج بجلة اسبوعية صغيرة تسمى « جستس » . ولا أظن أن الذين كانوا يقرأونها كانوا يتجاوزون ألفين .

وعرفت برنارد شو ، وهو بين الخامسة والخمسين والستين ، وأنا فى لندن بين ١٩٠٨ و١٩١٤ رجلا طوالا تجلل وجهه لحية صهباء كأنها لهب من نار . ولم يكن يطلقها عن مذهب . وإنما كان يهدف منها إلى ستر أثار الجدرى الذى أصيب به وهو صغير وترك نقوراً على وجهه . وكان حبيباً إلى قلوب الأعضاء يلحون عليه فى كل اجتماع حتى يقول

« كلمة » تعليقاً أو نقداً على المتكلمين . وكانت فى صوته صحلة موسيقية تجعل الإستماع إليه متعة .

وتزوج برنارد شو بعد أن نجح فى التأليف المسرحى . وعرف زوجته عن طريق الأعضاء فى هذه الجمعية . فإنها كانت فتاة إرلندية ثرية وكانت صديقة لأكبر عضوين بارزين فى الجمعية هما المستر ويب وزوجته . وتوسط الزوجان فى إيجاد التعارف فالصداقة فالزواج بينها وبين برنارد شو . وعاشت معه نحو خمس وثلاثين سنة دون أن يتم بينهما أى اتصال جنسى . وكان لكل منهما غرفة خاصة . وكانا على حب عظيم أحدهما للآخر . فقد إعتادت ألا تأوى إلى فراشها إلا بعد أن يغنى لها . وكانت تشير إليه بكلمة « العبقرى » .

ولما ماتت أحرق جثمانها فى إحدى المرامد فى لندن . وأوصى هو بأن يحرق جثمانه أيضا ويخلط الرمادان ثم يذر المخلوط فى حديقة مسكنهما الذى عاشا فيه طوال زواجهما . وتم ذلك .

وكان برنارد شو كبير العناية بصحته . وكان يقول إن الصحة من الحكمة لأن الرجل الحكيم يتعود العادات التى تحترم صحته ويتجنب تلك التى تؤذيها . ولكن التزامه للطعام النباتى مدة ٦٤ سنة لم يكن لبواعث الصحة وإنما كان للبواعث الإنسانية إذ كان يعتقد أن الناس يستطيعون الاستغناء عن هذه الشدة التى يمارسونها فى قتل الحيوانات كل

يوم كي يأكلوها . وأن فى الطعام النباتى غناء عن ذلك . وكراهته التدخين كان مرجعه الاحساس الفنى فى تجنب عادة قذرة بعيدة عن الجمال فى ممارستها ومضايقتها لمن لايدخنون . ولكن كيف نفسر إمتناعه عن القهوة والشاى ؟

لا أستطيع هنا أن أسلم بأن الهدف الذى قصد إليه شو ، وهو شاب ، حين التزم هذا النسك بالامتناع عن اللحم والخمر والتبغ والقهوة والشاى ، لا أسلم بأن هذا الهدف كان للصحة فقط .

واعتقادى أنه نسك قصد منه إلى اعتصام نفسى بغية التوفر على مجهودات سامية . وكثيراً مانجد أن اليقظة الذهنية ، واحساس الرسالة ، والقصد فى الحياة ، يرافقها نوع من الاعتصام يتخذ أسلوباً معيناً من النسك الذى ينعكس أثره على النفس فى تحرى الجد ورصد العمر لواجب مقدس برفض الكثير مما نسميه ملذات أو مسرات .

نفعل ذلك وكأننا نعلو على أنفسنا ونخدم رؤوسنا ، وهى اسمى ما فى أجسامنا ، بدلا من أبداننا . وعندئذ تستهلك شهوات الذهن كل طاقتنا وتقمع شهوات الجسم .

إن المسيحى حين يغلو فى دينه يذهب ويدخل الدير . وقد أمضى الغزالى سنوات وهو ناسك . وكذلك فعل المعرّى الذى لم يتزوج ولم يأكل فى حياته غير العدس . وشهور الصوم فى جميع الأديان هى شهور

الغلو فى الدين . وقد رفض غاندى الشهوة الجنسية والطعام والشراب واللباس إلا القليل من اللبن وشملة من الخيش .

وهؤلاء جميعاً ، برنارد شو ، والغزالى ، والمعرى ، وغاندى ، لم ينسكوا حباً للنسك وإنما حملتهم نزعة الجد فى الحياة وإحساس القصد والرسالة على أن يعلوا على أنفسهم للتوفو على مارسموه من واجبات .

ولست تجد رجلا عظيماً إلا وله نوع من النسك يمارسه كما لو كان رياضة نفسية يستعين بها على التوفر لعمله أو قصده العظيم .

وليس فى التزام الطعام النباتى صحة كما يتصور البعض . فإن برنارد شو ، قبل وفاته بأكثر من عشر سنوات ، أصيب بمرض « الأنيميا الخبيثة » ، وأوشك على الموت منه . فشحب لونه . وكان يتعب لأقل مجهود وينام وهو قاعد . فاضطر هذا النباتى الإنسانى إلى أن يتداوى من مرضه بتناول خلاصة كبد الخنزير حتى شفى . ولكنه لم يعد إلى طعام اللحم .

ومع أن ثروته تجاوزت ثلاثمائة ألف جنيه عند وفاته فإنه لم يهدف قط إلى جمع المال . وكثيراً ما عمل وجهد بلا أجر لا يهدف إلا إلى الخدمة الإنسانية . ولما نال جائزة نوبيل وقدرها الآن نحو ١٤ ألف جنيه رفض تسلمها . وأنشأ بها جمعية لزيادة الاتصال بين أدباء الأقطار الإسكندناوية وبريطانيا .

وكان يسعف جميع الأدباء المحتاجين بمبالغ كبيرة كان بعضها يبلغ خمسمائة جنيه كل عام . وبقى على هذا فى بعض الحالات أكثر من عشرين وثلاثين سنة . وفى وصيته ترك مبالغ كبيرة لمن خدموه الخدمة المنزلية . بل إنه أقام نصباً تذكارياً لخادمته التى ماتت قبيل وفاته فى الحديقة ، وحين دعا النحات كى يقوم بصنع النصب خشى أن يموت هو قبل أن يتم النصب فعرض عليه دفع الثمن قبل اتمامه .

وكان يعمل فى غرفة نائية عن مسكنه فى الحديقة وذلك كى يتوفر على عمله دون أن يزعجه صوت أو ضوضاء ، حتى إن الخادم عند ما كان يأتى إليه كى يطلب شيئا ما أو ينبهه إلى ضيف لم يكن يشافهه بكلمة ، وإنما كان يكتب ما يريد على ورقة يرد عليها برنارد شو كتابة دون أن ينطق بكلمة .

وكانت طريقته فى التأليف أن يترك الموضوع يختمر فى ذهنه مدة سنة أو سنتين يقرأ فيها عشرات الكتب التى تتصل بهذا الموضوع ، فإذا شرع فى التأليف كتب العناصر ووضع التخطيط ، وقد يؤلف الدرامة فى شهر أو أسبوع وقد يؤلفها فى سنتين أو ثلاث سنوات .

وكان يتعب كثيراً فى التأليف حتى لقد ذكرت عنه أنه يترك مقعده أمام مكتبه وينبطح على أرض الغرفة إعياء وتعباً ، ويبقى على ذلك حتى يستريح وينهض لاستئناف الكتابة .

كان برنارد شو يعد نفسه محظوظا قد حابته الأقدار لأنه لم يتعلم فى جامعة . وأن كل ماحصل عليه من تعليم لايزيد على مستوى الصبي الذى ينقطع عن الدراسة النظامية المدرسية منذ السنة الأولى الإبتدائية .

ومعنى ذلك أنه علم نفسه .

هذا هو المعنى . أما الدلالة فهى أنه كان يختار ما يتعلمه . وكان إختياره يتوقف على حاجاته الذهنية والنفسية . كما يختار الجائع مايحتاج إليه من طعام . وكما أن الجائع يختار لنفسه أفضل مما نختار نحن له كذلك طالب الثقافة يحسن الإختيار لنفسه أكثر مما نحسن له هذا الإختيار . لأنه يسير فيه وفق كفاءاته وعلى مهل وتدبر وبصيرة بالمستقبل . وقد ذكر أحد الأدباء الإنجليز أنه التقى ببرنارد شو وهو بعد فى الحلقة الثالثة من عمره فى مكتبة المتحف البريطانى . وكان أمامه كتابان أحدهما « رأس المال » لكارل ماركس . والثانى كتاب عن الموسيقا بالحروف الموسيقية . وكان يراوح بينهما فى الدرس .

ويذكر برنارد شو تسع سنوات أيام شبابه كان فيها مغفلا لا يلتفت إليه أحد . وكان كل ماكسبه فى هذه السنوات من قلمه ستة جنيهات . ولكنه يظلم نفسه حين يقول هذا القول لأن أى كاتب مهما ضعفت منزلته يستطيع أن يكسب مائة ضعف هذا المبلغ فى هذه السنوات . إذ أن هناك أعمالا فى الصحف وأيضا هناك من المؤلفات الرائجة مايرد عليه هذا الكسب .

نقول أعمالا فى الصحف ومؤلفات رائجة . ولكن مع التفاهة .

ورفض برنارد شو أن يؤلف أو يكتب شيئا تافها منذ نصب لنفسه قصه حياته وهو أن يكون مفكراً نافعا . كما أنه فى هذه السنوات التسع كان يربى نفسه يقرأ ولا يكتب . أو يقرأ كثيرا ويكتب قليلا .

وهو كثيرا مايشير فى مؤلفاته إلى المدارس الثانوية وإلى الجامعات فى إحتقار وغضب لأنها تملأ جماجم الصبيان والشبان بحشو المعارف التى تؤذيهم فى نموهم الثقافى حتى تجعل هذا النمو كما يزداد بدلا من أن يكون تطورا يرتقى بهم . وهو يذكر مثلا درامات شكسبير فيقول إنه قرأها جميعها واستمتع بجمالها وتعمق توتراتها . ولكن الطالب الذى يقرأ (أو يدرس) إحدى هذه الدرامات مع التعليقات والتفسيرات التى يعد بها نفسه للامتحان لايعود إلى شكسبير لأنه ، افرط ماتعب فى درسه ، يكرهه ولايطيق قراءة شىء منه . بل لعله

لايطيق حتى رؤية هذه الدرامات ممثلة على المسرح .

إن مؤلفات شكسبير يجب أن نستمتع بها قراءة فى الكتب أو رؤية على المسرح ونحن فى طرب الفن والاستمتاع وليس فى العرق والدموع . ومايقال عن شكسبير يقال مثله عن سائر الادباء .

وإنى لأذكرهنا ماحدث لى مما يشير برنارد شو إلى دلالته . فقد كنت قد حفظت وأنا فى السنة الثالثة بالمدرسة الابتدائية قصيدة أبي العلاء « خفف الوطء » ولم أفهم لها معنى إلا أنها تجرى فى الدروس ضمن العذاب المقرر لنا . وكرهت أبا العلاء بسبب هذا العذاب . ولم أعد إليه إلا بعد نحو عشرين سنة حين وجدت فيه دنيا من البر والخير والفن والأدب . ومازلت إلى الآن أعود إليه كى أضحك معه فى إلحاده وأتعمق تلميحاته . ولا أعرف أنى أحب أديبا عربيا قديما قدر حبي للمعرى الذى أوشك معلم اللغة العربية أن يقطع بينى وبينه وهو يعذبنا بإعراب أبياته فى قصيدته « خفف الوطء » .

التربية الذاتية هى التربية الناجعة « وهى إختيار » فى حين أن التربية الجامعية إجبار . ولذلك سرعان مايتخلص منها خريج الجامعة . وبعيد بل يكاد يكون محالا أن يتعلم أحدنا الأدب فى الجامعات . لأن الادب تربية ذوقية وكفاح نفسى ومثابرة الليل والنهار وتغيير للأهداف وتطور وارتياد للقديم والجديد وبحث فى الصين وانجلترا

وتطرق إلى الدين وتعمق للفلسفة . وكل هذا بل بعضه ، لاتستطيع أن تقوم به أية جامعة .

وشيء آخر يجعل التعليم الجامعي ناقصا بل مشوها . ذلك أن جميع الجامعات على الرغم مما تزعم من « استقلال » تؤيد النظم الحكومية القائمة . فترفض دراسة فولتير لأنه كافر . وترفض دراسة كارل ماركس لأنه ثائر . وترفض دراسة لورنس لأنه فاسق . الخ . ولكن طالب الأدب ، خارج الجامعة ، يجد الحرية المطلقة فى الاختيار ويطلب المنهل والمرعى كما يلهمه عقله . وعندئذ يجد الوسيلة بل العتاد لتأثيث ذهنه وبعث المركبات الأدبية والفنية فى نفسه .

يروى أندريه جيد عن أيامه الأولى فى الامتصاص الثقافى أنه كان فيما بين سن السادسة عشرة والعشرين متعلقا أشد التعلق بكتابين يقرأهما ويعود إليهما هما الكتاب المقدس وألف ليلة وليلة ، والجمع بين الأثنين يكاد يعد كفراً فى نظر أستاذ جامعى ، ولكن أندريه جيد لم يتعلم الأدب فى جامعة وإنما تعلمه أو بالأحرى نما إليه وهو حر مطلق يختار ويرعى وينهل كما يشاء .

ومثل هذا الكلام لايقال بالطبع عن تعليم العلوم التطبيقية التى تحتاج إلى معامل لا تستطيع تأسيسها غير الجامعات .

وعندما أتأمل حياة برنارد شو وأتجسس على المعلمين الذين تعلم

عليهم واستلهمهم في صياغة حياته وأدبه وتكوين رجولته أجد أربعة يبرزون في مؤلفاته حيث تتكرر أسماؤهم كما تشرح أفكارهم . هم كارل ماركس ، وفريدريك نيتشه ، وصمويل بطلر ، وهنريك إبسن .

وبرنارد شو معروف بين الجمهور بأنه مؤلف مسرحي . ولكنه في الواقع كان أكبر من ذلك . كان رجلا أولا وقبل كل شيء يجابه الدنيا كما هي بلا إستسلام للخيال . وكان إنسانا حساسا لا يطيق الإستعمار أو الإستغلال أو الاذلال . وكان فيلسوفا يضع الفلسفة على المسرح في الوقت الذى كانت المسارح فيه مشاهد سخيفة للغرام أو القتال أو الزنا أو التهريج .

وأعظم المفكرين الذين تأثر بهم برنارد شو هو كارل ماركس داعية الإشتراكية وبرنارد شو إشتراكي دعا إلى الإشتراكية نحو ستين سنة ولم ينحرف عنها ولم يعرف إصلاحا شاملا للشعب في عيشه وثقافته وحضارته غيرها . وكان كارل ماركس فيما بين ١٨٨٠ و١٩٣٠ مغمورا في إنجلترا لا يعرفه غير المثقفين بل الخاصة من المثقفين . وقد آمن برنارد شو بنظرياته لأنه كان يجد أن الفقر هو علة المرض والجهل والدنس والجريمة . وأنه لا إصلاح لكل هذه الرذائل سوى تعميم اليسر بين جميع أفراد الشعب . وأنه لا سبيل إلى هذا التعميم سوى الإشتراكيه . وأكبر مؤلفاته « المرشد للمرأة الذكية عن

الإشتراكية » هو شرح مبسط لهذا المذهب . وقد انفق الكثير من سنى عمره فى خدمة « الجمعية الفابية » التى كانت تدعو إلى الاشتراكية . ومع أن هذه الاشتراكية كانت تدرجية إصلاحية على خلاف ما دعا ماركس فإن برنارد شو كان على دراسة تامة لزعيم الاشتراكية الثورية وقد انتهى هو وزعماء هذه الجمعية فى أواخر حياتهم إلى الاشادة بالنظام السوفيتى الذى اعتمد زعماؤه من لنين إلى ستالين على كارل ماركس .

وليس بين مفكرى القرن التاسع عشر من أخصب التفكير بين الكتاب وبعث الدراسات العميقة للتاريخ والاقتصاد والعلم وجعلنا نرتفع من الفهم إلى الدلالة بشأن الأخلاق والارتزاق وفلسفة العيش والشرف والإنسانية مثل كارل ماركس. فإنه خميرة إذا دخلت العقول تناولت أبعادها وأعماقها وعملت فيها نضجا وإيناعا .

والماركسية يمكن أن نعرفها فى سطرين وأن نشرحها فى ألف صفحة .

فأما السطران فهما أن المجتمع بما فيه من حكومة وأخلاق وأساليب للعيش وآراء فى الدين واتجاه فى السياسة والأدب والشعر ينبنى كله على نظام إقتصادى إرتزاقى إنتاجى معين . فإذا تغير هذا النظام تغير المجتمع .

وإنه لحظ كبير للرجل المثقف أن يكون قد اهتدى إلى كارل ماركس منذ شبابه . وقد عرفه برنارد شو قبل أن يبلغ الثلاثين واستضاء عقله به طيلة حياته .

أما المعلم الثانى الذى تأثر به برنارد شو فهو فريدريك نيتشه الذى غرس فيه فكرة الإنسان الأعلى (أى السبرمان) الذى سوف يقف منا ما نقفه نحن من القردة . فإن هذه الفكرة الجليلة جعلت من التطور عند برنارد شو دينا حميا يؤمن به ويهدف إلى غاياته البشرية .

فهو يحدثنا عن شهوة التطور فى الإنسان بل يزيد فى عمق التعبير فيقول « الغلمة إلى التطور » باعتبار أنه أساس الحياة ونظامها وأن الوقوف عن التطور تعاقب عليه الطبيعة بالمحو والإبادة . بل هو يذكر الدين بأنه يجب أن يتطور وأن ما نؤمن به هذا العام من عقائد دينية ليس من الضرورى أن نؤمن به فى العام القادم . إذ يجب أن تتسع وتتعمق عقائدنا وتستنير بالكشوف العلمية التى تخدم الصحة والرقى .

وفكرة السبرمان مع ذلك سبقت داروين والتطور . ونحن نجدها عند نيتشه ذات معنيين إضطرب هو بينهما . فإنه دعا إلى أن تسمو الشخصية الفذة على مألوف المجتمع وقوانينه بحيث يصير كل إنسان قانونا لنفسه مستقلا فى قواعده وأهدافه بعيدا عن سلطة « القطيع » . وهو هنا وجودى . وربما كانت شخصية جيته الأديب الألمانى العظيم هى التى ألهمت نيتشه هذه الفكرة التى لا تعدو أن تكون إجتماعية .

ولكن نيتشه أيضا يذكر لنا القردة ويقول إننا يجب أن نهدف إلى إيجاد إنسان أعلى من الإنسان الحاضر . وأن الإنسان الحاضر يجب

أن يلغى نفسه بأن يكون جسراً تعبر عليه الطبيعة من القرد إلى السبرمان . وهو هنا بيولوجى .

وفكرة برنارد شو عن السبرمان أى الإنسان الأعلى بيولوجية وليست وجودية . أى انه يرغب فى إيجاد إنسان مختلف منا زائد علينا فى طول العمر وذكاء الفهم وصحة الجسم الخ . وهو هنا يعتمد على خاصة التطور التى يختص بها كل حى والتى ينقرض وينمحى من الدنيا إذا فقدها .

وربما كان أعظم مؤلفات برنارد شو درامته المسماة « الإنسان والسبرمان » التى تقرأ ولا تمثل إذا لا يمكن أن تمثل إلا بعد حذف الكثير منها مما يخل بمغزاها ، وهى تدل القارىء على ديانة برنارد شو البيولوجية بل على رسالته فى أدبه وفنه .

أما المعلم الثالث الذى تعلم منه برنارد شو فهو صمويل بطلر ، وهو أديب إنجليزى حارب النفاق الاجتماعى الذى كان يقول بأن الحياة العائلية الإنجليزية تسمو وتسعد بروابطها المقدسة ، واستطاع بمؤلفاته أن يشرح للقراء هذا النفاق وأن يبين تعس الأطفال بين الآباء الذين يصرون على أن ينشئوهم على غرارهم وفق عقائدهم وعاداتهم . وقد ألف فى النقد والقصص ، وله قصة خيالية فريدة تدعى « إيروين » عن شعب يعاقب على المرض ولا يعاقب على الجريمة ، وهو يرمى إلى مغزى هو

أن الجريمة كالمرض تحتاج إلى العلاج وليس إلى العقاب ، وانغمس في مجادلات مثيرة بشأن مذهب داروين فى التطور وعارض القول بأن « تنازع البقاء » هو أساس التطور . كما عارض أن التطور حركة عمياء فى الطبيعة لا تهدف إلى قصد . وكتابه « الحياة والعادة » ينقلنا من داروين إلى لامارك من حيث أن العادات هى الأصل فى التطور . وأن الإبن ثم الأحفاد ثم السلائل ، كلها ترث ما اعتاده الآباء والأسلاف من عادات جديدة أقتضتها بيئات جديدة وإن تراكم العادة جيلا بعد جيل يؤدى إلى خصائص وراثية تتغير بها الأحياء وتتطور .

وانتفع برنارد شو كثيراً بصمويل بطلر وأخذ عنه هذه الأفكار جميعها وتناولها فى كثير من مؤلفاته بالشرح والتوسع . وقد أخصبت ذهنه وزادته إنسانية كما زادته بصيرة فى دلالة العلم .

والمعلم الرابع لبرنارد شو هو هنريك إبسن المؤلف النرويجى .

فقد ظهر إبسن حوالى منتصف القرن الماضى بمذهب جديد فى الدرامة هى أنها يجب أن تعالج المشاكل الاجتماعية والفلسفية فى عمق وجراءة . ودرسه برنارد شو وألف عنه كتيباً بعنوان « لباب الأبسنية » دافع فيه عن موقفه هذا . كما أنه تأثر إبسن فى التأليف فجعل المسرح ميدانا للمناقشات الاجتماعية والفلسفية . ولكن ميزة إبسن الأولى وهى دقة الحبكة المسرحية لم يستطع برناردشو أن يرتفع إليها .

هؤلاء المعلمون الأربعة علموا برنارد شو وبرزوا فى وجدانه الثقافى. وكانت لأفكارهم دورات فى ذهنه بحيث تغير بهم وتطور. ولكن هناك مئات من المؤلفين الذين انتفع بهم أيضاً. فقد عاش ٩٤ سنة كان يقرأ ويدرس فيها أو فى ثمانين سنة منها قراءة الوعى والتساؤل والتبصر.

ولم يذكر هنا داروين باعتباره أحد معلميه مع أن فكرة التطور بارزة فى جميع مؤلفات برنارد شو، وعلة ذلك أن برنارد شو كان يسلم بالتطور بل يؤمن إيماناً دينياً ولكنه كان يكره داروين لاعتماده على «تنازع البقاء» ولذلك التطور عنده هو تطور لامارك الذى سبق داروين وقال بأن العادات تورث وأنها هى علة التطور.

إن برنارد لم يكتب تاريخ حياته ولم يخبرنا فى إيضاح مسهب عن أولئك الذين علموه، ولكنه فى مقدماته لدراماته كثيراً مايذكر حياته وكفاحه ودراسته، ومنها نستطيع أن نتبين أن هؤلاء الأربعة، أو الخمسة بزيادة لامارك، قد أثروا فى ثقافته وأخصبوا ذهنه.

ولكن مع ذلك يجب ألا ننسى أن الذى وجه شو وجهة الفن هو أمه التى احترفت الغناء والموسيقى، وهو لا يذكر فضلها لأنه كان يكرهها للمعاملة السيئة التى وجدها منها لأبيه السكير، ويبدو أن هذا الأب كان يحب الصبى جورج كما كان الصبى يتعلق به، وكثير من السكيرين يبدون أبطالا للأطفال، وتزيد هذه البطولة إذا كان البطل أبا، ولكن ليست

هناك امرأة تطيق زوجاً سكيراً عربيداً تافهاً أجوف ليست له غير زجاجة الخمر يعانقها ويفرغها فى جوفه كل يوم ، فالأم تعذر هنا فى كراهتها له .

وكان برنارد شو كان على الدوام يذكر أباه بلهجة الحب ، ولكنه لا يكاد يذكر أمه ، مع أننا نفهم أنها هى التى وجهته وجهة الفن . أجل والاستقلال . إذ كانت تعمل لتكسب قوتها وقوت أبنائها فى وقت كانت المرأة فيه ، حتى فى انجلترا ، قعيدة البيت .

الصداقة حب على مستوى عال

الصداقة حب على المستوى الإنسانى العالى . وهى لذلك تتجاوز الحب الجنسى فى القيم الإنسانية لأن هذا قد ينبعث بالاشتهاء الجنسى أولا فيكون حافزه انفراديا . ثم يتسامى إلى الصداقة . وليس فى هذا بالطبع ما يعيب الحب بل ليس هناك ما يعيب الاشتهاء الجنسى . إذ كيف نعيب شيئا تطالبنا به الطبيعة فى نخاع عظامنا بل يطالبنا به الخلود البشرى ؟ .

ولكن الصداقة ، حين تنشأ بين رجل ورجل أو بين رجل وامرأة ويكون حافزها اجتماعيا وليس انفراديا ، تكون بلا شك أسمى من الحب . بل نحن حين يستولى علينا حب عظيم ، بل حب جنسى عظيم ، نكاد نفقد غريزة الاشتهاء . ألسنا نستطيع أن نقول أحيانا فى بعض تجاربنا : « إن حبى لها كان أعظم من أن أشتهيها ؟ »

والصداقة ميزة للممتازين من الناس إذ ليس كل إنسان قادراً على أن يصادق . ذلك أننا حين نصادق نحتاج إلى قدرة تواتينا على اختيار من يستحق الصداقة . وإلى قدرة أخرى تواتينا على أن نضحى من أجله .

وبين هاتين القدرتين : فضائل لا تحصى من الإيثار والشرف والشهامة والنجدة . وهذه خصال نادرة .

ونحن نجد فى الحياة ألوانا من الإستمتاعات كالثقافة ، والطبيعة ، والحب الجنسى ، والأبوة ، والهناء العائلى ، والفلسفة ، والإنسانية ، ونحو ذلك . ولكن يجب أن نعد الصداقة فى مقدمة هذه الإستمتاعات وهى بلا شك إستمتاع نادر لأن القادرين عليها ، كما قلنا ، نادرون . وهم نادرون لأن المجتمع قد ربانا وأنشانا على الإنفرادية الأنانية التى تعوق الصلات الإجتماعية . والصداقة صلة إجتماعية قبل كل شىء .

وكثيراً ما تلتبس علينا القرابة بالصداقة . حتى إننا لنتحمل القريب مهما خطر وفدح إيذاؤه لنا ، أو حين تقطع الظروف بيننا وبينه ، فلا تكون هناك مشاكلة أو مقاربة فى منهج عيشنا أو أهدافنا أو ثقافتنا . ومع ذلك نتكلف له « الصداقة » الجوفاء التى لا تزيد على أن تكون فرضا إجتماعيا نتأفف منه فى أعماقنا ولكننا لا نصرح به ، مع أن التصريح به هو خير ما نفعل ، لأن القرابة مصادفة عمياء قضت بها الطبيعة ولكن الصداقة اختيار وتعقل .

وتبادل الصداقة بين كفئين هو تربية إنسانية عالية كما هو سعادة عظمى أكاد أقول إنها لا تدانيها أية سعادة أخرى ، ولست تجد عظيما لهذا السبب إلا وله صديق أو أصدقاء آزروه على أن يبلغ عظمته .

ونحب هنا أن نذكر أصدقاء برنارد شو ، فقد كان شخصية فذة وكان له لذلك أصدقاء أفذاذ إختارهم واختاروه للمشاكلة فى الأهداف .

وكان أعظم أصدقائه فى هذه الدنيا شارلوت زوجته « التى كان حبه لها أكبر من أن يشتهيها » ، وقد عاش معها ٣٥ سنة لم ينفصل عنها يوما واحدا ، بل لم ينفصل عنها بعد موته ، فقد أحرق جثمانها وحفظ الرماد فى زجاجة ، فلما مات هو أوصى بإحراق جثمانه ثم خلط رماده برمادها ، وأنفذت الليدى أستور هذه الوصية . ونحن نحس هنا الوفاء فى هذه الصداقة الفريدة ، بل جمال الفكرة فى هذه الأسطورة التى تحمل إلينا فى معانيها رمزاً إنسانيا نكاد نتذوق جماله ونتنهد لإنسانيته ، ونحب أن نقول إنهما كانا يحييان معاً بعد الموت فى زجاجة على الرغم مما فى هذا القول من لغو ، إذ هو لغو محبب إلى نفوسنا .

ومنذ تزوج برنارد شو انقطع عن أقاربه بل أقاربه الحميمين إذ لم يجد فيهم أصدقاء ، فقد كانت أهدافه غير أهدافهم وأسلوب عيشه غير أسلوبهم ، ومن السخف أن يتكلف الصداقة لهم ويرهق نفسه بها فى مثل هذه الأحوال ، وانقطع أقاربه الحميمون ، مثل أمه وأخته ، عن زيارته عقب زواجه إلى وفاتهما ، ومع أنه كان مثابراً على معونتهما بماله فإنه لم يستطع أن ينسى أنهما سودتا عيشه معهما حين كان لا يزال كما مهملا فى هذه الدنيا يعجز عن كسب لقمته .

ولسنا نعرف كثيرا عن علاقته بزوجته سوى الهناء الذى كانا ينعمان به كما كان يبدو عليهما أمام الزائرين والأصدقاء ، وكانت هى أديبة غير صغيرة لها بعض المترجمات من الدرامات الفرنسية التى وضع برنارد شو مقدمة لها ، وقد عرفته عن طريق صديقيه سيدنى ويب وزوجته بالجمعية الفابية ، ولزمت فراشه حين كسرت ساقه وهوأعزب وكانت تعنى به وتمرضه إلى أن برىء حين عقد زواجهما .

وأقرب الأصدقاء إليه بعد زوجته هو وليم آرتشر الأديب الناقد الذى ترجم درامات ابسن من اللغة النرويجية إلى اللغة الإنجليزية ، وكان آرتشر عضواً عاملا فى جمعية « العقليين » ، وهى جمعية تناهض الأديان جميعها وتنشر على الجمهور كتبا علمية بأثمان تافهة بل غاية فى التفاهة ، فقد كانت تبيع كتاب « أصل الأنواع » لداروين بخمسة وعشرين مليما ، ونشرت المئات من كتب العلم بهذا الثمن أو بأقل وعممت التفكير العلمى بين طبقة كبيرة من القراء ، ولعل مما يستغربه القارىء المصرى أن ج . م . روبرتسون الذى كان صديق مصطفى كامل والذى دافع عن مصر أيام حادث دنشواى ، هذا الرجل كان من أقطاب هذه الجمعية وكان داعية الإلحاد فى انجلترا .

ويبدو من الكثير الذى كتبه برنارد شو عن وليم آرتشر أنه عرفه منذ أيام شبابه الأولى وأنه هو الذى وجهه فى حياته الأدبية أو كان له

أكبر تأثير عليه . وكان هبوط برنارد شو على ابسن من أعظم الحظوظ التى لقيها . فإنه هو الذى فتح ذهنه لدلالة الدرامة الاجتماعية التى احتضنها شو بعد ذلك وجعلها رسالة حياته .

واشترك الاثنان فى التأليف المسرحى . ولكنهما لم يفلحا فى ذلك لأن التأليف هنا شخصى فردى يستند إلى مزاج وعاطفة كما يستند إلى عقل . وبلغ من دالة شو على صديقه أن وبخه ذات مرة على تقصيره وتخلفه وعزا ذلك إلى زواجه . وكان آرتشر قد تزوج فتاة ذكية تعلق بها كثيراً . وفهم آرتشر من هذا التوبيخ أن شو يدعوه إلى الطلاق أو الانفصال أو على الأقل النسك ؛ حتى يستعيد كفاءته الأدبية . وغضب . وأرسل خطابا إليه يمنعه فيه عن زيارته . وبقيت هذه الجفوة بينهما مدة . ولكنهما عادا إلى الصفاء .

وحدث أن احتاج وليم آرتشر فى سنة ١٩٢٤ إلى إجراء عملية جراحية خطيرة . وكان وقتئذ فى نروج . وفى مثل هذه الظروف يذكر الإنسان دنياه التى قد تزول فجاءة إزاء المجهول فى التردد بين الحياة والموت . ولذلك كتب قبل إجراء العملية بساعات هذا الخطاب إلى برنارد شو :

« عزيزى برنارد شو :

« عرفت ، بعد أن كتبت إليك خطابى الأخير ، أنى محتاج إلى

إجراء عملية جراحية هذه الأيام . وسأذهب إلى المستشفى غدا ، ولست أعرف إذا كانت هذه العملية خطيرة جداً أم لا ، والواقع أنى أحس الصحة الـكاملة ، وظنى أنى سأنهض منها معافى ، ولـكن ، مع ذلك ، قد يحدث غير ماننتظر ، وهنا أجد العذر لأن أقول لك كلمة أرجو وأؤمل أنه لم يداخلك شك قط بشأنها ، وهى أنى على الرغم من بعض مواقفى نحوك وإنى كنت أخاطبك وأعاملك أحيانا ، بلهجة اللوم والتأنيب ، فإنى لم أتردد قط فى إعجابى بك وحبي لك ولم أكف عن الإحساس بأن الأقدار قد حابتنى حين جعلتك صديقاً لى وجعلتنى أعيش فى هذه الصداقة سنى حياتى ، إنى أشكرك من قلبي لأربعين سنة أمضيتها فى زمالتك .

« ومهما قيل عنى فلن يقال إنى لم أعش فى مجتمع حسن »

« تناولت غدائى اليوم مع ملك نروج والأمير أولاف »

« تحياتى وتسليماتى إلى زوجتك وهنيئا لـكما عام ١٩٣٥ »

« المخلص »

« و . آرتشر »

ووصل الخطاب إلى برنارد شو بعد وفاته .

ونحن نتنهد فى شجن لهذه الصداقة السامية التى ربطت هذين الأديبين ، فلقد اختار كل منهما الآخر لمـا فيه من سمات عالية يجد فيها

ما يرفعه ويرقيه ، وارتقى كل منهما بهذه الصداقة واستمتع بها بأكثر مما يستمتع الحبيبان بحبهما .

وكلمة الحب تذكرنا بصداقة أخرى مارسها برنارد شو ، وأنت بعد أن تقرأ ما سأقوله عنها ستتساءل : هل كانت هذه صداقة أم حبا ؟

ففى الربع الأخير من القرن الماضى اكتسحت المسرح الإنجليزى ممثلة عظيمة تدعى الين ترى . وكان جمال وجهها لايساويه إلا فصاحة لسانها ، وهذا إلى ذكاء نادر وثقافة واسعة .

وأحبها برنارد شو وكتب اليها رسالة حب .

وردت الين ترى على الرسالة برسالة تستجيب فيها لحبه ، وكان برنارد شو يراها كل مساء على المسرح فلا يحاول لقاءها ، وكانت هى تنظر من خروق الستار إليه وهو فى الصف الأول بين المتفرجين .

وتبودلت رسائل الحب بينهما سنين ، ولكن بلا لقاء .

هل كان حبهما أكبر من أن يشتهى أحدهما الآخر ؟

إن فى برنارد شو نسكا عجيبا إذ كان يعزف عن اللحم فى الطعام ولا يشرب الخمر ولا يدخن ، وقد عاش مع زوجته شارلوت نحو نصف قرن لم يحدث فيه بينهما اتصال حميم ، فهل كان هذا العزوف عن اللقاء بينه وبين الين ترى نسكا ؟

ألا يمكن أن نفسر هذا العزوف بأنه وسيلة لاستبقاء الحب حتى

يبقى مشتعلا لاينطفىء باللقاء؟ بل ، ألا يمكن أن نقول إن هذا العزوف كان وسيلة لزيادة الحب واحتدامه ؟

إنى أكاد أسمع همسات القارىء هنا بأنه لم يكن هناك حب . أو إذا كان هناك حب فإن فى برنارد شو علة أو عللا حالت دون الوصول به إلى غايته الحميمة .

ولكن علاقات برنارد شو ، خارج الزمام ، كانت فاضحة على الرغم مما عرف عنه من التعقل فى سلوكه . ومما يذكر عنه أنه « اشتهى » إحدى الممثلات وتعقبها فى رواحها وغدوها حتى فرت من الفندق فى أحد المصايف . وتركت المصيف كله هروبا منه .

لكأن برنارد شو يقول : « من أحببناه هجرناه » .

إن الموقف سيكولوجى دقيق يحتاج إلى التحليل . وليس عندنا من التفاصيل مايكفى لهذا التحليل . ولذلك نتركه كى يعبر به القارىء ويتأمله ويجتره يحاول أن يحله وفق مايحس ويعقل . والتفكير هنا ينفع كثيرا .

ولكن صداقة العمر التى استمتع بها برنارد شو أكثر سنى حياته هى صداقة لسدنى ويب وزوجته بياترس ويب . فقد كان هؤلاء الثلاثة كالشخص الواحد أكثر من ستين سنة ، لهم هدف موحد

ووسائل موحدة يستجيبون لأحداث العالم وتطوراته وكأنهم على خطة لاتتغير .

عرفهما برنارد شو قبل أن يبلغ الثلاثين . وتزوج شارلوت بإيحائهما . ولما ماتت شارلوت تركت فى وصيتها ألف جنيه هدية وتقديراً لبياتريس ويب . وبياتريس ويب امرأة من أولئك النسوة الجديدات فى عصرنا . يمكن أن نقول بأنها كانت وجودية من حيث لم تكن تدرى . فقد استقلت منذ شبابها وأصرت على أن تحيا حياتها كما تريد وترغب . وتعلمت بوحى عقلها . وجربت .

عرفت وهى فتاة فى بداية العقد الثالث من عمرها أن العاملات من الفتيات والزوجات الفقيرات اللائى يعملن فى الخياطة فى الحى الفقير فى لندن بجهدهن ويستغلهن تجار عتاة لا رحمة عندهم ، فاندمجت بينهن وعملت معهن وتناولت أجوراً مثلهن مع أنها كانت تنتمى إلى عائلة غنية . وبقيت على ذلك تدرس أحوالهن فى السلوك والطعام والمأوى . وكتبت عن حياتهن فصولا حفزت المفكرين بعد ذلك على ضرورة الإصلاح .

وتزوجت بياتريس زوجا عجيباً من أولئك الأفذاذ الذين يحبون الدنيا ، أكثر مما يحبون أنفسهم . ولذلك تحبهم الدنيا بعد ذلك وترفعهم إلى القمم . وقد صار سدنى ويب بعد ذلك وزيراً فى حكومة العمال .

وكان بيت ويب ، زوجا وزوجة ، مكتبة من أوله إلى آخره ، من دهليزه إلى مطبخه . وكانت مائدة الطعام منضدة العمل . يتناولان طعامهما ثم يفرشان المنضدة ويضعان الكتب والأوراق لدراسة الإنسانية .

درسا الاشتراكية وآمنا بها وكان لكل منهما مجهود احتاج إلى عرق وتعب فى تنشئة الجمعية الفابية التى علمت الأغنياء مبادىء هذا المذهب . وبحث كلاهما البؤس والاجرام ونظم الحكم وتعليم الشعب ونحو ذلك مما استغرق كل حياتهما .

وعرفهما برنارد شو وتعلم منهما كثيراً كما تعلما منه . وتوثقت الصداقة بين الثلاثة . وكانت صداقتهم تنهض على وحدة الهدف وهى الاشتراكية لانجلترا .

* * *

لقد ذكرت هنا بعض الأصدقاء الذين اختارهم برنارد شو أو اختاروه . فكانوا زملاء العمر ، يجد كل منهم الوفاء من صاحبه له ويستمتع بحبه والأديب بطبيعته قليل الأصدقاء يتأنق فى اختيارهم لأن عمله انفرادى يحتاج إلى الخلوة أكثر مما يحتاج إلى الإجتماع .

ولكن هناك أصدقاء تؤثرهم على هذه الخلوة المقدسة لأنهم ممتازون فى القلب والعقل نأتنس بقلبهم ونستنير بعقلهم . ونحن بؤساء حين لا يكون لنا أصدقاء .

العبقرى فى زواجه

الزواج ، باعتباره عيشامشتركا بين اثنين ، يعد مشقة منذ بدأيته إلى نهايته عند كافة الناس . وخاصة إذا كانت الزوجة على شيء من التربية التى علمتها الإستقلال والآباء فلا تطيع الطاعة العمياء . ولكنه عند العبقريين ، من رجال الفن أو الفكر أو القصد الإنسانى النبيل يعد أكثر من مشقة ، يعد مشكلة .

ذلك أن كلا من الزوجين يحصل ، إلى قبيل سن العشرين أو بعدها ، على تربية معينة فى بيئة مختلفة ترسم له قيما محدودة تخالف مايحصل عليه الآخر . فإذا كان الزواج بعد ذلك فى عيش مشترك تصادمت القيم وانعكس فى مستقبلهما اختلاف بيئتيهما فى الماضى .

يحدث هـــذا عند كافة المتزوجين الذين يعالجونه بالتسامح والمحاولة والملاءمة .

ولكن العبقريين يجدون فى الزواج مشكلة تحملهم على التفات خاص ينقص من التفاتهم إلى عملهم العبقرى . ولذلك كثيراً ما يعزفون عن المعيشة الزوجية أو يؤثرون حياة العزوبة فلا يتزوجون .

واعتقادى أن بؤرة المشكلة فى الزواج إذا كان الزوج عبقريا ، أنه ، أى هذا الزوج ، يؤثر الأهداف الإنسانية على الأهداف الاجتماعية . هو ينشد الثقافة أو الفن أو الحرية أو الاشتراكية ويرضى بأن يضحى بماله وأحيانا بحياته فى سبيل ذلك . بينما هى ، أى الزوجة ، تؤثر الأهداف الاجتماعية كالثراء والترف ومصلحة الأبناء والمسكن الممتاز والضيافة الكريمة ونحو ذلك .

هو يطلب الوحدة التى تتيح له الإنتاج فى حين هى تطلب الاجتماع .

هو إنسانى وهى اجتماعية . ولذلك تصطدم أهدافها بأهدافه .

وإلى هنا نفهم من الشقاق ، أو على الأقل الخلاف ، بين الزوج الممتاز والزوجة العادية . وكثيراً ما نعتقد أن هذه الزوجة تعطل زوجها الممتاز وتحول دونه والإنتاج المثمر . وهنا نذكر كلمة نيتشه :

أف للزوج العبقرى من الزوجة البطة .

بل نذكر البطة التى تزوجها سقراط والتى أتعست حياته .

والرجل ، حين يستغرق فى فنه العالى أو قصده العالمى ، يحب ألا يستأثر بوقته سوى هذا الفن أو القصد : بل هو يضن بالأوقات القصيرة التى تتطلبها المعاشر الزوجية . وهو إلى هذا فوضوى فى سلوكه فى البيت ؛ ينام فى غير ميعاد ويتناول وجباته على غير قياس .

وقد يسهر الليل كله فى غير عمل واضح أو ينام النهار كله بلا مرض عاذر . وهو ينكر نفسه عن ضيوفه الذين قد تحب زوجته الترحيب بهم . وهـذا السلوك لا يبعث فى نفس الزوجـة سوى القلق . بل أحيانا النفور منه .

وقد عاش أناطول فرانس منفصلا عن زوجته . كما فعل مثل ذلك هنريك ابسن . لأن كلا منهما وجد أن حياة العزوبة أكثر إنتاجا من حياة الزواج . وقد ختم تولستوى حياته بمأساة بعد حياة زوجية كابد فيها العذاب من المحاولات المتكررة التى قامت بها زوجته كى تجعله اجتماعيا بينما هو كان ينشد الأهداف الإنسانية . وترك بيت الزوجية بل فر من زوجته ، فى فجر أحد الأيام وأمضى نحو ١٨ يوما وهو يحاول الفرار إلى أن مات فى إحدى القرى النائية . وكأنه بهذا العمل كان يرمز إلى أن الحياة الزوجية لاتلائم العبقرى .

وعندما نتأمل الأسباب التى دعت تولستوى إلى كراهة المعيشة الزوجية لانتمالك الإحساس بأن هذا الرجل قد ظلم زوجته أكبر الظلم . فقد تزوجته وهو « كونت » أى أحد النبلاء له ضيعة إقطاع . وأن زوجته أنجبت له أبناء ينتظر لهم وراثة هذه الضيعة نعذرها فى موقفها . ولكن تولستوى كان إنسانا .

كانت هى امرأة اجتماعية تفكر فى تعليم أبنائها وتزويج بناتها وفق

القواعد والعادات فى طبقه النبلاء . وكانت تحرص لذلك على ريع الضيعة . وتفكر فى تنشئة هذا الابن الذى يحتاج إلى الرحلة إلى بطرسبورج كى يتعلم فى الجامعة . كما تفكر فى هذه الآنسة الصغيرة التى ستكون عروسا تحمل صدرها الجواهر الغالية .

اعتبارات اجتماعية لانستطيع أن نلوم الزوجة الأم عليها .

ولكن الإنسان فى تولستوى كان يوحى إليه : دع الأرض للفلاحين ولا تنتفع بمليم من مكاسبهم وعرق عضلاتهم .

وهنا تصرخ الزوجة الاجتماعية . ويصرخ الزوج الإنسانى : خلاف لاينقطع .

ثم لايكتفى تولستوى بذلك . بل يعلن أنه كافر لايؤمن بالكنيسة الأورثوذكسية . ويقرر المجلس الأعلى للكنائس حرمانه أى إخراجه من حظيرة المسيحية .

وتتأمل الزوجة الاجتماعية هذا القرار فتبكى لمصير أبنائها . وخاصة بناتها إذ من يتزوج هؤلاء البنات وأبوهن كافر ؟ ولكن الاعتبارات الاجتماعية لا قيمة لها عند تولستوى إذ أن جميع اعتباراته إنسانية .

وإلى هنا نفهم . ونشفق . ونترحم . ونكاد نقول إن نيتشه قصد إلى معنى واضح حين تأفف من العبقرى يتزوج البطة . هو معنى واضح ولكنه مؤسف فى مجتمعنا العصرى الذى كان أيضا يسود روسيا أيام القياصرة .

ولكن هناك معنى آخر من أضطراب الحيـاة الزوجية يعلو على الخلاف الذى كان بين تولستوى وزوجته .

فقد كان هذا الخلاف زوجيا عائليا يتعلق بميراث الأبناء ومركز العائلة الاجتماعى ومستقبلها فى المجتمع . أما الخلاف الذى نقصد فيعلو على المشاجرات الدائمه بين تولستوى وزوجته . إذ هو من طراز آخر . ذلك أن أوربا ، التى كانت تهتز بالحركات والنزعات والاختمارات الاجتماعية والإنسانية حوالى ١٨٨٠ ، كانت تتحدث كثيرا عن الزواج . وكانت حركة « الحياة الجديدة » التى ظهرت فى لندن فى ١٨٨١ إحدى الحركات التى بعثت التفكير والابتكار . وكان مستوى المرأة قد ارتفع وأصبحت تنشد آمال الرجال وتؤدى أعمالهم وتحيا فى استقلال اقتصادى يبعث ، كما هو الشأن على الدوام ، على استقلال فكرى وفلسفى واجتماعى .

وهنا نجد ابتكارا جديدا فى الزواج . فإن هافلوك اليس الاختصاصى فى درس الشئون الجنسية ، وهو عالم وفيلسوف وأديب ، يتزوج الآنسة لى . ويتفق كلاهما على أن يعيش كل منهما فى مسكن منفصل حتى إذا كانت أيام الاصطياف فى شهرى يونيه ويوليه مثلا قصد الزوجان إلى المصيف يمضيان فيه ، معا ، فى مسكن واحد هذه الإجازة السنوية . فيكونان بمثابة عروسين يمضيان شهر العسل فى اشتياق

قد زاده الحرمان طوال الشهور الماضية مدة الانفصال .

وقد قرأت تاريخ حياتيهما وتأملت هذه التجربة . وأستطيع أن أقول أن الزوج قد سعد بهذا الانفصال . أما الزوجة فلم تسعد .

ويسهل علينا أن نفهم لماذا سعد الزوج فإنه كان مؤلفا ومفكرا عظيما مشغول الذهن والقلب بقصد إنسانى عظيم هو تعميم الثقافة الجذية الصحيحة بين الجماهير . وقد نجح فى ذلك . كما نجح فى تعميم العلوم الجديدة التى رفعت جمهور القراء من سذاجة العقائد الموروثة إلى حقائق الطبيعة والكون والحياة .

قصد إنسانى عظيم إستأثر بحياته احتاج إلى أن يعيش منفردا بلا زوجة تشغله وتشاركه العيش فى مسكن واحد .

ثم هى كانت امرأة عظيمة . فقد أسست نادياً للنساء العاملات وألفت كتباً ودعت إلى أن المرأة يجب ألا تستأثر واجبات البيت بكل وقتها إذ عليها أن تربى شخصيتها بالعمل المنتج كالرجل سواء . ولكنها مع الأسف لم تتحمل كل ما اضطلعت به فانهارت شخصيتها حتى احتاجت إلى المعالجة فى المستشفيات .

لقد إبتدع كلاهما بدعة الزواج الانفصالى الذى نسمع هذه الأيام، بعد سبعين سنة من إبتداعهما له . بأنه ينتشر فى أوربا وأمريكا .

وهو ينتشر لسبب أصيل فى الحضارة القائمة التى علمت المرأة

وحققت لها الاستقلال الاقتصادى وكونت شخصيتها فاحتاجت إلى العيش المستقل فى المسكن المستقل .

وهنا ننتقل إلى برنارد شو .

لقد عاش هذا الرجل عن قصد يحاول أن يغير الدنيا والمجتمع . وتزوج الآنسة شارلوت تونسند . وعاش معها فى حياة « زوجية » أكثر من ٣٥ سنة . ولكن لم يتم بينهما اتصال جنسى فى كل هذه السنين .

لقد كتب برنارد شو فى إحدى مقالاته عبارة تستحق أن نقف عندها ونتأمل معناها فى ضوء هذه الحقيقة التى باح بها للمترجم بحياته سانت جون ارفين . قال :

« إن أعظم ما أنشده فى حياتى أن أجد فى لذة الفن تلك الحماسة التى أجدها فى اللذة الجنسية » .

ويقول لنا المترجم بحياته هذا أن شارلوت كانت تكره الرجال وإنها شرطت على برنارد شو قبل الزواج أن تبقى عذراء .

ولكن من منا يسيغ هذا الكلام ويقبل هذا المنطق ؟ فإن المرأة التى تنفر من الرجال تستطيع العيش فى عزوبة بعيدة عن الرجل . وكذلك برنارد شو لم يكن بالعازف عن المسرات الجنسية كما نعرف من اقتحاماته الغرامية العديدة قبل الزواج .

وإذن كيف نفسر هذه الرهبانية فى مسكن برنارد شو أربعين سنة ؟

أفسرها بأنه قد تزوج بعد الأربعين أى بعد أن شبع من المغامرات الجنسية . وحين شرع الفن والثقافة ودعوة الاشتراكية ونزعة الإنسانية تستولى جميعها على كيانه النفسى الذهنى وتستأثر بكل مجهوده ، وصار يجد أن هذا المجهود يجب ألا ينتقصه أى مجهود آخر فى الحياة الجنسية .

إنها حياة العزوبة قد آثرها الفنان أمام نفسه وضميره مع النفاق الاجتماعى الذى خدع به الناس وأوهمهم أنه زوج مثل سائر الأزواج حتى لا يثير موقفه التساؤل والاستطلاع من الفضوليين .

وعلى قدر القصد الإنسانى تكون التضحية باللذات .

لقد فعل ذلك أيضاً غاندى . وبقى « أعزب » مع زوجته نحو عشرين أو ثلاثين سنة قبل وفاته .

وربما نحتاج هنا إلى سؤال سيكلوجى :

هل سلك برنارد شو هذا السلوك قسراً أم عفواً ؟ أى هل كان يمنع نفسه أم كان يمتنع بلا منع ؟ .

وجوابى أنه كان يفعل ذلك عفواً بلا أدنى إحساس بالقهر والقسر . ذلك أنه بعد اقتناعه بضرورة قصر مجهوده على الفن والثقافة ، وجد عزوفاً طبيعياً عن الاشتهاء الجنسى . أى أن استنكاره لهذا الاشتهاء ،

من حيث أنه يؤخر بجهوده الفني الثقافى ، قد أصبح « طبيعياً » . وموقفه هنا يشبه موقف رجل آخر عرفته أنا . فقد مات ابنه وحزن عليه حزنا محرقا . وأحس فى أعماقه أن حقه فى ملذات الدنيا قد سقط بعد هذه النكبة فذهب عنه الاشتهاء الجنسى تماما . وذهب عفواً بلا أدنى قسر .

وهنا سؤال : هل كان برنارد شو وزوجته سعيدين بزواجهما ؟ والجواب أن الذى نستطيع أن نقطع به أنهما كانا سعيدين بزواجهما على الرغم من هذا « الشذوذ » . وذلك لأن الحب أخذ مكان الاشتهاء عندهما . وبين الاثنين ما يقارب المضادة . إذ عندما يزيد الاشتهاء ينقص الحب . ثم العكس . لأن الحب حنان أما الاشتهاء فعدوان .

والحنان ، أى حنان الحب ، يحتاج إلى شخصية نعرفها ونأتنس إلى لغتها وأخلاقها وتاريخها . أما الاشتهاء فيمكن أن نحسه نحو أى شخص لمفاتنه الجنسية فقط حتى ولو كنا نجهل لغته واسمه .

وقد يصل أحيانا عدوان الشهوة إلى الاغتصاب . ولكن هذا لا يمكن أن يحدث فى الحب .

وقد كانت شارلوت سعيدة بأن تعيش إلى جنب عبقرية فذة وإنسان منذور للإنسانية . كما كان برنارد شو سعيدا بأن يعيش مع امرأة تتيح

له التسامى بالغريزة الجنسية إلى آفاق الثقافة والفن بحيث يستطيع أن يحس أنه جزء من القصد العام فى التطور البشرى .

ولكن الذى يجب أن نؤكده هنا أن مثل هذا الزواج الذى يجحد الحيون فى الإنسان لايمكن أن يتم ، مع سعادة العيش ، إلا بين اثنين يرتفعان إلى المستويات العليا من الحياة . . وهذا نادر فى عصرنا بل فى كل عصر .

الاشتراكية مذهب شو

مذهب برنارد شو فى السياسة والمجتمع هو الاشتراكية .

عرف هذا المذهب قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره ودعا إليه وروج له وضحى بوقته وجهده لإيضاح مزاياه .وما كنت فى حاجة لأن أشرح هذا المذهب لولا الأمية السياسية التى عممها قانون المطبوعات فى مصر حين كانت تؤيده هيئة مؤلفة من البوليس السرى لتعقب المفكرين كما تتربص بالشعب « نيابة عامة » تقدم المفكرين للقضاء وتطلب معاقبتهم . وإلى كل هذا عشرون سنة من الرقابة على الصحف ، وهى رقابة عرفتها أنا وعرفها الصحفيون والمؤلفون فى الحكومات الغابرة حين لم يكن يؤذن لنا بنشر جملة فى كتاب إلا إذا أذن بها الرقيب الذى لعله لم يكن ليرتفع فى المستوى الثقافى إلى مقام المؤلف نفسه .

المذهب الاشتراكى يقوم على تأميم الممتلكات التى تحتاج فى إستغلالها إلى عمل العمال . بينما المذهب الانفرادى الذى نعيش نحن على نظامه يجيز للفرد أن يمتلك الممتلكات ويستخدم العمال لاستغلالهم وزيادة كسبه بهذا الإستغلال .

نحن نعيش فى نظام إنفرادى . ولكن المجتمع الانفرادى ، مهما بالغ والتزم الروح الانفرادى فى نشاطه الاقتصادى يحتاج إلى شىء كبير من الاشتراكية . وإلا عمت الفوضى . فنى مصر مثلا تدير الحكومة مصالح التلغرافات والتليفونات والبريد والسكك الحديدية والطرق والجسور ومشروعات الرى كما تدير المدارس والجامعات والمتاحف وصيانة الآثار . وعندنا مجالس بلدية تتولى إضاءة المنازل والشوارع وإيصال المياه النقية للمساكن .

كل هذه الأعمال اشتراكية يديرها الشعب الممثل فى حكومته الرئيسة أو بمجالسه البلدية العديدة لمصلحة الشعب . أى أنها لا تملكها وتستغلها هيئات كالشركات مثلا فتديرها لمصلحة الكسب الذى يعود على مساهميها . بل لقد كانت إضاءة القاهرة وكذلك مياه الشرب إلى وقت قريب تقوم بها شركتان استغلاليتان .

كان نظام إيصال الضوء الكهربائى والغازى وكذلك إيصال الماء للبيوت والمصالح انفراديا حين كانت تتولاه شركتان غاية نشاطهما كسب المساهمين أولا ثم خدمة السكان فى القاهرة ثانيا . ولكن الحكومة المصرية استولت عليها . فاصبح مساهموها الشعب بدلا من الأفراد الذين كانوا يشترون أسهم الشركتين فى البورصة .

وليس من المعقول أن الشركتين كانتا تخدمان الشعب بإخلاص يزيد على إخلاص الحكومة المصرية للشعب المصرى .

والقضاء والتعليم كلاهما نشاط اشتراكى لايمكننا أن نسلمه لشركة أو لافراد كى يقوموا هم به بدلا من الحكومة .

الافراد والشركات يقومون بالاعمال بغية الكسب .

ولكن الحكومة العامة ، والحكومات الخاصة الممثلة فى المجالس البلدية تقوم بالأعمال بغية الخدمة العامة للشعب . ومن هنا أفضلية نظم الاشتراكية على النظم الانفرادية فى الاستغلال .

كان الطب نشاطا انفراديا فى انجلترا إلى وقت قريب . ثم أصبح مؤمما . فماذا اعنى بكلمة التأميم وكيف كان الطب قبل التأميم ثم بعده ؟

كان الطبيب قبل التأميم يعالج المريض ويطالبه بالأجر كما يهوى : تجارة حرة بين الطبيب والمريض . فكان من مصلحة الأطباء أن يكثر المرضى بل كان من مصلحة الطبيب أن يبقى المريض أطول مدة ممكنة تحت العلاج حتى يحصل الطبيب على أكبر مقدار من الأجر .

وكان الأثرياء يمتازون بأحسن الأطباء الذين يكافئونهم بأكبر الأجور التى يعجز الفقراء عن تقديمها لهم . فكان الأثرياء يدخلون المستشفيات الفخمة ويجدون الخدمة الممتازة حين كان الفقراء يقنعون

بالطبيب الرخيص الذى قد يكون كذلك لأنه غير كفء فى المعالجة . ولم يكونوا يجدون سوى المستشفيات الحقيرة .

ثم أمم الطب فى إنجلترا .

فلم يعد الطبيب يتناول أجراً من المريض وإنما هو يتناول مرتبه آخر الشهر من هيئة حكومية . وصار أفقر الفقراء يجد العناية التى يجدها أثرى الأثرياء كما أن طقوم الأسنان ، والنظارات ، والسماعات ، وزعت بالمجان على المحتاجين إليها .

وأخيراً أصبح من مصلحة الأطباء أن تنتشر الصحة وتقل الأمراض حتى لا يتعبوا فى العلاج ، لأن زيادة الأمراض لن تزيد أجورهم .

ونحن فى مصر نكلف الدولة القيام بالتعليم المدرسى والجامعى . أى أن التعليم مؤمم . وقد كان يمكننا أن نترك التعليم كله للهيئات غير الحكومية شركات أو أفراد . فهل لو كان كذلك كنا ننتفع به كما ننتفع الآن به وهو مؤمم تحت إشراف الحكومة ؟ .

ولسنا مع ذلك اشتراكيين فى مجموع أو معظم نشاطنا وأعمالنا . وإنما بدون هذا القليل من النظم الاشتراكية فى الدولة لا يمكن البقاء .

بل الدفاع عن البلاد بالجيش والأسطول والطائرات عمل اشتراكى لا يمكن أمة مهما بالغت فى الإيمان بالمذهب الانفرادى أن تأتمن الأفراد أو الهيئات الحرة على أن تتولاه .

بل أكثر من هذا :

فإنه حين تحدث الأزمات ، لقلة المعروض من القمح أو البترول أو نحو ذلك تنهض الحكومات وتتدخل لمنع المباراة الحرة فى هذه الأشياء . فتشترى هى القمح أو البترول وتبيعهما لأفراد الشعب . وذلك لإيمانها الراسخ بأن التاجر الحر عند ما يجد قلة فى سلعة معروضة للبيع يرفع أثمانها . وقد يخفيها حتى يحس الجمهور قلتها فيزيد فى الثمن لشرائها .

نظام المباراة الحرة فى الكسب هو النظام الانفرادى .

ونظام الاشراف أو الإدارة الحكومية هو النظام الاشتراكى .

ولكن وصف الاشتراكية بأنها نشاط حكومى يحدث التباسات .

وصحيح أن هناك اشتراكية حكومية حين تدير الحكومة الرئيسة السكك الحديدية مثلا . أو حين يتولى المجلس البلدى كنس الشوارع وتنظيم المواصلات فى المدينة . ولكن الاشتراكية أكبر من هذا .

فحين يكون هناك مصنع أو مزرعة يتولى العمال إدارتهما بأنفسهم ويؤلفون من أنفسهم حكومة لهذا المصنع أو لهذه المزرعة يعينون الأجور ، كما يعينون المبالغ للتجديد والترميم ، ويختارون اللجنة المشرفة . والحكومة الرئيسة (المركزية العامة) لا تتدخل فى إدارة هذا المصنع إلا بمقدار ما تحافظ به على مصلحة المستهلكين أو للفصل فى خلاف تعجز اللجنة المشرفة عن علاجه .

النظام الاشتراكى يقوم على :

١ ــ أعمال تتولاها الحكومة المركزية .

٢ ــ أعمال تتولاها المجالس البلدية .

٣ ــ أعمال يتولاها العمال أنفسهم عن طريق نقاباتهم أو شركاتهم التعاونية .

وليس هناك شعب يعيش على النظام الرأسمالى (أى المباراة الحرة بين أصحاب الأعمال من الأفراد أو الشركات) يمكنه أن يستغنى عن نحو عشرين أو ثلاثين عمل اشتراكى كما هى الحال فى مصر الآن . وما يطلبه الاشتراكيون هو تعميم هذا النظام الاشتراكى على جميع الأعمال التى تحتاج إلى عمل العمال حتى تأخذ الخدمة الاشتراكية مكان الاستغلال الفردى .

* * *

نظام المباراة الحرة فى الإنتاج هو نظام تنازع البقاء للفائز الرخاء والثراء ، وللمهزوم الجوع والعرى . هو نظام الفقر والغنى ، الفقر الذى يؤدى إلى الجريمة وإلى المرض والغنى الذى يفسد الأبناء بالميراث ويعمم الأمراض النفسية بين الأغنياء أنفسهم كما نرى الآن الولايات المتحدة حيث يزيد عدد الأسرة الخاصة بالأمراض العصبية والنفسية فى المستشفيات على عدد الأسرة الخاصة بأمراض الأجسام .

فى نظام المباراة الحرة الفقير متعب جائع ذليل مريض بالحرمان والغنى متخم بالثراء والغذاء مرهق بالهموم. وكلاهما عدو للآخر.

وما دام الإنسان يطلب الكسب وزيادة الكسب فإنه لا يبالى كيف يكسب. فقد يؤسس بيتاً للدعارة، أو للمقامرة، أو للخمور، أو ربما يتجر بالمخدرات المهلكة أو، وهنا أفدح الخطر، قد يتجر بآلات الحرب. وهو حين ينتهى إلى ذلك سيحرض على الحرب التى ربما تنتهى بقتل الملايين من الناس.

لما ظهر مدفع كروب فى ألمانيا حوالى ١٨٧٠ حاولت مصانع كروب بيع إنتاجها منه لألمانيا. فرفضت الحكومة الألمانية. فعرضته على بعض حكومات أوربا فرفضت أيضاً. وعندئذ بعثت بمندوبها إلى مصر حيث كان الخديو اسماعيل. وكانت له نيات امبراطورية فى أفريقيا فاشترى بعض هذه المدافع.

وعندئذ قصد المندوب إلى تركيا وأفاض فى النيات الامبراطورية التى يحتضنها اسماعيل والتى ربما تحمله على محاربة السلطان. أى أنه مشى بالوقيعة بين الخديو والسلطان. فاشترى سلطان الأتراك بعض هذه المدافع. بل حرص على أن يشترى أكثر مما اشترى اسماعيل. ثم قصد إلى روسيا ومشى بالوقيعة بين تركيا وروسيا وأفهم وأوهم الوزراء بأن هذه المدافع تحقق النصر لتركيا إذا حاربت روسيا. فاشترت روسيا

مقدارا كبيرا من هذه المدافع . وعندئذ خشيت ألمانيا هذا الجار الروسى المسلح . فاشترت . وخشيت فرنسا ألمانيا فاشترت . الخ .

هذا مثال من النظام الانفرادى فى الإنتاج ، نظام المباراة الحرة الذى لا يبالى سوى الكسب . ولو كان الموت هو السبيل إلى الكسب

ولكن النظام الاشتراكى لا يهدف إلى الكسب وإنما إلى الخدمة إذ لمن يكسب ؟

هل الحكومة وهى تؤدى خدمة عامة بالتعليم أو المواصلات أو الجيش تريد الكسب ؟ ومن يحصل على هذا الكسب ؟

هل الحكومة الانجليزية بعد أن أممت مهنة الطب تريد الكسب ؟

وهل هى حين أممت المناجم كانت تريد الكسب ؟ ولمن تعطى هذا الكسب ؟

* * *

الاشتراكية فى قصة قناة السويس هى التأميم . هى أن يملك الشعب المصرى هذه القناة المصرية ويخدم بها العالم كله بلا قصد إلى الكسب كما يخدم الشعب المصرى .

الانفرادية فى قصة قناة السويس هى أن تستبد شركة بإدارته وتزيد أجور العبور فيه كما تشاء بلا أى رقابة وتعطى المساهمين الكسب الذى يطمعون فيه . فإذا طلبت الحكومة المصرية التأميم حرضت الشركة حكومتى فرنسا وبريطانيا على قتالنا .

وجميع الحروب ، بل جميع الاستعمار ، هى نظام انفرادى فى الكسب باستغلال العمال داخل بلادهم أولا ثم استغلال العمال فى الشعوب الأخرى المستضعفة مثل الهند ومصر وكينيا والجزائر الخ .

وأخيرا نظام المباراة ، النظام الانفرادى للكسب ، هو نظام الأزمات المتواترة التى تحدث التعطل للعمال . فإن أزمة ١٩٣٠ التى عمت العالم الانفرادى ، والتى سبقتها ثم لحقتها أزمات ، قد أشاعت التعطل بين نحو ستين أو سبعين مليون عامل فى أوربا وأمريكا . وكان معنى التعطل هنا الجوع والعرى والمرض والموت . إذ لم تكن الشعوب الغربية قد عممت الضمانات ضد هذه الأزمات . وهى ضمانات مع ذلك لا تكفل سوى الحد الضرورى للبقاء . أى لا تكفل للمتعطلين الحياة المتمدنة المثقفة .

وعلة التعطل أن أصحاب المصانع والمزارع والعقارات يجمعون بتوالى السنين مقدارا كبيرا من أجور العمال وإيجارات الأرض والعقارات . وتنتهى الحال بفقر الشعب الذى يتألف ٩٥ من أفراده من العمال المأجورين أو التجار أو الساكنين المستأجرين . وعندئذ يعجزون عن شراء السلع التى تنتجها المصانع أو عن استهلاكها جميعها . وينتج من هذه الحال أخيرا الاستغناء عن العمال وإقفال المصانع أو الإقلال من الانتاج بتعطيلها يومين أو ثلاثة أيام كل أسبوع . وهذه

هى الأزمة . إنتاج كثير من المصانع والمزارع وعجز فى الشعب عن الشراء . ثم تعطيل الإنتاج وطرد العمال . ثم الجوع والعرى والمرض .

والنظام الانفرادى فى قصة البترول العربى هو تسليمه لشركات شل وأرامكو وفاكييوم الانجليزية الفرنسية الأمريكية الهولندية واستخدام العمال العرب بأتفه الأجور لاستخراجه ثم توزيع الأرباح على المساهمين فى لندن وباريس ونيويورك وأمستردام مع بقاء العرب فى الفقر والعرى والمرض والجهل .

والنظام الاشتراكى للبترول العربى هو التأميم حتى يملك العراقيون بترولهم ويملك السعوديون والكويتيون بترولهم ويبيعون بعضه لأقطار العالم ويستعملون بعضه لإدارة مصانعهم .

أكتب هذه الكلمات والطائرات الإنجليزية تلقى الموت على اليمنيين لأنهم يعارضون الانجليز فى احتلال منابع البترول .

ولو كانت الحكومة الانجليزية اشتراكية لما فعلت ذلك .

إن حزب العمال فى بريطانيا ، وليس جميع أعضائه اشتراكيين وأن يكن كثير منهم كذلك ، حمل الانجليز على الجلاء عن الهند . ووقف فى صف مصر ضد حكومة المحافظين حين جن إيدن وضرب بورسعيد وسائر مدننا بالقنابل من أجل التشبث بحقوق أى بسرقات المساهمين فى قناة السويس .

الاشتراكية هي العدل والشرف في السياسة الدولية . وهي التي حملت روسيا والصين الإشتراكيتين كما حملت نهرو الاشتراكي على مساعدتنا في أزمة قناة السويس .

الاشتراكية هي مذهب برنارد شو .

وينبعث الاشتراكيون إلى هذا المذهب بالإنسانية .

ولكن ليست الإنسانية هنا هي كل شيء . أي إنهم لا يقولون بالرحمة للفقراء ورفع مستواهم الاقتصادي، والعناية بصحتهم، وزيادة أجورهم، بالنظام الاشتراكي . . . فقط .

وإنما هم اشتراكيون أيضاً لأن الإنتاج العالي ، الإنتاج الوفير يحتاج إلى الاشتراكية .

لقد استطاعت دولة الاتحاد السوفيتي أن تصلح في السنوات الخمس الماضية (آخرها ١٩٥٥) ثلاثين مليون فدان كانت قاحلة فأصبحت الآن تزرع بالقمح والذرة والقطن . وهذه المساحة تزيد خمسة أضعاف مساحة الأرض المزروعة في مصر .

وما كان يمكن أن يقوم بهذا المجهود فرد أو شركة . وإنما استطاعته الحكومة السوفيتية لأنها حكومة اشتراكية تتوافر لها الموارد المادية البشرية في شعب يبلغ ١٨٠ مليونا .

فالذي يبرر الاشتراكية ، بعد عامل الإنسانية ، هو عامل

الاقتصاد ، عامل الإنتاج الوفير بتعبئة الشعب كله لزيادة رفاهيته وحضارته وثقافته .

* * *

ماهى العوامل التى عينت المذهب السياسى لبرنارد شو ووجهته ؟

نشأ شو إرلنديا فرأى استبداد الانجليز ببلاده فكره الفكرة الامبراطورية وقاومها طيلة حياته . والمذهب الاشتراكى هو العدو الأصيل للفكرة الأمبراطورية الاستعمارية . لأن الأساس فى الاشتراكية هو محو الاستغلال .

الاستغلال للعمال داخل البلاد .

والاستغلال للشعوب الضعيفة التى أخضعها الاستعمار .

ولم تكن إرلندا تزيد فى نظر الانجليز الاستعماريين على الهند أو مصر . وتاريخهم فى هذه الجزيرة هو تاريخ الجزارة البشرية . وقد مرت بإرلندا أوقات كان عدد الإرلنديين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية أكبر من عدد الإرلنديين داخل إرلندا . وذلك فرارا من فظاعة الاستعمار البريطانى .

ولكن برنارد شو يستعمل عقله ولايستسلم لقلبه حين يتحدث عن إرلندا . فإنه يجحد سلطة الكنهة الذين يستغلون تدين الشعب الإرلندى . بل هو يزيد على ذلك ويقول إن الإرلنديين قد أكتسبوا ،

باحتلال الانجليز لبلادهم ، شيئا لايقدر بثمن هو اللغة الإنجليزية التى تصل بينهم وبين الثقافة العالمية . وهو يجحد محاولة الوطنيين الإرلنديين إحياءهم للغتهم الميتة .

وهو يكاد يبرر الفتوحات الامبراطورية فى حالات معينة . فإنه يقول إن مكافحتنا للمبدأ الامبراطورى وإخضاع شعب لشعب آخر يستغله يجب ألا يعمينا عن حق العالم كله فى الثروات المعطله عند الشعوب المتأخرة . إذ ليس من حق شعب ما أن ينام على كنوز أرضه من بترول أو فحم أو نحاس أو حديد . فلا هو يستغلها ولا هو يترك غيره لاستغلالها . ثم يقف خلف هذا الجمود يدافع عن نفسه بحق استقلاله .

وهذا كلام جد يبدو خاليا من الرحمة ولكنه لايخلو من العدل . فإنه ليس من حق اليمنيين مثلا أن يحجموا عن استغلال البترول فى بلادهم ثم يمنعوا غيرهم من استغلاله .

وقل مثل هذا وأكثر منه عن سائر الشعوب الشرقية المتخلفة التى تغرى المستعمرين بغزوها لجمودها .

* * *

ليس هذا الكتاب عن الاشتراكية وإنما احتجت إلى قليل من

الشرح لهذا المذهب لأن شو قبل كل شيء اشتراكى . والاشتراكى ليس له فقط سياسة حزبية معينة وإنما له أيضا أخلاق يكتسبها من هذا المذهب . فهو إنسانى يضع القيم الإنسانية فوق القيم الاجتماعية . وهو داعية مساواة فلا يقول بأنه يجب علينا أن نكافح حتى نتفوق على غيرنا فى الثراء أو غير الثراء . ثم هو لا يبالى الكسب إلا بمقدار ما يحصل منه على العيش المطمئن وليس على الترف . هو بكلمة مفردة : شريف .

وكانت الاشتراكية فيما بين ١٨٨٠و١٩٠٠ مذهبا ثوريا قد ألصق به المحافظون والأحرار فى انجلترا نزعات شاذة كاذبة مثل الألحاد وقتل الأثرياء ونحو ذلك . وكان شو يعرف أن جهره بهذا المذهب سيؤذيه فى تخصصه للتأليف المسرحى . لأن المتفرجين فى الدور المسرحية كانوا فى ذلك الوقت ، أو تسعة أعشارهم على الأقل ، من الأثرياء وأبناء الطبقات المتوسطة ، الذين كانوا ينفرون من هذا المذهب . وكان يعرف أنه لو ألف المسرحيات المسلية لوجد الإقبال المفرد والنجاح العظيم . ولكنه لم يفعل . فإن أولى دراماته تنصب على موضوع الإثراء الملوث من الاتجار بالبغاء . مع شرح مسهب عن ألوان الثراء الأخرى وأنها لا تختلف كثيراً عن الإثراء عن طريق البغاء .

وهذا موقف شريف يجب أن نعترف به لبرنارد شو .

ولكن يجب ألا نترك برنارد شو بلا نقد بشأن الاشتراكية .

فإن المذهب الاشتراكي يقول بأن الحكم للشعب على يد الشعب ، ولكن برنارد شو ، فى النصف الأخير من حياته التأليفية ، نزع إلى لون فاشى مع استبقائه لإيمانه الاشتراكى . فقد مدح موسولينى وألف درامات يقول فيها بأن الجمهور يمكن خداعه وغشه وأن الحكم يجب أن يبقى فى أيدى الأقلية الممتازة بالذكاء والخبرة . وهو هنا يعكس الحال التى عاينها فى انجلترا فيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٩ حين استطاع الأحرار والمحافظون أن يخدعوا الشعب الانجليزى ويوقعوه فى الحرب الكبرى الأولى بل ويورطوه فى خطط استعمارية هى غاية فى السفالة والخسة والدناءة .

ثم هو كان يؤمن بأن الاشتراكية المتدرجة ، التى كانت تدعو إليها الجمعية الفابية ، كانت تكفى لتنوير الشعب وحمله على اختيار حكومة إشتراكية . ومع أنه يعزو ظهور حزب العمال إلى تعاليم هذه الجمعية ، وإن يكن هذا مما يشك فيه ، فإن هذا الحزب لم يحقق كل ما كان يصبو إليه برنارد شو من تحقيق النظام الاشتراكى .

وانحياز برنارد شو نحو الفاشية يعود إلى يأسه من تعليم الشعب . وأعظم مظاهر العجز فى الشعب الانجليزى ، بل فى كل شعب آخر ، هو جهله . فإن الديلى اكسبرس مثلا تعكس لنا بتفاهة أخبارها وسخافة آرائها عقلية الشعب الانجليزى أكثر مما تعكسه لنا جريدة

التيمس . فإن الأولى ، وهى للشعب ، تطبع فى اليوم نحو أربعة ملايين نسخة حين لا تطبع الثانية ، وهى للخاصة ، أكثر من ربع مليون .

ولكن هذه الأمية الصحفية تعود فى النهاية إلى إهمال تعليم الشعب . ولو أن حكومات المحافظين والأحرار والعمال عنوا العناية الكبيرة بتعليم الشعب لما أمكن خداعه . وحسبنا مثلا أن نقول أن روسيا قد جعلت العلوم فى أساليبها وموادها أساسا لتعليم خمسة ملايين عالم أو رجل علمى . ومثل هذه الوثبة ستكفل للشعب الروسى . أو بالأحرى ، للشعوب السوفيتية مرتبة عالية فى الثقافة العلمية الجدية التى تحول بينها وبين الإيمان بالخرافات المقدسة كما تحول بينها وبين الخداعين والنصابين فى السياسة .

ولكننا مع كل ما قلنا هنا لا نستطيع أن نتهاون أو نتسامح فى هذا الانحياز نحو الفاشية فى برنارد شو .

الاشتراكية الانجليزية وحزب العمال

قبل نحو سبعين سنة كتب الشاعر الإنجليزى رديارد كبلنج هذه الأبيات ينصح فيها للجندى الإنجليزى، ويرشده عن تصرفه عندما يلتقى بواحد من أبناء المستعمرات، من السود أو السمر، حين يحاول ابتزاز ما معه من نقود أو جواهر. فإذا رفض هذا الأسود أو الأسمر تسليمه ما يطلب ابتزازه منه كان على هذا الجندى أن يجلده. فإذا أصر على الرفض فعليه أن يعيد الجلد ويعذبه حتى يستخرج ما كان قد أخفاه عنه. وإليك النص الإنجليزى باللغة العامية التى كان كثيرا ما يؤلف بها كبلنج أشعاره:

Now remember when you are acking round a gilded Burma god .

That is 'eyes is very often precious stones, an' if you treat a nigger to a dose o'cleanin-rod 'Es like to show you everything 'e owns .

When 'e wont prodnce no more, pour some water on the floor .

Where you 'ear it answer 'ollow to the boot.

(Cornet : toot ! toot !)

When the ground begins to sink, shove your baynick down the chink,

An' you 're sure to touch the -

(Chorus : loo loo lulu loot loot loot ow the loot)

ولا أعتقد أنى أحسن الترجمة لأنى أجهل اللهجات العامية الإنجليزية. ولكنى أحاول :

تذكر (أيها الجندى) وأنت تحطم الأشياء حول تمثال الإله المذهَّب فى بورما.

أن عينيه تكونان فى الأغلب مصنوعتين من الجواهر الثمينة.

وأنك إذا أنت عالجت الزنجى بجرعة من العصا المطهرة.

فإنه سيعترف لك عن كل شىء يملكه.

فإذا توقف عن إظهار ما تبقى عنده فعليك أن تصب بعض الماء على الأرض وعندئذ تسمع جوابه : لم يبق شىء.

(البوق : توت . توت)

وعندما تخيس الأرض إغرز حربتك فى الشق.

وعندئذ ثق بأنك.

(كورس : لو . لو . لولو . لوت . لوت . لوت)

أو ذى لوت)

وكلمة لوت هنا النهب أو الغنيمة.

* * *

ولم يكن، كبلنج يعبر بهذه الكلمات عن إحساس الأديب الشاعر وإنما عن إحساس الاستعمارى. فإنه نشا فى وسط ينتمى إلى أسرة عمل

أعضاؤها فى الإمبراطورية وقد ولد هو فى الهند حيث كان أبوه موظفاً كبيرا . وكان ابن خالته بولدوين رئيس الوزارة البريطانية فى العقد الثالث من هـذا القرن . وإذن يجب أن نعد لغته لغة الساسة من حزب المحافظين الإمبراطوريين قد اتخذت صيغة الفن .

ونحن نفترى افتراء كبيرا على الشعب الإنجليزى إذا كنا نتهمه كله بهذه الإحساسات الإجرامية . فإن هـذا الشعب الذى نبغ فيه كبلنج الامبراطورى قد نبغ فيه أيضاً شو الاشتراكى وعشرات من الأدباء الإنسانيين . بل نزيد على هذا ونقول إن الشعب الانجليزى يحمل جبالا من هذه الجرائم التى ارتكبها الاستعماريون والإمبراطوريون من الانجليز الذين أذلوا العمال الانجليز كما أذلوا شعوب المستعمرات .

وواضح من أبيات القصيدة التى نقلناها أنها تنشد جماعة إذ هى تحتوى كلمات خاصة بالكورس أى المرددين . وصبيان المدارس يتعلمونها وينشدونها ويحسون إحساساتها الوحشية فى النهب والقتل . وهم ينشأون على هـذه الإحساسات ويجنون على العالم بعدوانهم واستعمارهم . وهم معذورون لأنهم يتلقون هذه المبادىء وهم صبيان لم يتم نضجهم . ولابد أن السير إيدن فى عدوانه علينا بشأن قناة السويس ودعوته إلى اغتصابها منا كان على إحساس بهذه العواطف الملعونة التى غرسها فيه كبلنج أو غيره ممن على شاكلته .

ولو كانت هذه العواطف الملعونة عامة فى الشعب الإنجليزى لما ظهر حزب العمال ، هذا الحزب الذى وصفت حكومته فيما بين ١٩٤٥ و١٩٥٠ بأنها « حكومة خيرية » .

كيف نشأ حزب العمال ؟

لم يكن للعمال « وجود » فى السياسة الانجليزية إلا فى السنين الأخيرة من القرن الماضى . وكان الأحرار والمحافظون يتداولون الحكم . ولكن فى بداية القرن الماضى ظهر فى انجلترا رجل من أصحاب المصانع يدعى روبرت أوين الذى فكر كثيرا فى أحوال العمال وبؤسهم . وانتهى إلى إيجاد فكرة « التعاون » أى الجمعيات التعاونية . وكان يعتقد أنه يمكن تغيير المجتمع من مبدأ المباراة إلى مبدأ التعاون بإيجاد هذه الجمعيات . ونجح فى الدعوة إلى هذه المنشئات إلى حد بعيد . وكان يؤمل أنه عندما تقوى هذه الجمعيات ويأخذ الناس بنظمها فإنها تنتهى بإلغاء الممتلكات الفردية وجعلها ، أى هذه الممتلكات ، للمجتمع وحده . أى لا يملك المصنع أو المزرعة فرد وإنما تملكهما جمعية تعاونية .

وهو واضع كلمة « الاشتراكية » فى اللغات الأوربية . ولكن اشتراكيته كانت فى الأكثر أمنية إنسانية ولم تكن برنامجا علميا . لأن هذا التحول من الامتلاك الفردى إلى الامتلاك الاجتماعى عن طريق جمعيات التعاون لم يتحقق بل لم يقارب التحقيق وإن كان قد أدى خدمة

كبرى فى الإنتاج وأيضا فى الأخلاق . لأن العامل الذى كان ينتسب إلى إحدى هذه الجمعيات كان يفكر ويحس فى معان جديدة بشأن الإنتاج بالمباراة وبالاجتماع وبشأن الكسب والاستغلال .

وإلى جنب حركة التعاون ظهرت حركة أخرى أيقظت وعياً جديداً بين العمال هى حركة النقابات التى كافحتها المحاكم الانجليزية وحاولت القضاء عليها بنفى الأعضاء إلى استراليا باعتبارهم مهددين لأمن الدولة كما كان يفعل البوليس السياسى فى مصر بإيعاز المستعمرين والمستبدين .

وبقيت حركات العمال تسير فى بطء يغذوها مفكرون طوبويون خياليون . ولكنها مع ذلك انطوت عل ثلاثة أشياء :

١ - فكرة الجمعيات التعاونية .

٢ فكرة النقابات العمالية .

٣ - فكرة الاشتراكية .

ومع أن هذه الفكرات الثلاث كانت تسير فى ضعف فإن أوربا كانت تغلى بالسخط لما كان يعانيه العمال فى كل قطر من العسف والضغط والفقر . وما هو أن كانت سنة ١٨٤٨ حتى انفجر السخط إلى ثورات عامة اتخذت أشكالا واتجاهات مختلفة وفقاً للبيئة التى ظهرت فيها .

وكان هناك رجل قد نصبه التاريخ للفهم والإيضاح . يدرس عصره

أى القرن التاسع عشر ويحاول أن يحلل عوامل مجتمعه ويفهمها ثم يشرحها ويوضحها للشعوب المتألمة من نظام المباراة فى الانتاج والعمل.

هذا الرجل هو كارل ماركس أعظم فيلسوف ظهر فى العالم إلى الآن.

وقد أمضى سنين قبل ثورات ١٨٤٨ وهو يدرس الأفكار التعاونية والنقابية والاشتراكية حتى إذا كانت هذه السنة أخرج ما يسمى « البيان الشيوعى » الذى شرح فيه ، فى عبارات مبسطة ، الأفكار الاجتماعية المعقدة. ولا يزال هذا البيان إلى الآن مثالا للتفكير العميق فى العقل الناضج.

ومع أن كارل ماركس كان يعيش فى انجلترا ومع أنه أخرج هذا البيان وهو فى انجلترا فإن أثره لم يكن كبيرا فيها. ولكن حركات العمال فى أوربا تأثرت به كثيراً واتبعت ، إلى حد بعيد ، مبدأه ومنهجه.

وبقى الأحرار والمحافظون يتناوبون الحكم فى انجلترا دون أى حساب للعمال. وكان اهتمامهم الأكبر بالإمبراطورية التى كانت تغل كل عام ملايين الجنيهات يسرقونها من الهند وغير الهند من المستعمرات. وهذه الملايين التى كانت تؤخذ من المستعمرات وتنفق فى انجلترا كانت تحدث رخاء عاما هو علة الركود فى حركات العمال الارتقائية الانجليزية. فإن المصانع كانت تعمل ليل نهار فى إنتاج السلع التى تقهر المستعمرات

على شرائها . وكان العمال الانجليز راضين عن حالهم كما كانوا أيضا ، بالمقارنة إلى عمال أوربا ، غير واعين .

ونشأت فى انجلترا لهذا السبب اشتراكيـة يؤمن بها مئات العمال وهى غير اشتراكية ماركس الثورية ، هى اشتراكية التدرج وليس الثورة . وظهرت « الجمعية الفابية » حوالى ١٨٨٥ .

وكلمة « الفابية » هى وصف مشتق من القائد الرومانى فابيوس الذى كان يحارب هنى بعل قائد الجيش القرطجنى الذى كان يحتل إيطاليا فى القرن الثالث قبـل الميلاد . وكانت خطة فابيوس تعتمد على تجنب المواجهة ومقاتلة هنى بعل بتخطف قواته من جوانبها جزءا بعد جزء حتى تنهار .

وكانت الجمعية الفابية تعتمد أيضا على تجنب المواجهة للأحزاب القوية وتقنع بالتسلل إلى العقول فى نشر الأفكار الاشتراكية . وذلك حتى لاتثير جبهة ضدها من الأحرار والمحافظين . ونجحت فى ذلك . بل إن أفكارها قد تسربت إلى هذين الحزبين ورشحت إلى عقول زعمائها . ولم تـكن هذه الجمعية حزبا يتألف من العمال كما كان الشأن فى أوربا . وإنما كانت « جمعية » مؤلفة من رجال الطبقة المتوسطة بل أحيانا من الأثرياء الذين يهدفون إلى الدرس ونشر الآراء للدعاية فقط وليس للتمثيل السياسى . وقد ألف برنارد شو الذى كان أبرز أعضائها بعض

رسائلها الدعائية وكان منها كتيب يدعى « الاشتراكية للأغنياء » . والاسم يدل على الهدف المقصود . أو بكلمة أخرى لم يكن العمال هم الجمهور الذى ألف له برنارد شو هذا الكتيب كى يقنع أفراده بضرورة الاشتراكية إذ كان يهدف إلى إقناع الأغنياء بأن الاشتراكية تخدمهم أكثر مما تخدمهم الانفرادية التى أثروا فى نظامها .

وليس من الشاق أن تقنع الأثرياء بأفضلية الاشتراكية . فإن الثراء الحاضر فى نظامنا الانفرادى قد يكسب الثرى ميزات لايستخف بها . ولكنه يحمله من الهموم ما يقضى على حياته أحيانا وهو دون الخمسين لأن مسؤلياته كثيرة . فهو يعمل أحيانا أكثر من عماله كما هو عرضة للافلاس فى أى وقت . ثم هو يأخذ بقيم اجتماعية تبعثر أمواله على الزينات والبهارج لنفسه ولزوجته وأولاده بحيث يضطر ، لو كان على مقدار متوسط من الذكاء ، أن يسأل عن قيمة هذا الثراء الذى يبهظه بهذه التكاليف التى يمكن الاستغناء عنها . ولعلنا لاننسى أيضا فى أيامنا هذه أن الأمراض النفسية تصيب الأثرياء أكثر مما تصيب العمال وذلك لفرط ما يجهدون قواهم ويحملون من هموم .

ونجحت الجمعية الفابية فى إيجاد « الاشتراكية التدرجية » فى بريطانيا . وهى اشتراكية الإصلاحات الاجتماعية التى سارت فيها الدولة عاماً بعد آخر . والمثل الأعلى لها هو « مشروع بيفريدج »

الذى يكفل العيش والصحة والتعليم لكل انجليزى من المهد إلى اللحد ، بل قبل المهد وبعد اللحد .

ولكن علينا ألا ننسى أن هذه « الاشتراكية التدرجية » قد أخرت التفكير الاشتراكى الثورى . وما زالت أذكر أنى طيلة انتمائى إلى الجمعية الفابية سواء وأنا فى لندن أو بعد ذلك فى مصر لم أكن أسمع عن اسم ماركس إلا قليلا جدا . ولم أكن أعرف أن الاشتراكيين فى أوربا يهدفون إلى الثورة لا الإصلاح . بل إنهم كانوا وما يزالون يعدون الإصلاح عائقاً للثورة . وهذا بلا شك صحيح إلى حد بعيد .

انضممت إلى الجمعية الفابية فى ١٩٠٨ وبقيت معنياً بمؤلفاتها وتوجيهاتها أكثر من عشرين سنة . ولما ألفنا الحزب الاشتراكى فى مصر فى ١٩٢١ كانت تعاليم هذه الجمعية فى ذهنى أكثر من تعاليم ماركس . أى أننا كنا نبغى التنوير الاشتراكى عن طريق الإصلاحات المتدرجة .

وليس معنى قولى هذا أننا أهملنا ماركس تماما . فإن التفسير الاقتصادى للتاريخ كما رسم منهجه ماركس كان بارزاً فى أذهان الفاربيين . ولكن فكرة الطبقات ، والضدية الاجتماعية ، والثورة ، كانت غائبة عن أذهاننا إلى حوالى ١٩٢٥ . وبعد ذلك شرع الاشتراكيون بجميع ألوانهم يدرسون ماركس . وزاد هذا الدرس قوة واندفاعا عقب أزمه ١٩٣٠ التى أوضحت ركاكة النظام الاقتصادى

الانفرادى وضرورة استبدال النظام الاشتراكى به .

ومع ذلك وجدت لى مقالا فى التفسير الاقتصادى للتاريخ فى مجلة الهلال فى ١٩٢٧ أى قبل هذه الأزمة بثلاث سنوات .

وكانت الجمعية الفابية بطبيعة انتمائها إلى الطبقة المتوسطة تمارس ألوانا من النشاط فى العلوم والفنون . فكانت منها لجان تدرس كل ما يتصل بالمجتمع من ثقافة جديدة تتفق والاتجاه الاشتراكى . وكان برنارد شو روح هذا النشاط . ولم يكن يضن بوقته الغالى فى خدمة الأعضاء . وما زلت أذكر أنه رأس لنا اجتماعاً أمضى فيه نحو ساعتين فى المناقشة بشأن التعليم ولم نكن نحن المستمعين نزيد على ٨ أو ١٠ أعضاء .

وأذكر من المحاضرات التى سمعتها فى هذه الجمعية (وأعنى لجانا منها) واحدة أو أكثر عن الأدب الروسى ، وأخرى عن تحديد النسل ، وثالثة عن الدرامة الواقعية ، ورابعة عن الاستعمار ، إلخ . وهذا بالطبع غير المحاضرات الاشتراكية التى كانت تهدف إلى الحد من النشاط الانفرادى فى التجارة والصناعة والأخذ بالإصلاحات الاشتراكية والدعوة إلى أن تتولى المجالس البلدية مشروعات تأميمية محلية مثل إيجاد المكتبات العامة والأحواض السباحية وإنشاء المدارس وتغذية التلاميذ وإنشاء المدارس الليلية للعمال بل إنشاء الأندية الترفيهية كذلك

حيث يجد العامل طعاماً رخيصاً ونشاطاً يشغله عن الخمر والقمار .

ونجحت الجمعية فى كل ذلك . ووجدت دعوتها القبول بين عدد كبير من الجمهور المتعلم . كما أن دعوتها إلى تأميم الثروات الكبرى التى كانت تحتكرها الشركات مثل المناجم والسكك الحديدية ونحوها قد وجدت ، بعد خمسين سنة من الدعاية ، الاستجابة من حزب العمال . وكان نقدها لتعطل العمال ماركسيا كما أن عبارة « حق العمل » كانت بلاشك ثورية .

وحزب العمال الانجليزى هو بتأليفه ومذهبه الاشتراكى ، فابى النزعة من نشأته إلى حاضره . وليس شك أنه من حيث التفكير الاشتراكى الصميم ، ونعنى هذا التفكير كما تفهمه أوربا فى أيامنا ، بعيد عن الماركسية وفلسفتها إذ يقول بالتدرج ويعزف عن الثورة . وهو لهذا السبب ، يعد عائقاً للثورة الشيوعية التى تهدف إليها الأحزاب الماركسية فى أوربا .

لقد اختلطت ، وأنا بانجلترا ، ببعض أعضاء حزب العمال . فوجدت فيهم الامبراطوريين الذين يتحدثون عن المستعمرات كما لو كانوا محافظين. ووجدت فيهم الأحرار الذين يخشون الاشتراكية الكاملة . ولكنى وجدت فيهم أيضاً الاشتراكيين المخلصين مثل كير هاردى . وخلاصة القول أن أعضاء الحزب لم يكونوا ، قبل الحرب الكبرى الأولى ، وبعدها إلى حوالى ١٩٣٠ من الاشتراكيين إلا فى الأقل .

ولكن مع ذلك كان هذا الحزب صاحب الفضل فى جلاء الانجليز عن الهند فى ١٩٤٩ . وكذلك وقف فى صفنا عندما أغار الوغد إيدن وحزبه على بور سعيد .

وكان برنارد شو أبعد المفكرين عن الدعوة إلى الثورة . وكان عزوفه عنها يحمله أحيانا على احتقار الحركات الشعبية حتى أنه أيد موسولينى فى فاشيته . ولكنه ، بعد أن زار روسيا ، عاد وكله إطراء للنظام الجديد ومدح للثورة وإعجاب بمآثرها .

وكذلك فعل سيدنى ويب واضع عبارة « التدرج المحتوم » . فإنه أيضاً زار روسيا وأكبَّ على درس منظماتها . ثم أخرج كتابه عنها بعنوان « حضارة جديدة » رفعها فيه إلى السماء إعجابا وإطراء .

وقد يتساءل القارىء هنا بحق : كيف يكون برنارد شو اشتراكيا ويحتقر الشعب ؟

والجواب أنه ينتمى أولا إلى الطبقة المتوسطة ويحس إحساسها من الاستعلاء على العامة . ولذلك كان بعقله مع الشعب وبعاطفته مع طبقته السائدة . ثم علينا ألا ننسى أن معظم من كانوا اشتراكيين سئموا البطء فى حركات الإصلاح الاشتراكية فعمدوا ، مخدوعين ، إلى الفاشية باعتبار أنها الديكتاتورية التى تستعجل الإصلاح وتختصر الطريق . ثم عرفوا بعد ذلك خطأهم . وندموا .

ولما ذهب برنارد شو إلى روسيا انقلب وآمن بالثورة وبالشعب ومدح النظام الاشتراكى القائم .

هناك أفكار تعد خمائر . أى لا تتحيز مكانا وتقف عنده ساكنة فى عقولنا وإنما تسرى كالخميرة فى سائر الكتلة المحيطة فتغذوها وتغيرها وتطورها .

وقد وجدت هذه الخميرة التى غيرتنى وطورتنى فى الجمعية الفابية . وفهمت إنسانية أخرى لم أكن أفهمها قبل التحاق بها . إذ وجدت رجالا ونساء يبحثون معانى الخير والشرف ويتساءلون : كيف نلغى الفقر ؟ كيف نمنع الجريمة ؟ كيف نربى الطفل ، كيف نكافح الاستعمار ؟ .

وقبيل الحرب الكبرى الأولى ألفت ثلاثة كتيبات نفدت جميعها . وهى تدل على الاختمارات الذهنية التى كنت أعانيها والتى كانت ثمرة الحركات الذهنية فى الجمعية الفابية :

١ — مقدمة السبرمان كما يفهمه نيتشه وبرنارد شو . وبهذه المقدمة فصل عن ضرورة الاشتراكية باعتبارها النظام العادل للحكم والإنتاج (طبع فى ١٩٠٩)

٢ — نشوء فكرة الله . وهو تلخيص لكتاب جرانت الين يبحث الأصول المادية التاريخية التى أدت إلى الإيمان بالله (طبع فى ١٩١٣)

٣ ـ الاشتراكية . وهو دعوة إلى هذا المذهب (طبع فى ١٩١٢)

وفى ١٩٢٠ عند ما ألفت مع بعض الزملاء الحزب الاشتراكى كانت هذه الأفكار وغيرها عنصراً أساسيا فى تفكيرى أرغب فى نشرها وأجعل من هذا الحزب بؤرة لبحثها ومناقشتها هى وغيرها مما يجعل شعبنا عصرياً يحيي فى أفكار القرن العشرين ويسير فى مواكبه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ولكن سعد زغلول فى ١٩٢٤ سلط علينا النيابة العامة التى هجمت علينا وحققت معنا وشرعت تعتقل بعضنا حتى قتلت هذه البذرة التى كان يمكن أن تنبت وتتفرع وتشيع نوراً يضىء ظلام تقاليدنا المصرية والاستعمار الانجليزى . وأصبح التفكير الاشتراكى من ذلك الوقت خطراً.

ولو أن هذا التفكير كان مباحا رائجا فى عقول الناس لكنا قد فهمنا الاستعمار الفهم الصحيح ولكنا قد كافحناه الكفاح البصير .

ولكن الجهل الذى يسود العقول ويظلمها منع عنا هذا النور وجعل من التفكير الاشتراكى جريمة يتوقاها الشبان ويخشون عواقبها .

وفى ١٩٥١ كنت عائداً من فرنسا إلى مصر على إحدى البواخر . وكان معى « البيان الشيوعى » لكارل ماركس . فكنت أقرأه صفحة بعد صفحة وأقطع ما أقرأه وأطرحه فى البحر حتى لا « يضبط » معى عند نزولى فى الاسكندرية . . . . .

ثمرة ، هى حلال فى الأمم المتمدنة : وهى حرام على أبناء مصر . . .

أسلوب شو

ليس له أسلوب !؟ . . .

يكتب شو كما يتكلم . وهو يتكلم فى صراحة ودقة ولكنه يفكر كثيراً . ولذلك أسلوبه صريح دقيق حافل بالأفكار التى تستهوينا فلا نلتفت أقل الإلتفات إلى أسلوب الكتابة وترتيب الكلمات . وحين نتوقف ونلتفت نجد أنه يكتب الأدب كما لو كان يكتب موضوعا علمياً كله دقة ورصانة وترتيب والقيمة الأولى فى كل ذلك للأفكار .

وليس فى أسلوبه ما نسميه قوة التعبير أو حلاوة التعبير ، كما ليس فيه مبالغة أو إسراف فى استعمال كلمة زائدة أو جملة رائعة . وإنما نحن نتأثر بقوة المنطق فى أفكاره ونرتاح إلى اقتناعنا به وإلى أننا نتعلم منه أصول التفكير الناضج . وأكثر من هذا نحس أننا فى تعلمنا منه نعالج الموضوعات والمشكلات الرئيسة فى هذه الدنيا ، الدين ، العلم ، السياسة ؟ الزواج ، التربية ، الضمير ، الحرب ، الإجرام ، وسائر ما يتصل بهذه الموضوعات . وأكثر مايهتم له برنارد شو هو موضوع التطور ، والفقر.

هذا هو أسلوبه ، أسلوب الأفكار الذى ينسينا ماتعودناه من غيره

من الأدباء أى أسلوب الألفاظ والعبارات والزينات والبهارج .

والكاتب المفكر يأنف من الزينات والبهارج .

ذلك أنه يجد فى أفكاره قيمة تعلو على الزخارف والزينات . فهو يتحدث فى بساطة . وقد يغلو أحيانا فتحس فيه بلاغة ولكنها بلاغة الأفكار المتدفقة . وقد تجد فى تدفقها غلواء كما لو كان واعظاً يعظ فيرتفع صوته عند مايخلص ويتحدث عن إيمانه بالشرف والحق والعدل .

وليذكر القارىء أننا إنما نلجأ إلى الزخارف والزينات حين تكون المادة التى نزخرفها ونزينها رخيصة مبتذلة . فإذا صنع لى الفخار إبريقاً من الطين فإنى أوثر أن يكون مزيناً مزخرفاً كى يخفى عنى مادته الخسيسة وهى الطين . ولكن إذا صنع لى الصائغ إبريقا من الذهب الخالص فإنى أوثر أن يكون ساذجا ليست به زخارف أو زينات . لأن مادته ثمينة ، مادة الذهب ، التى لا أشبع من الإعجاب بها حين أتأملها .

وهكذا الشأن فى الكاتب المفكر . فإنه يقدم لك الذهب لا الصلصال . وأسلوب أفكاره يشغلك عن أسلوب كتابته . ومن هنا السذاجة فى أساليب الكتاب العظماء مثل داروين أو قاسم أمين ، أو جان جاك روسو ، أو أناطول فرانس ، فإنهم جميعهم كتاب أفكار تحس انهم يشبعونك وأنك تكبر بقراءتهم وتنضج بأفكارهم وتزداد إنسانية وشرفاً ببسط ضميرهم لك .

نقرأ برنارد شو فلا نجد كلمة مهجورة ؟ أو كلمة منفوخة ، وإنما نجد الكلمات المألوفة المأنوسة . وله كتاب يدعى « المرشد للمرأة الذكية عن الاشتراكية » لو نقل إلى العربية لبلغ أكثر من ألف صفحة . وتكاد لغته تتألف من كلمات البيت .

وأعظم ما يغمرك به برنارد شو وأنت تقرأه هو الإحساس بأنك تتحرر وأنك تستعمل عقلك فى موضوعات لم تكن تستعمل فيها عقلك من قبل . وإنما كنت تستعمل عقيدتك التى نشأت عليها .

والعقيدة هى انتحار العقل .

وأنت تحيي عقلك لذلك بما تقرأ من الأفكار المرتبة المتدفقة من برنارد شو وتحس إخصابا لعقلك كأنك لم تتعلم منه معارف جديدة فقط بل مناهج جديدة للتفكير : التفكير الاجتماعى ، التفكير البيولوجى ، التفكير الدينى ، التفكير الاقتصادى . وأنت تستيقظ بهذا الأسلوب ولا تنعس أو تنتشى .

فهو يقول مثلا : الصحة حكمة ، الأخلاق من الذكاء ، من لا يعرف كيف يصنع نفسه لا يعرف كيف يصنع شيئا آخر .

كلمات للتأمل . كأن كلا منها مشكلة . ولكن بلا زينات أو زخارف . بل الحق لو أنه كان قد زخرف أو زين هذه الكلمات لكان قد ضللنا بعض الشيء عن الفهم والتعقل لما قاله .

وأسلوب التعبير ، أى أسلوب التفكير ، عند برنادر شو يمكن أن نصفه ، بعد كل الذى ذكرنا عنه ، أنه علمى موضوعى . غير عاطفى . وهو يمتاز على الدوام بالنظرة البكر كأنه يعالج الموضوع كما لو لم يكن قد عالجه أحد غيره من قبل . وهو يعالجه فى هدوء . ولكن مع إحساس المسئولية التى ترتفع أحيانا إلى إحساس الرسالة . بل الحق أن إحساس الرسالة يغمره . حتى إنك لتحس أنه يكتب كما لو كان نبياً أو كاهناً . ولكنه يسترشد بالعقل وليس بالعقيدة .

أنظر فى هذه الكلمات الحكيمة التى كتبها عن النقود أى عَلاقة الثراء والفاقة بالفضائل واعتبر أسلوبها المواجه الصريح :

« أهم الأشياء فى هذه الدنيا هو النقود . إذ هى تمثل الصحة والقوة والشرف والسخاء والجمال ، تمثلها جميعها فى وضوح بارز . كما أن الحاجة إلى النقود تمثل أيضاً ، فى مثل هذا الوضوح البارز ، المرض والضعف والفضيحة والدناءة والقبح ، ومن فضائلها التى لا تعد صغيرة أنها تدمر الأدنياء من الناس كما أنها تقوى وتعظم النبلاء .... وحاجتنا العظمى ليست هى الأخلاق الحسنى ، أو الخبز الأرخص ، أو الاعتدال فى الشراب ، أو الحرية أو الثقافة ، أو إنقاذ أخواتنا الساقطات أو إخواننا الخطاة ... وإنما هى الكفاية من النقود »

أو انظر فى كلماته التالية فى الموضوع نفسه :

« ما معنى أن يكون الإنسان فقيراً ؟ معناه أن يكون ضعيفاً . وأن يكون جاهلا . وأن يكون بؤرة للأمراض . وأن يكون معرضا دائما للقبح والقذر . وأن يكون أطفاله مرضى بالكساح . وأن يكون رخيصاً فى أجره عند ما يعمل ، فيجر ، بانخفاض أجره ، زملاءه إلى حضيضه . ومعناه أن تستحيل مدننا بؤراً سامة بسبب المساكن التى يعيش فيها الفقير . ومعناه أن تنقل بناته عدوى الامراض التناسلية إلى شباننا وأن ينتقم أبناؤه لشرف أخواتهم منا بأن يفشوا بيننا الجبن والقسوة والنفاق والبهيمية السياسية والأسخربوط وسائر ثمرات الظلم وسوء الغذاء »

هكذا يتكلم برنارد شو عن الفقر وآثاره فى الشعب . وهذه لغته التى تفحم بسذاجتها وصراحتها وإيجازها لأنها أفكار صريحة وليست ألفاظا مزينة . والآن اقرأ ما يقوله عن الأسباب التى تدعوه إلى تأليف دراماته . وكأنه هنا يعترف . وهو يعترف فى شجاعة وصراحة معا . إذ يقول :

« لست أنا من الكتاب العاديين المألوفين . إذ أنا اختصاصى فى تأليف الدرامات التى تتصل بالأخلاق والزندقة . وقد كسبت شهرتى بمثابرتى على الكفاح كى أحمل الجمهور على أن يعيد النظر فى أخلاقه . وأنا حين اؤلف دراماتى إنما أقصد منها إلى هدف هو حمل الشعب على أن يأخذ بآرائى فى شئونه الجنسية والاجتماعية . وليس فى نفسى باعث

آخر للكتابة إذ أنى أستطيع أن أحصل على لقمتى بدونها »

* * *

ولبرنارد شو درامة اسمها « منازل الأرامل » ألفها فى فضح النظام الاقتصادى الانفرادى الذى يقوم على المباراة وجمع المال والتفوق بالثراء وما يجلبه كل هذا من رذائل وجرائم . وهذه الدرامة تجرى على أسلوب درامة « وظيفة المسز وارين » من حيث الأسلوب والهدف . قال فى مقدمة « منازل الأرامل » ينتقد نفسه ويبرر موقفه :

« إنى أتقدم بنقدى لمؤلف « منازل الأرامل » وأقول إن ما كان يجعل عظماء المؤلفين المسرحيين يؤلفون المأساة إنما يجعلنى أنا مستهزئاً . والاستهزاء هو جو أقل صفاء من جو المأساة وقد كنت أحب أن اؤلف مسرحية جميلة مثل « الليلة الثامنة عشرة » لشكسبير أو مسرحية رائعة تتمثل فيها المأساة . ولكنى أصرح بأنى عاجز عن ذلك . وذلك لأن نظامنا الاجتماعى التجارى هو مدرسة سيئة لتعليم الفنون . ولا يمكنه ، أى هذا النظام ، مع ما فيه من اللصوصية وسفك الدم والبغاء ، أن يحرك فى نفوسنا النزعات السامية فى الحسرة والرهبة . إذ هو نظام قبيح دميم ، كما هو عقيم سافل يحفل بالأخطاء ويبعث على السخرية مع زعمه على الدوام بأنه يدعو إلى سعة العقل والإنسانية والإقدام مع أن هذه صفات أبعد ما تكون منه . وليس من أخطائى أنا ، أيها القارىء ، أن

أتناول بفنى التعبير الصادق عن الخسة الذهنية والأخلاقية بدلا من أن أعبر به عن الإحساس بالجمال . فقد أمضيت معظم حياتى فى المدن الكبرى العصرية حيث لم أشبع فى نفسى الإحساس بالجمال . وهذا فى الوقت الذى حشى فيه ذهنى بمشكلات المنازل البالية القذرة كتلك التى عالجتها فى هذه الدرامة . وبقيت على هذه الحال إلى أن أصبحت أتذوق هذه الموضوعات فى فظاعة وأن أجعل منها مادة لفنى » .

* * *

وهو يصف المجتمع الانجليزى بهذه الكلمات الناطقة .

« إن أقدر رجالنا من الحكام يموتون من حيث مقدرتهم السياسية ، فى طفولتهم . يلعبون الجولف والتنيس والبردج ، ويدخنون التبغ . ويشربون الخمر كما لو كانت جزءاً من غذائهم اليومى . ويمارسون الصيد والطراد ، ويقرأون قصص القتل والزنى وأخبار البوليس ، ويلبسون قمصاناً لأكمامها وقبانها زوائد سخيفة . وتلبس نساؤهم أحذية عالية الكعوب ، ويلطخن أظافرهن وشفاههن ووجوههن . وبكلمة موجزة ، يلعب الرجال والنساء ، لعب الأطفال بدلا من أن يسلكوا فى رياضتهم سلوك الساسة والشيوخ . وحتى عند ما يقرأون أفلاطون ، والإنجيل ، وكارل ماركس ، ويعرفون ما يجب عليهم أن يعملوا ، حتى هنا لا يعرفون

« كيف » يعملون . بل يبقون على ما نشأوا عليه لقلة ما حذقوا من الفنون السياسية التى تنشأ وتتطور الآن فى روسيا بضغط الحوادث . ومحاولاتهم فى التربية والتعليم تنتهى عادة بوضع الصبيان فى مدارس هى « مراكز اعتقال » حيث يجلدون . وعندما يبلغ الصبيان سن الشباب يخرجون من هذه المراكز متوحشين يبغضون التعلم والنظام ويبقون فى جهل كثيف لشئون الحياة عند تسعة أعشار الشعب الذى يتولون حكمه »

وهذا ما يقول عن الامبراطورية البريطانية والمجتمع الانجليزى :

« أيما إنسان يستطيع أن يرى ... أن نظامنا الحاضر فى العدوان الإمبراطورى ، هذا النظام الذى يتخذ معاذير الاستكشاف والاستعمار ، والذى يسير خلف المغامرين ، يتبعهم رجال المال والتجارة ويشرف عليهم العلم البريطانى ، سوف ينهار عند ما تنتقل الرقابة على القوات الحربية من طبقات الرأسماليين إلى الشعب . وأيما إنسان يستطيع أن يرى أيضاً أن زوال الطبقات ، مع ما نسميه الآن « الرأى العام » ، هذا الزوال سيرافقه اتحاد المجتمع فى طبقة موحدة لها رأى عام موحد له قوته التى لا تحد . وأن هذا الرأى العام سيجعل الرقابة ، لأول مرة ، فعالة . وإن استقلال النساء الاقتصادى واستبدال الفرد ، باعتباره الوحدة التى تعترف بها الدولة ، برئيس العائلة ، سوف يغير مركز

الأطفال ومنفعة العائلة ، وأنه سيعيد بناء الكنيسة فى الدولة على أسس ديمقراطية جديدة بحيث يمكن أن ينتخب رئيسا لها ، للكنيسة ، رجل ملحد معلن لإلحاده مثل مورلى أو برادلف »

هذه هى لغة الأديب برنارد شو وهذه هى أفكاره التى لا أشك فى أن كثيراً من الشرقيين يحسبونها هدامة كما كان اسماعيل صدقى يحسب الاشتراكية والجمهورية أفكاراً هدامة .

ولكن أوربا تتغير وترتقى بهذه الأفكار الحرة . والشرق يلتزم تقاليده ويأسن فى عاداته وينهزم أمام أوربا فى « تنازع البقاء »

* * *

يقارن بعض النقاد برنارد شو بشكسبير ويزعمون أنهما عمودا الأدب الانجليزى . وقد يكون هذا حقاً إذ اعتبرنا الزمان والمكان لكل منهما . أما المقارنة المطلقة فتبدى لنا فروقاً كبيرة :

كان شكسبير شاعراً ملوكياً جميع أبطاله ملوك ولوردات أو ما يشبه ذلك . ومع أن أسلوبه ، بالمقارنة إلى من عاصروه ، كان شعبياً إلى حد كبير فإنه كان يحتقر الشعب ويصفه بأنه رعاع وغوغاء . وقد أحدث نهضة لا شك فى ذلك . ولكن هذه النهضة كانت مسرحية فنية ولم تكن قط أخلاقية أو سياسية .

أما برنارد شو فقد كان أديبا شعبيا ديمقراطيا استعمل لغة الشعب .

وجميع أبطاله ، تقريبا ، من أبناء الشعب أو زعماء الشعب . وإن يكن فى أواخر سنيه قد انزلق نحو الفاشية سأماً من طرق الإصلاح الغابية البطيئة . ولم تكن النهضة التى بعثها مسرحية فقط إذ كانت أخلاقية واجتماعية وسياسية أيضاً .

كان المسرح قمة الأهداف عند شكسبير . ولكن المسرح عند شو وسيلة لتعليم الأخلاق .

وكانت الألفاظ الرنانة عند شكسبير كبيرة القيمة . وهى عند شو غش يجب تجنبها .

ويقول شو عن شكسبير فى استصغار شأنه .

« لماذا ننفق وقتنا ، نحن الذين ورثنا تراث العصور العظيمة وعرفنا الأشعار المسرحية لجوتيه وإبسن ، ووقفنا على الألحان الموسيقية لأسرة الموسيقيين العظماء من باخ إلى فاجنر ، لماذا ننفق وقتنا على دراسة الكتاب العاديين فى عصر الملكة اليزابيث أو نشجع المؤلفين الأغنياء فى أيامنا على تقليدهم ، أو نتحدث عن شكسبير كأن تفاهاته بشأن الأخلاق أو فصاحته المزيفة بشأن الحروب ، أو ما تنطوى عليه بعض دراماته من أحاديث الحانات ، أو سائر حشوه وثرثرته ، أو عجزه عن دراسة قشور الفلسفة التى سرقها بلباقة تستحق الدرس . . . »

وقد قال تولستوى مثل هذه الآراء فى شكسبير . بل زاد عليها

استصغاراً لشأنه واستقباحا لأفكاره وأسلوبه . ولكن شو مع ذلك لا ينكر بعض الميزات التي امتاز بها شكسبير .

إن أدب القرن العشرين هو أدب الثورة على شكسبير الرومانسي : أدب القعقعة والصلصلة ومجد الحروب والشعوذة . وقد أدت عبادة شكسبير من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر إلى حرمان المسرح الأصالة والابتكار ليس في انجلترا وحدها بل في فرنسا وألمانيا أيضاً .

وقد كان زولا الواقعي المؤكد يجد في شكسبير خصما للواقعية حتى قال فيه : « ليس لمن ينتمون إلى شكسبير انتماء الزنا أن يسخروا من الأبناء الشرعيين لبلزاك »

بلزاك واقعي ناقد اجتماعي . أما شكسبير فرومانسي لم ينتقد المجتمع.

وزولا الذي فهم الواقعية بدراسته لطبيعة الإنسان في غرائزه يكره شكسبير الذي فهم الإنسان في زيناته وبهارجه .

وبرنارد شو يستصغر شأن شكسبير حتى في فنه . فيصف أشعاره المرسلة بأنها عبث سهل يمكن أي أديب ناشيء لن يؤلف مثلها في سهولة تامة . ولا يجد شو في شكسبير من الدرامات التي تستحق الاحترام سوى دراسة هامليت . ويصفها بأنها تكاد تكون « غير شكسبيرية » لأنها تحوي مواقف التردد والبحث عن الضمير والتساؤل الفلسفي .

إلى هذا الحد يزدري شو بشكسبير .

كان شو للشعب يقرأ ويكتب من أجل الشعب .

ومن أجل الشعب أيضاً أوصى بثروته كلها تقريبا لإصلاح الهجاء الانجليزى بزيادة بعض الحروف حتى يمكن التفادى من الأخطاء وأيضاً التعبير عن جميع الأصوات حتى ينطق الصبى الكلمة الانجليزية وفق حروفها وليس وفق السماع .

شو وويلز

التمع الأدب الإنجليزى فى النصف الأول من هذا القرن بإسمين هما شو وويلز . وكانت رسالتهما واحدة وإن اختلفت أساليبهما فى التعبير عنها . هذه الرسالة هى أن الحضارة الانفرادية القائمة تبنى على ظلم وفساد وأنها أيضا فى انهيار . وأن العلاج هو تغييرها إلى حضارة اشتراكية .

وكان كلاهما من الكتاب الحافزين الذين يبعثون حولهم جوا من التفاؤل والاستطلاع ومحاولة الاستقرار على حقائق المجتمع وطبيعة الإنسان والكون . وما من أديب فى انجلترا لم يتأثر بهما ويسير شوطا بعيدا فى طريقهما .

وكلاهما يكفر بالأديان ويجد فى الاشتراكية البدل العملى للدين . فإذا كان الدين يدعو إلى الإحسان وإلى الرحمة بالفقراء وإلى الإخاء والتعاون فإن المذهب الاشتراكى لايدعو هذه الدعوة فقط بل يضع الأسس لبناء المجتمع الذى يمارس كل هذه الأشياء دون أن يحس أحد من أفراده فضلا على آخر .

المذهب الاشتراكى يقوم مقام الدين لأنه التطبيق العملى للإنسانية .

ذلك أن المجتمع الاشتراكى يلغى الفقر ويتجـــه نحو إلغاء التفاوت الاقتصادى بزيادة الإنتـاج . وهو أيضا يلغى ما هو أسوأ من الفقر أى الاستعمار . لأن الدولة الاشتراكية لا تستطيع غزو شعب والاستيلاء على بلاده واستغلال أبنائه .

إذ لمن تستغل ؟ .

إن المجتمعات الانفرادية التى يستغل فيهـا الأثرياء الفقراء وتتألف فيها الشركات لتنظيم هذا الاستغلال تنتهى إلى الاستعمار وهو الاستغلال فى أوجه وعلى أعلى مراتبه . فالفرد أو الشركة من الأمة الغازية السـائدة يستغلان أبناء الأمة المهزومة . ولـكن ليس فى المجتمع الاشتراكى فرد أو شركة يستغلان أبناء الشعب ولذلك لاتوجد الوسيلة لاستغلال أبنـاء المستعمرات .

فالاشتراكية هى الديانة العملية التطبيقية ، الديانة الإنسانية . وهى قد تـكون ملحـدة أو مؤمنة إذ لادخل للإيمان الشخصى فى النظـــام الحـكومى الاشتراكى . ولـكن ليس شك فى أن إحساس الاشتراكى بأن مذهبه يدعو و « يعمل » بنظـام معين لتعميم الإنسانية ومنع استغلال فرد لآخر . وأن هذا النظام يلغى الفقر ويزيد الإنتاج . وهذا الإحساس يجعل الاشتراكى قانعا بالتفـكير العملى دون التفـكير الغيبى .

وشو ويلز كلاهما ملحـد . أى غير مؤمن بالإله الذى تعتمد عليه

الكتب المقدسة، وإلحاد شو مهذب . وإلحاد ويلز بذيء. ومنبع إلحادهما هو العلم .

شو يحترم « شخصية » المسيح ويحبه . وقد دعا إلى الأخلاق المسيحية فى كثير من دراماته . ولكنه يجحد فكرة الفداء والتضحية والآخرة . ومع ذلك يجد فى الكون ما يسميه « قوة الحياة » وهى أقرب الأشياء إلى « نهضة الحياة » عند بيرجسون . أى إن هناك اتجاها فى المادة نحو الحياة . ثم اتجاها فى الحياة نحو العقل . أى نحو الإنسان . ثم اتجاها نحو الارتقاء الإنسانى حتى يخرج السبرمان من سلائل الإنسان . وله فى هذه الموضوعات جملة مؤلفات ودرامات .

ولكن ويلز فى إنكاره لله قد بذىء كثيرا .

فإنه لما شرع فى التأليف إلى ما قبل ١٩٢٠ كان يكبر من شأن الدين ويظن أنه يجد فيه الخير أكثر مما يجد الشر . ولكنه انتهى إلى الإلحاد . وصار يؤلف فى الدعوة إلى إنكار الله ، ويستخرج من التوراة والإنجيل كلمات وعبارات يستنتج منها ما يشاء مما يجرح إحساس المؤمنين . أو قد يحيل بعضهم إلى الالحاد .

وكلاهما ، شو وويلز ، قد دعا إلى أخلاق جديدة أساسها العلم . وكلمة « أخلاق » تعنى العقائد السياسية والاقتصادية والثقافية . وليست الاشتراكية عندهما نظام الرحمة أو الإنسانية وإنما هى قبل كل شىء

إنتاج على يزيد الثراء. ومتى زاد الثراء فإن الفقر ينمحى. وعندئذ نجد أن الإنسانية ممكنة.

ممكنة بالنظام وليس بالإحسان.

والفن عند شو هو الدرامة.

والفن عند ويلز هو القصة.

ولكن إلى جنب ذلك ألف كل منهما مؤلفات أخرى تناولت الاقتصاد والأخلاق والدين ونحو ذلك. وقد انتفع كل منهما بالآخر. ومستقبل الانسان، ومستقبل العالم، ومستقبل اللغة والثقافة، كل هذا يهتم كلاهما به ويكتب عنه بطريقته ووسائله الخاصة. فإن ويلز يؤلف موسوعة فى تاريخ البشر كما لو كان تاريخ أسرة متعددة الأفراد ولكنها تنتمى إلى أرومة واحدة. وهو يكتب ويؤلف بشأن حكومة عالمية تحكم البشر جميعهم بلا تفرقة فى السلالة أو اللغة. وهو ينشد لغة عامة للبشر. وهو يؤلف القصص الرومانسية عن المستقبل العلمى للإنسان.

كان كبير الإيمان بالعلم حتى أنه قال ذات مرة أن رجل الأدب لاقيمة له. ولكن قبل أن يموت بأقل من عام انفجرت القنبلة الذرية فوق هيروشيما وناجازاكى. فانهار إيمانه وداخلته الشكوك التى أظلمت أيامه الأخيرة وجعلت من تفاؤله الدائم تشاؤما لازما.

والواقع أن انهياره العصبي هو الذى جعله يتشاءم أكثر مما يجب.

فإن هـذه القنبلة أثبتت للمثقفين ضرورة الأخذ بأفكاره : العـالم هو قريتنـا الـكبرى والشعوب أمة واحدة ولابد أن نؤلف للإنسان حكومة موحدة تحكم الأرض .

كانت هـذه الفـكرة رسالة حياته . وقد أيدها العلم باختراع القنبلة الذرية التى تصرخ فى وجوهنا : إذا لم تتحـدوا وتنشئوا حكومة موحدة للعالم فليس أمامكم سوى الدمار والعودة إلى الغابة وهذا إذا لم يفن النوع البشرى كله . بل الحياة كلها .

ولـكن قبل تحقيق هذه الأحلام لابد من الاشتراكية تعم أقطـار العالم وتضع الإيثار مكان الأثرة ومصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد .

كان ويلز عالمى الذهن يفـكر فى تأليف موسوعة عامة تشترك فيهـا جميع الأمم وتخرجها حية بالمعارف البشرية . بل إنه يكتب التفاصيل فى طريقة الطبع لهـذه الموسوعة إذ هى يجب أن تربط على طريقة الورقة السائبة بحيث يمكننا أن ننزع أحدى الورقات ونضع مكانها أخرى تحتوى على معارف جديدة . فالموسوعة تبقى بالبيت طيلة العمر وتتجدد بأوراق ترسل من وقت لآخر إلى الذين اقتنوها . فتتجدد

وكان كبير التقدير لرجل العلم حتى لقد قال ذات مرة، كما ذكرنا ، أن رجل الأدب لاقيمة له وهو هنا يختلف مع شو الذى يحترم الأدب كما يقدر العلم . ولـكن الواقع أن عقليهما أقرب إلى العلم منهما إلى الأدب .

وقد استنار الشعب بل الشعوب الانجليزية من هذين الكاتبين وارتفع مقام التأليف والصحافة بهما . فإنهما صحفيان قبل أن يكونا مؤلفين. بمعنى أن اهتمامهما بالأحداث الجارية كان كبيرا بحيث لم تكن هناك صحيفة كبرى تهمل رأيهما بشأنها . وكان اتفاقهما فى الوسائل والأهداف أقل من اختلافهما . أما الموضوعات التى عالجاها فلم تخرج قط عن التطور ، الإنسان فى المستقبل، الاشتراكية، الثقافة ، الزواج ، الحكومة ، قيمة العلم . الخ .

وإذا شئنا أن نفضل ونميز بين شو وويلز جاز لنا أن نقول أن عقلية شو انتقادية فى الأكثر بنائية فى الأقل . أما ويلز فيبنى ولا يكاد ينتقد إلا قليلا . أى أنه إيجابى يشرع المشروعات للبناء فى السياسة والاقتصاد والأخلاق . والإصلاحات الإجتماعية العديدة التى سارت فيها الحكومة الانجليزية فى النصف الأول من هذا القرن هى من إيحاء مؤلفات شو وويلز أكثر من أى كاتب آخر .

ولقد كان من سعادة حياتى إنى جاريت هذين الإثنين من السنين العشر الأولى من هذا القرن إلى يوم وفاتها . ولم أكن أهمل حرفا مما كتباه . وإليهما أعزو نشأتى العلمية واتجاهى الاشتراكى الإنسانى .

شو وتولستوى وشكسبير

كان الأدب الروسى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، رالربع الأول من القرن العشرين ، قدوة ومثالا لجميع طلبة الأدب والأدباء فى أوربا . وأيما أديب كان يجهل تولستوى أو دستوفسكى أو جوركى أو يستصغر شأنهم فى الأدب ، كان ، بهذا العمل ، يعرض نفسه للسخرية والاحتقار .

ولم يكن غريبا على برنارد شو أن يصف الأدب الروسى بأنه أدب « العمالقة » . والمعنى هنا أن الأدباء الروس يعلون على غيرهم من أدباء أوربا علواً عظيما .

وعرف شو تولستوى . واتصلت المكاتبات بينهما فى شئون الفن والدين . وأكاد أقول إنه لم يهز أوربا ويثير ضميرها ، بعد فولتير ، مثل تولستوى وشو . وهناك من الحوادث الصغيرة ما له قيمه رمزية كبيرة .

فإن المتهتكين من الكهنة الروس (الذين ينتسب إليهم راسبوتين) كانوا قد رأوا فيما يكتبه تولستوى هرطقة أى زندقة . فحرموه . أى أخرجوه من حظيرة الكنيسة . ومع أن هذا الحادث تافه فإنه فتح

العيون والعقول فى أوربا على مقدار الهوة التى كانت تتردى فيها روسيا أيام القياصرة .

وكانت خطيئة تولستوى التى استوجبت هذا الحرم أنه وصف المسيح بالحكمة والعقل لا أكثر . حتى أنه قال إن الحكمة المسيحية التى تقول : « لا تقاوموا الشر بالشر » لا تحتاج إلى إيحاء الهى . « وكان يمكننى أنا أن أقولها لو لم يقلها الإنجيل »

وأحب شو روسيا . وأحبها أكثر عقب ثورة ١٩١٧ . ولما مات وجدت صورة لنين معلقة فوق فراشه . وزار الإتحاد السوفيتى وقرأ وصحح كتاب سيدنى وبياتريس ويب « حضارة جديدة » عن الاشتراكية كما تمارس هناك حوالى ١٩٤١ . ولم يكن هذا غريباً فيه . فإنه عاش حياته يدعو إلى الاشتراكية . فكان طبيعياً أن يعجب بالنظام الاشتراكى الجديد فى الإتحاد السوفيتى .

ونجد هنا إغراء على المقارنة بين شو وتولستوى . فقد كان الأول كاتبا مسرحيا بينا كان الثانى كاتبا قصصيا . وكلاهما تفوق فى فنه وامتدت له شهرة عبر القارات الخمس . وكانا على وفاق فى الأهداف الإنسانية يكرهان القوة والفحش والغلظة ويميلان إلى النسك . وإن يكن لكل منهما طرازه الخاص فيه . ولكنهما كانا يختلفان فى أشياء أخرى .

كان برنارد شو يحيى مع زوجته ناسكا لا يقربها . وكان تولستوى

يحاول ذلك ولكنه يخيب فى محاولاته فيسخط ويألم . وكانت الخطيئة الكبرى عند تولستوى هى الخروج عن حظيرة الزواج إلى مغامرات عشقية فى حين كان برنارد شو يجرب فى هذه المغامرات بعض التجارب.

ولم يكن لتولستوى برنامج سياسى إقتصادى إجتماعى . أو قل إن برنامجه الكلى الشامل هو المسيحية . ولذلك كثيراً ما تعب وعرق ودخل فى مشاجرات مع أسرته بشأن رغبته فى النزول عن أرضه الزراعية للفلاحين . وصدته أسرته عن هذا الاتجاه . فكان يعزى نفسه من وقت لآخر بأن يلبس الملابس الخشنة ويحرث الأرض بنفسه ويصلح أحذية الفلاحين بيديه . وكل هذا كان بمثابة العبث يعبث به القلب الطيب العاجز عن تحقيق أحلامه .

ولكن برنارد شو كان يدعو إلى النظام الاشتراكى . وكان لهذا المذهب شأن فى ترتيب ذهنه وتوجيه نشاطه سواء الفنى منه أم الإجتماعى . فلم يأنف لذلك من أن يكون له خادم يطهو له طعامه . ولكن عندما مات هذا الخادم ، أقام له نصبا تذكاريا فى حديقته . وترك لزوجته وأبنائه معاشا من تركته .

وكان كلاهما شعبيا . مع فروق . فقد كان تولستوى يكتب للشعب فى لغة شعبية إذا سمعها فلاح فهمها واستبصر بها . وكذلك كان شو من حيث اللغة . ولكن الاهتمامات الذهنية عند شو كانت من الطراز العالى

فى الثقافة ، هذا الطراز الذى لا يكاد يشغل بال الفلاحين . أما موضوعات تولستوى ، إذا استثنينا الدين ، فتمد كانت إجتماعية مألوفة قلما ترتفع إلى القمم الفلسفية الخطرة . ولذلك حدث التصادم .

كان برنارد شو ساخرا يحب أن يضحك وهو عند حافة المأساة . وكان تولستوى وقورا يفزع من السخرية . وكان برنارد شو علميا فى أهدافه يستنبط فلسفته المادية من العلم . فى حين كان تولستوى مسيحيا يحس الأحساس المسيحى العميق وبرنامجه للعدل والخير والمساواة أى يحب بعضنا بعضا . وكفى هذا .

وشعبية تولستوى ألمسرفة تتضح من تعريفه للفن حين قال إن العمل الفنى هو الذى يحسه الفلاحون ويدركونه وقد . ردّ عليه شو بحق بأن السيمفونية العظيمة عندئذ لا يمكن أن تكون من الفنون الجميلة .

إن الفن عند شو ، يحتاج إلى تربية وتدريب .

ويقول تولستوى : إنه ليس هناك شك فى أن الفنون الجميلة عند الطبقات العالية فى الشعب لا يمكن أن تكون فنون الشعب . وهو صادق هنا . . . . مادام الشعب لم يتعلم . وهذا بالطبع إذا لم نفهم من كلمات تولستوى أنه يقصد إلى الفنون المتهتكة ألتى كانت الطبقة العالية المهارة فى روسيا تمارسها وتستمتع بما فيها من غرائز واتجاهات حيوانية .

وألف تولستوى كتيبا عن شكسبير وصفه فيه بالغلظة والقبح

وخسة التعبير وهوان التفكير . والكتاب جدير بأن يقرأه المتأديون فى مصر والأقطار العربية . وهو ، أى تولستوى ، يمثل الفنان الشعبي وينظر فى غيظ واحتقار إلى فنان الطبقة العالية . فإن الشعب كان عند شكسبير « غوغاء » . وهو عند تولستوى كل شيء ، بل ليس هناك شيء غيره وقد رد عليه برنارد شو فسلم بالكثير مما قاله تولستوى عن شاعر بريطانيا سيدة البحار واستصغر اشعاره المرسلة ولكنه مع ذلك دافع عنه بأنه لايزال فنانا غير صغير القدر .

وألف شو درامة « بلانكو بوسنيت » فمنعها الرقيب على المسارح لأنه جعل بطل الدرامة يصرخ بكلمات نابية عند المؤمنين عن الله ولكن الرقيب بعد ذلك أجاز تمثيلها دون أن يحذف منها شيئا . وأرسل شو نسخة من هذه الدرامة إلى تولستوى مع خطاب قال فيه : « رأيي أن الله لاتوجد الآن . ولكن هناك قوة خالقة تحاول بلا إنقطاع أن توجد عضوا عاملا منفذا ، له من القوة والمعرفة ، مايشبه كال الآلهة . أى له المقدرة الكلية والمعرفة الكلية . وعندما يولد رجل أو إمرأة تكون ولادتهما بمثابة المحاولة الجديدة لتحقيق هذا الهدف . . . ونحن هنا نحاول مساعدة الله ونؤدى عمله ونصلح أخطاءه القديمة ونكافح حتى نصل نحن إلى الألوهية » .

وهذا الكلام لايخرج عن مذهب شو عن « السبرمان » وعن

نظرته وفهمه لمعنى التطور . ولم يستطع تولستوى أن يسيغ هذه اللغة كما إنه سبق أن إنتقد شو فى درامته « الإنسان والسبرمان » لأنه كان يحيل المواقف الخطيرة الجادة إلى مواقف سخرية وضحك . وكتب إليه بهذا المعنى . فكان رد شو أكثر سخرية إذ قال لتولستوى : لعل الله قد خلقنا كى يضحك منا .

وهذا يعود إلى أن فى اعماق شو مهرجا يطل من وقت لآخر ويعترض على الفيلسوف ويخفف بذلك من وقار المواقف . وإن كان فى بعض الأوقات يزيد فى التهريج إلى حد الوقاحة ، هذه الوقاحة التى لم يطقها تولستوى .

المسرح وسيلة للتربية

عندما أتأمل حياة العظماء من قادة الفكر أو المكتشفين فى العلوم أو دعاة الثورات أو الأدباء الراسخين أتعجب من أن عددا كبيرا منهم لم يحصل على تعليم متوسط أو عال يبرر تفوقهم البارز . بل أن منهم من لم يحصل حتى على تعليم ابتدائى ، وكثير منهم عاشوا فى فوضى تعليمية يتقلبون بين دراسة وأخرى بحيث لم يحذقوا واحدة منها كما نجد مثلا فى هربرت سبنسر ، وتشارلس داروين ، وبرنارد شو ، وعشرات غيرهم .

وعندئذ احتاج إلى أن أبحث عن علة تفوقهم . فأجدها .

أجدها فى مئات الكتب التى يكتبها مؤلفون جادون يتعبون فى التأليف كى يربوا القراء ويعلموهم . كما أجدها فى عشرات المجلات التى تختص فى علم أو فن معين وتدرسه . بل إن فى عواصم أوربا من المحاضرات المنظمة للشعب ما يكفى لتخريج العامة إلى مثقفين . وأستطيع أن أقول فى يقين أن عدد المحاضرات العامة التى يدخلها المستمعون بأجور مخفضة ، خمسة أو عشرة قروش ، لا يقل عن ثلاثين أو أربعين محاضرة كل يوم فى لندن وحدها .

وأخيرا هناك المسرح .

إن المسرح الأوربي للتسلية فقط حين ينحط . وهذا قليل ، ولكنه للتعليم حين يرتفع . وهذا هو الغالب عليه . فإن المؤلفين للدرامة الأوربية ، منذ هنريك أبسن ، يعالجون المشكلات الاجتماعية بذكاء نادر . كما يجرؤون أيضا على معالجة المشكلات الفلسفية بل الدينية .

الفلسفة على المسرح شيء مألوف فى باريس ولندن وبرلين . وقد غذى المؤلفون المسارح بالفلسفة والدين والأدب والأخلاق . وعاونهم على ذلك حرية فكرية تتسع للآراء المتناقضة بل الآراء المؤلمة لمن نشأوا على احترام العرف والعادة بلا تفكير . وقل أن يزور أحدنا مسرحا أوربيا ويستمتع برؤية إحدى الدرامات لكاتب ممتاز دون أن يخرج وفى رأسه طنين من الآراء يبعث على الاجترار والتفكير .

وهذه الأشياء الأربعة ، الكتب الجدية ، والمجلات المتخصصة ، والمحاضرات المدروسة ، وأخيرا المسارح التى تعلم وتنير ، هى التى تعلم العامة من أبناء الشعب الذين لم يحصلوا على تعليم منظم فى مدرسة أو جامعة . وهى التى يعزى إليها التبريز الذى نجده فى أمثال داروين وسبنسر وشو .

وعندما أذكر برنارد شو وأتأمل مؤلفاته التى لم يفتنى منها كتاب أو مقال ، أحس أنها تكفى لتخريج المثقفين فى الموضوعات المعقدة التى

عالجها وهي عشرات . كتبها جميعا فى لغة بعيدة عن البهارج التى تشغل القارىء أو المستمع وتحول بينه وبين التفكير المتزن وهذه المؤلفات كلها تقريبا درامات تمثل . وتتناول كل منها مشكلة فلسفية أو اجتماعية بل أحيانا مشكلة دينية . ولكنه كان ، حين يخرجها كتبا مطبوعة ، يكتب لكل منها مقدمة قد تزيد أحيانا فى عدد صفحاتها على الدرامة نفسها . وهو يشرح فيها موقفه بأكثر إسهابا من المشكلة التى عالجها فى الدرامة .

وساعده على إخراج دراماته بما تحويه من فهم عميق مناخ من الحرية الفكرية يحيا فيه المفكر وينمو ولا يجد عائقا من تقاليد مشئومة تقول له : قف هنا ولا تفكر . التفكير ممنوع .

ولذلك لم يصطدم إلا فى الأقل بالقانون أو العرف حين منع تمثيل بعض دراماته . ولكن لم تمض سنوات على المنع حتى أجيز تمثيلها ثانيا . حدث ذلك فى درامة ألفها بشأن الكسب الحرام من المواخير حين حمل على النظم التجارية الأخرى لأنها تجيز الخسة والدناءة والاستغلال السافل كما يحدث فى المواخير سواء . وحدث مرة أخرى فى درامة تتصل بالإيمان بالله جعل فيها أحد الأشخاص ينتقد الله فى حماقة ويسب ويهاتر ، ولكن أجيز التمثيل بعد مدة من المنع .

وكل ما أقصد إليه أن مناخ الحرية يجرىء على التفكير ، لأن مصير الانحراف إلى الاهمال والتلاشى ، ويبقى بعد ذلك الناضج الذى

يؤدى إلى الرقى . وهذا هو مايجعل من المسرح مدرسة بل جامعة .

ومع إننا نضحك كثيرا ونقضى الساعات ونحن نستمع إلى الحوار الذكى والنكات الصارخة التى تخرج من أفواه الممثلين فاننا نجدنا فى موقف قد وضعنا فيه المؤلف يحملنا على أن نسأل ونرتبك ونحاول أن نفهم ونتغير . بل قد نحزن كثيرا على الرغم من الكلمات والنكات التى أضحكتنا كثيرا .

وبرنارد شو هو أديب الأفكار .

وهنا أقف كى أعرب عن الأسف بأن أدب الأفكار لايكاد يوجد فى الأقطار العربية . وإنى أسأل لماذا لايكون عندنا مثلامعجم للأفكار التى أثارت الثورات وحركت العقول وغيرت المجتمعات كما أن عندنا معاجم كثيرة للألفاظ ؟

ولأن أدب برنارد شو هو أدب الأفكار فإنه مثل فولتير ، عنى بالعلم عناية كبيرة . فقد يجهل القراء أن فولتير أديب أوربا العظيم وصاحب الدعوات التحريرية قد انغمس فى دراسة العلوم حتى أنه ألف مجلدين تبلغ صفحاتهما نحو ١٠٠٠ صفحة كبيرة يبحث فيها ، على قدر عصره ، مشكلات العلم المادى .

وكذلك فعل برنارد شو . فإنه ناقش نظرية داروين والمعانى المنبثقة منها بشأن التنازع والتعاون فى الطبيعة ، كما ناقش عوامل الوراثة

وعوامل الوسط وتأثيرهما فى التطور . بل ناقش الأطباء فى حكمة العلاج والدواء . وهذا إلى بحوثه العميقة فى معانى التربية وأهدافها .

لقد عنى برنارد شو كما عنى فولتير بالعلم لأن العلم أفكار وليس ألفاظا

* * *

إن العبرة التى نحتاج إلى تأملها أن المسرح الأوربى لايزال يحيا قويا يتسع للبحوث الفلسفية والاجتماعية فى حين أن مسرحنا يكاد يكون لغوا ونسيا لا نأبه به ولانكاد نذكره . وهذا الاختلاف بين المسرحين يجب أن يهمزنا إلى البحث عن العلة وإلى طلب العلاج . إذ نحن بإهمال مسرحنا تنقصنا مدرسة بل جامعة .

لقد أنشأنا الأوبرا منذ أيام إسماعيل . ولكن حكم المستعمر الأجنبى يؤيده الخائن المصرى ، كان يحمل الحكومة على معاونة التمثيل الأجنبى دون التمثيل المصرى . بل لم تكن هناك أية محاولة جدية لإيجاد الفنون المسرحية العربية .

ثم جاء التمثيل السينمائى . وهو فى أحسن ظروفه لهو أكثر مما هو فن وكان يمكن أن يكون فنا عظيما لولا أن المجتمع التجارى الذى نعيش فيه ، وتعيش فيه أوربا وأمريكا أيضا ، يطلب المال أكثر مما يطلب الفن . ولذلك اتجهت القصص السينمائية فى مصر إلى اللهو الذى يجذب الجمهور ويستخرج نقود أفراده بدلا من أن يتجه إلى الفن الذى يربيهم .

ولا يمكن التمثيل المسرحي أن يزاحم التمثيل السينمائي . ما دام هذا الأخير يتجه نحو العامة الذين لايحاول المؤلف أن يرفعهم إلى مقام الشعب و يعلمهم التفكير . وما دمنا على هذه الحال فإننا لن نطمع فى أن نجد برنارد شو فى مصر . بل إنى أعتقد أنه لومثلت درامات برنارد شو على مسرح فى القاهرة فإن الجمهور سيصد عنها لأنه لم يتعود الحديث الذهنى والاشتغال بالمشكلات الفلسفية العلمية والاجتماعية . ولذلك يكون مصيرها الاهمال .

ولم يؤثر التمثيل السينمائي على المسرح الأوربى إلا تأثيرا طفيفا لأن المخترعات السينمائية جاءت بعد أن كان المسرح قد ثبت بل رسخ فى المجتمعات الاوربية وأصبح بعض مؤسساتها المحترمة .

ومشكلتنا الآن هى : كيف نحيي المسرح ؟

أعتقد أن أول ما يجب علينا هنا هو أن نترجم المسرحيات العظيمة كى تقرأ أولا . وهى متى قرئت وعرفت قيمتها عند جمهور المفكرين ، استطعنا أن نشرع فى تمثيلها على قياس صغير لايكلفنا إرهاقا حتى إذا تذوقها الجمهور وتربى بها بعض التربية أقبل عليها فى التمثيل بعد القراءة . وأنا أقصد بعبارة « المسرحيات العظيمة » تلك التى تعالج المشكلات الانسانية من اجتماعية إلى فلسفية إلى علمية . ولا أقصد ذلك اللهو الذى يكاد يكون سينمائيا .

ومن هنا قيمة برنارد شو لنا . فاننا لو ترجمناه إلى لغتنا لوجدنا فيه جامعة تعلم وتلهم وترشد نحو الخير والبر والشرف والقوة . نجد ذلك حين نقرأه قراءة الدراسة والتأمل . ثم يبقى لنا بعد ذلك الأمل الذى أرجو ألا يكون بعيدا وهو أن نراه ممثلا .

* * *

نحتاج هنا إلى أن نذكر الخصائص التى يمتاز بها برنارد فى تأليفاته المسرحية ، وأول هذه الخصائص أنه لايبالى القواعد المسرحية مثل « وحدة الزمان والمكان » أى أن الدرامة كلها فصل واحد أو تكاد تكون كذلك . كما كان يفعل هنريك إبنسن ومثل « الحبكة » أى اننا يجب أن نجد الحوادث مرتبطة تحور حول نقطة . ومثل « الذروة » حين يخلق لنا المؤلف نقطة يزداد فيها التوتر حتى يصل إلى الذروة التى ينتظرها المتفرجون وأنفاسهم معلقة . وأخيرا « الحركة » على المسرح

وبرنارد شو يخالف كل هذه القواعد حتى لقد اتهم لهذا السبب بأنه حطّ المسرح الإنجليزى ولم يرفعه . بل هناك من يعلل صدود الجمهور الفرنسى عن دراماته بإهماله لهذه القواعد بزعم أن الفرنسيين أدق إحساسا بالفن من غيرهم .

ولكن برنارد شو هنا مقنع فى رده إذ هو يقول إنه ينقل الحياة إلى المسرح . وليس فى الحياة حبكة . وإن يكن جمهور المتفرجين يرتاحون

إليها . كما أن الحوادث لا تصل على الدوام إلى الذروة . أما عن وحدة الزمان والمكان فليست واقعية .

ولكن الذى لايشك فيه أن برنارد شو يقصر فى « الحركة » فإن بعض دراماته تكاد تكون أحاديث لا أكثر . بل إن هناك موقفا فى دراامة « الإنسان والسبرمان » يتكون من أربعة أشخاص يتحدثون نحو ساعة بلا أدنى حركة أو تغيير . ومع أن هذا يحدث فى الحياة فإن الفن يقتضى طرد السأم عند المتفرجين من مثل هذا الموقف لأن المسرح إمتاع كما هو تعليم .

والواقع أن برنارد شو ، قبل أن يكون مؤلفا مسرحيا أو أديبا ، إنما هو فيلسوف إذهو لايبالى أن يضحى بفنه من أجل فلسفته . فنحن نفهم أن الحب هو موضوع الدرامة فى أكثر أحوالها وأقربها إلى أذهان الجمهور . ولكن الحب هو أبعد الموضوعات عن ذهن برنارد شو الذى قل أن يعرض له إذ أن موضوعه بل جميع موضوعاته فلسفية ، ونحن معه إزاء رجل يعلمنا وهو يسلينا أى أن التسلية وسيلة الفلسفة . وقد عيب عليه إهماله للحب فكان جوابه أنه ليس هو الشأن الأعظم فى حياتنا . وأشخاص دراماته البارزون ، لهذا السبب فلاسفة أو ينزعون إلى آراء فلسفية بشأن المجتمع .

ومع خلو درامات برنارد شو من « قواعد » التمثيل فإن براعته فى

الحوار الفلسفي تسحرنا حتى لننسى القواعد والفن ونحن نصغي إلى تبادل الأحاديث بين أشخاص الدرامة . ودرامة جان دارك لاتخلو من الحركة والحبكة ولكننا مع ذلك نلتفت إلى الأحاديث ونحن مسحورون بمعركة الأفكار فيها . وهي معركة تمس قلوبنا حتى لنحس أننا نحن نمثل فيها ونشترك مع أشخاص الدرامة وإن لم نكن على المسرح معهم .

ليس برنارد شو ممن يؤلفون الدرامة للدرامة أو يمارس الفن للفن. وهو أيضا لا يكتب مايريده العامة . ولوكان قد فعل لكان قد اكتسح جميع الذين ألفوا للمسرح . وإنما هو معلم يتخذ المسرح وسيلة وليس هدفا . والاعتبار الأول عنده هو المناقشة الفلسفية بشأن الدين والفلسفة والأخلاق والعلم كى يغير المتفرجين ويحملهم على أن يتطوروا وعلى أن يعتمدوا على العقل والذكاء وليس على العادات والمعتقدات .

الزواج في درامات شو

من الموضوعات المحببة إلى برنارد شو فى دراماته ما يذكره ويكرره بشأن موقف المرأة من الزواج . فإن المألوف عندنا وعند جميع الشعوب المتمدنة أن الرجل هو الذى يبحث عن الفتاة التى تليق له زوجة . وإنه هو الذى يفتتح وسائل التعارف وهو الذى ينطق بكلمة العرض .

هو يعرض والفتاة تقبل .

ولكن برنارد شو يوضح فى تكرار وبسط أن هذا السلوك هو ما يظهر على سطح المباحثات قبل الزواج . أما الحقيقة فهى أن المرأة هى التى تبحث عن الرجل وهى التى تغرى وتحرض كى ينطق هو فى النهاية بالكلمة التى تدعوها إلى الزواج منه .

وهو يعلل ذلك بأن المرأة تطلب الزواج باعتباره وسيلة للعيش إذ هى تجد فيه زوجا أى عائلا يعولها ويخدم أبناءها . فهى لا تقصد من الزواج إلى التناسل أو إلى السعادة الزوجية . بل هى لا تختار كما يوحى إليها قلبها . وإنما هى تهدف فى كل جهودها ومناوراتها إلى الوصول إلى زوج يحقق لها العيش الحسن .

وهذا هو ما نجد فى بلادنا ، مصر ، أكثر ما نجد الآن فى إنجلترا فإن الفتاة الإنجليزية تتعلم وتعمل وتكسب . وهى تختار زوجها لجملة اعتبارات منها بالطبع أن يكون الزوج قادراً على الكسب . ولكن ليس هذا هو الاعتبار الوحيد فى اختيارها للزوج فى أيامنا . وقد كتب برنارد شو دراماته وبسط آراءه عن الزواج قبل نحو أربعين سنة حين كانت المرأة مبتدئة فى الأعمال الحرة وحين كانت الحاجة عندها إلى اختيار الزوج « العائل » أكبر مما هى الآن .

وبرنارد شو ينتقد (نعنى أنه كان ينتقد) هذه الحال . لأن المرأة ، حين كانت تطلب عائلا فقط أو قبل كل اعتبار آخر ، إنما كانت تهمل إعتبارات أخرى لها قيمتها البيولوجية العظمى مثل سن الزوج وصحته وكفاءته لأنجاب الأطفال الممتازين .

والواقع أن أعظم ما يفكر فيه برنارد شو بشأن الزواج هو هذه الاعتبارات البيولوجية اليوجنية . وخاصة أن يكون الزواج وسيلة لارتقاء البشر باختيار الأصلح للتناسل بل منع التناسل لغير الأكفاء له أى أنه يهدف إلى التطور إلى أعلى .

والزواج فى الحالة الحاضرة ، فى مصر أكثر مما هو فى انجلترا ، يعطل هذا التطور . لأن الفتاة تطلب قبل كل شىء من يعولها ولو كانت ميزاته البيولوجية ناقصة . ووجود الطبقات وتفاوت الثراء يحملان الفتاة

على أن تنكر على نفسها ما تمليه عليها حريتها فى طلب الصحة والجمال والذكاء. وشو يعتقد أن غريزة المرأة هنا تصدق فى تحرى هذه الميزات ولا تخطىء لو لم تقف اعتبارات المال حائلا دون الإسترشاد بها .

ولا يجد شو فى الزواج أى معنى لما يقال أنه عقد مقدس لا يمكن أن يحل . إذ هو عنده قبل كل شيء عقد تناسلى بيولوجى يوجنى . ومعنى كلمة « يوجنى » هنا أنه يهدف إلى صحة النسل . ولذلك هو يقول بتيسير الطلاق بل جعله مباحا بلا قيد ولاشرط إذا لم يكن للزوجين أطفال . أما حين يكون هناك أطفال فإن الطلاق يباح مع مراعاة مصلحة الأطفال .

وكتابه أى درامته عن « الإنسان والسبرمان » هو الهدف الأخير أو الفكرة الأصيلة فى تفكيره عن الزواج والتناسل . فهو لا يكاد يذكر أن الزوجين يجب أن يسودهما وفاق ينهض على المساواة فى المستوى الثقافى مثلا حتى لا يكون التفاوت هنا داعيا إلى الخلاف . فإن فكرة التناسل الذى يؤدى إلى إيجاد جيل جديد أرقى من الجيل السابق ، أى جيل الأبوين ، تغمره .

وعندما نتأمل الأسرة (لاالعائلة فقط) فى مصر بل فى جميع الأقطار نجد أن لبرنارد شو الحق فى الإلتفات إلى هذه الفكرة . فإنه لا تكاد توجد أسرة ، ليس فيها خال أو عم أو ابن خال أو ابن عم فضلا عن

الأشقاء ، خالياً من عيوب بيولوجية فى بناء الجسم أو ذكاء العقل . ونحن حين نولد لا نرث أبوينا فقط وإنما نرث بعض سماتنا الجسمية والعقلية من جدودنا وأخوالنا وأعمامنا أى من ارومتنا (أسرتنا) التى نشأ منها أبوانا .

وقد هدفت اليوجنية (أى علم اصلاح النسل) إلى اصلاح هذه الحال بمنع الناقصين من التناسل وتشجيع الأكفاء الحاملين للسمات الحسنة . ومؤلف هذه الكلمة ، اليوجنية ، هو جالتون ابن عم داروين . وقد استرشد بالطبع فى معانيها وأهدافها من نظرية التطور أو الداروينية .

ومع أن برنارد شو يؤمن بتأثير الوسط إيماناً كبيراً فإنه لا ينكر قيمة الوراثة . إذ ليس العلم مذاهب وإنما هو نظريات وتجارب .

وهذا الإتجاه نجده على اقصاه عند برتراند رسل الفيلسوف الإنجليزى المعروف . فانه يعتقد أن الزواج سوف يكون من التبعات الإجتماعية للإرتقاء بالنسل جيلا بعد جيل حتى ليقول إن الجيل القادم سوف تختار الدولة أفراده قبل ميلادهم أى باختيار آبائهم . بل هو يرغب فى تخصيص بعض النساء للأمومة دون غيرهن . ويكتب هذه الكلمات ألتى يعدها غيره كلمات كافرة فاجرة : « نستطيع أن نتوقع فى المستقبل ، من حيث التنظيم الجدى للكم والكيف (فى النسل) ، أنه سيكون فى كل جيل ٢٥ فى المائة من النساء و ٥ فى المائة من الرجال

يختارون لأن يكونوا آباء لأبناء الجيل القادم . أما سائر أفراد الشعب فيعقمون حتى لاينجبوا أطفالا . وهذا التعقيم لن يمنع الأتصال الجنسى بأية حال ولكنه يجعل هذا الاتصال خاليا من الآثار الإجتماعية . . . والنساء اللائى يخصصن للتناسل ستحمل كل منهن وتلد ثمانية أو تسعة أطفال ولكنها لن تكلف القيام بأى عمل آخر لمدة شهور ولن توضع أمامهن عقبة لمنع إتصالهن بالرجال المعقمين . . . ولكن التناسل سيكون من شئون الدولة . ولن يترك حرا للإختيار بين الجنسين وربما يكون « التلقيح الصناعى » أوكد فى الأخصاب وأقل إحداثا للإرتباك إذ هو يغنى عن الاتصال الشخصى بين الأب والأم المختارين لإيجاب الطفل المنشود . ولن يكون للآباء أية صلة بالأبناء . وسيكون هناك على وجه عام أب واحد لكل خمس من الأمهات . وربما لايرى الأب أولئك الأمهات اللائى حملن بأبنائه إذ هن قد يحملن بالتلقيح الصناعى . وعلى ذلك لن تكون هناك عاطفة أبوية . . . »

قال برتراند رسل هذه الكلمات فى كتابه « النظرة العملية » . وقد رأيت أن أنقلها للقراء وأن لم تكن من تأليف برنارد شو . وذلك لإعتقادى أن برنار شو يوافق عليها كفكرة وأيضا لأنى أحب أن يقف جمهور القراء العرب على مايفكر فيه فلاسفة أوربا . وبرتراند رسل فى مقدمتهم . إذ ليس هناك أسوأ من أن نحرمهم الوقوف على

هذه الإتجاهات الإوربية . ولا يمكن أن يكون الجهل فضيلة . ومهما تكن هذه الأفكار منافية لعاداتنا وتقاليدنا ، بل مهما تكن هذه الأفكار لجة نابية ، فإنها تعالج أعظم الموضوعات للإنسان فى هذه الدنيا وهو موضوع تطوره وإيجاد نوع أو سلالة جديدة ترقى عليه بميزات جديدة

وقد انخفض التفكير الفلسفى ، بل إنعدم ، فى مصر وسائر الأقطار العربية بالمثابرة على منع الأفكار الاوربية من التسلل الينا . ونظمت قوى مظلمة تحت اسماء « البوليس السياسى » أو « القلم المخصوص » فى مصر لمراقبة المؤلفات الاوربية التى تحوى مثل هذه الآراء . وخاصة الآراء . الاشتراكية والشيوعية . وبقيت شعوبنا العربية فى جهل أكثر من أربعين سنة لأسلوب الحياة فى روسيا وسائر دول الإتحاد السوفيتى . ومنعت ترجمه « البيان الشيوعى » لكارل ماركس خشية أن يؤدى إلى حركة شيوعية . مع أن روسيا نفسها لم تصل بعد إلى النظام الشيوعى . وأستطيع أن أقول إنه قد حبس عشرات فى مصر لأن هذا الكتيب قد وجد فى مساكنهم .

والذى أرانى مضطرا إلى الاعتراف به أن السياسى الذى يحي فى عصرنا ولم يقرأ بل لم يدرس « البيان الشيوعى » الذى ألفه كارل ماركس إنما هو إنسان جاهل . وجهله يبلغ أعلى مراتب الخطر

إذ لن يستطيع أن يفهم حركة التاريخ الحاضر أو الماضى أو المستقبل ، ولن يفهم معانى القوة وتطور المجتمع بل أساس الإستعمار الذى مازال جزء كبير من العالم يعانيه .

والعقوبة على القراءة ودعوة « الا تقرأوا » هما فى صميمهما إنكار للعقل البشرى وجحد للذكاء . وأيما أمة تفعل ذلك إنما تنتحر .

وليس من الضرورى أن نصير شيوعين حين نقرأ « البيان الشيوعى » كما ليس من الضروى أن نقوم بدعوة إلى إلغاء الزواج كما هو الآن حين تقرأ ما كتبه برتراند رسل . إنما من الضروى أن نقف على الآراء البازغة فى أوربا التى تسود الدنيا وأحيانا تستبد بها أى بمصر أو الهند أو العراق أو غيرها من الأقطار .

يجب أن نعرف هذه الأفكار ونتأملها فى ضوء أحوالنا الاجتماعية والثقافية . لأن أقل ما فيها أننا نألف التفكير الحر ونعتاد دراسته . ثم نعرف كيف تحى هذه الدنيا ، أى كيف يحى ثمانمائة مليون إنسان شيوعى . وليس الجهل هنا فضيلة وإنما هو رذيلة من أسوأ الرذائل : كما ليس الجهل بالأفكار الفلسفية ، مهما شطحت ونطحت ، من الفضيلة أيضاً .

الفقر الفقر الفقر

حياة برنارد شو الفنية هي حياة الكفاح للفقر . وأولى درماته : « حرفة المسز وارين » تعالج موضوع الفقر . وهو إشتراكى المذهب لأنه يجد فى هذا المذهب معالجة للفقير .

الفقر عند برنارد شو هو الأصل والجذر لعشرات من الشرور والآثام . ومعالجته هى معالجة لعشرات من الشرور والآثام .

كنت فى ١٩٣١ فى رحلة فى الصعيد . وكان أعظم ما وقع فى نفسى رؤية الفلاحين فى فقرهم الفاحش ، المزرى ، الذى حرمهم الكرامة ، والنظافة ، والصحة ، والمعرفة . وجدت هناك خادمات يعملن بخمسة عشر قرشا فى الشهر أى خمسة مليمات فى اليوم فقط . وعرفت أن بعض العمال يعملون بخمسة عشر مليما فى اليوم . ثم مع ذلك لايجدون العمل كل يوم .

وفهمت عندئذ لماذا تكثر الجرائم البشعة فى الصعيد .

أليست الحياة رخيصة ؟ فماذا لو فقدناها ؟ ماذا نفقد بفقدانها ؟ نفقد لقمة الذرة الجافة نسيغها بالماء العاكر ؟ . ولماذا لانغامر

بالقتل والسرقة والاغتصاب وخطف الأطفال ؟

إن قصاري مايمكن أن ينزل بنا من الكوارث إذا ارتكبنا هذه الجرائم هو السجن . وهو مكان رحب يحتوى الغذاء والكساء بالمقارنة إلى الحياة بالحرمان والجوع والقمل والمرض التى كان يحياها فلاحونا فى الصعيد حين زرته فى ١٩٣١ .

فى ١٩٤٠ كنت أحرر « مجلة الشئون الاجتماعية » فوصفت فى إحدى مقالاتى الفقر والجهل والمرض بانها ثالوث مدنس كل رذيلة فيه تؤدى إلى الرذيلتين الاخريين . وارتحت كثيراً حين وجدت أن كتابنا تعلقوا بهذه الكلمات وكرروا ذكرها فى الصحف للتنوير العام حتى وصل التنوير إلى الوزراء . ولكن بلا جدوى .

والآن أحب أن أقول إن أرذل هذه الرذائل الثلاث هو الفقر إذ هو يؤدى حتما إلى الجهل والمرض أما هذا الإثنان فيمكن فى بعض الحالات ، وفى نظامنا الاقصادى الحاضر ، الا يؤدى أحدهما إلى الفقر .

نظامنا فى أساسه إقتصادي . وعلى قواعده الاقتصادية تنبنى جدران بنائه الاجتماعى . ومن هذا البناء الاجتماعى تتكون أخلاقنا بل عواطفنا التى نعتقد أنها طبيعية . ولذلك حين نقع فى الفقر تنهار جميع أو معظم قيمنا الاجتماعية ولا يستطيع الثبات على هذه القيم فى وجه الفقر سوى الأقلين الشاذين الذين يمكن أن نعزو شذوذهم هذا إلى مركبات معينة هى أقرب إلى المرض منها إلى الصحة .

يقول برنارد شو : « إن الفقر الذى نجده فى مدننا الكبرى يدنس الفرد كما أنه ينقل عدوى الدنس إلى جيرانه . و مايدنس الجيران يمكنه أن يدنس قطرا بل قارة بل العالم المتمدن كله إذ نحن كلنا جيران . بل الأغنياء تنتقل اليهم آثار الفقر السيئة . ذلك انه حين يحدث الفقر وباء معديا ، كما هو شأنه على الدوام إن قريبا وإن بعيدا ، فإن الاغنياء يقعون فى هذا الوباء ويرون أبناءهم يموتون به . وعند مايحدث الفقر البطش والجريمة يستولى الخوف على الأغنياء فينفقون الكثير من أموالهم لحماية أشخاصهم وممتلكاتهم . وعندما يحدث الفقر ألوانا من السلوك السيء والكلمات البذيئه يتعلم أبناء الاغنياء من أبناء الفقراء هذا السلوك وهذه الكلمات حتى حين يحجبون عن الإختلاط بالفقراء . بل هذا الحجاب نفسه يؤذيهم أكثر مما ينفعهم . وإذا كانت الفتيات الفقيرات يجدن ، كما هى الحال ، أنهن يحصلن من النقود بالرذيلة أكثر مما يحصلن عليه من العمل الشريف ، فإنهن يسممن أجسام الشباب الأثرياء الذين ، حين يتزوجون ، ينقلون عدوى الأمراض التى وقعوا فيها بالزنا إلى زوجاتهم وأولادهم فيحدثون لهم الأوجاع بل أحيانا العمى والموت . وما كان يقال بأن كل إنسان يمكنه « أن يبقى بعيدا » عما يحدث حوله حتى لايمسه شىء مما يقع بجيرانه أو حتى بأولئك الذين ينأون عنه بنحو مائة ميل ، هذا القول خطأ بل خطأ عظيم .

فإننا حين نقول بأننا أعضاء مشتبكون فى مجتمع فإن قولنا هذا ليس مجرد كلمات يقولها الصالحون فى الكنائس . هو حقيقة واقعة . لأنه إذا كان يمكن الأغنياء أن يتجنبوا السكنى مع الفقراء فإنهم لايستطيعون الفرار من الموت معهم حين يفشو وباء .

« ثم علينا أن نذكر أنه مادام الفقر مقيما بيننا فإننا لن نضمن لأنفسنا إلا نقع نحن فيه . لأن الحفرة التى نحفرها لغيرنا قد نقع فيها . وإذا تركنا هاوية غير مسيجة فقد يقع فيها أطفالنا عندما يلعبون . وكثيرا مانرى لذلك العائلات المحترمة البريئة تقع فى حفرة الفقر . وليس هناك ما يكفل لنا ألا نقع نحن فيها أيضا .

« ولذلك يجب أن نشرط شرطا محتوما فى التوزيع السليم للثروة بأن يحصل كل فرد فى الشعب على مقدار منها يكفيه شر الفقر . . . إن ما كابدناه من آثار الفقر المريعة ، فى الفقراء والأثرياء معا ، يجب أن يحملنا على ألا نجيز لأحد بأن يكون فقيرا . ويجب ، ونحن نقتسم الثروة يوما بعد يوم (فى المعاملات والضرائب) أن نترك لكل إنسان مايكفيه رخاء وكرامة .

« ولكن إذا كنا نقول بأنه لايجوز لنا أن نترك أحدا فى فقر فإنه يجب أن نسأل أيضا هل يجب أن نترك أحدا فى ثراء ؟ هل نجيز الإسراف والترف بعد أن ننتهى من إلغاء الفقر ؟ إنك تستطيع أن

تعرف الفقر وتجده حين تجوع المرأة ، وتلبس الملابس المهلهلة ، أو حين لايكون فى مسكنها غرفة مؤثثة بالأثاث اللائق كى تنام هانئة فيها ، أو حين تجد أحد الأحياء فى المدينة تنخفض فيها سن الموت إلى ما دون السبعين بسنوات كثيرة ، أو حين ينخفض وزن الأطفال إلى مادون الوزن فى أطفال الأثرياء الذين يجدون العناية والغذاء . ولكنك لاتستطيع أن تعرف وتجد الآثار السيئة للثراء فى الأغنياء بمثل السهولة التى تجد بها الآثار السيئة للفقر فى الفقراء . و أولئك الذين يختلطون بالأثرياء يجدون هذه الآثار السيئة واضحة كل الوضوح . فهم يشكون على الدوام سوء الصحة ولذلك لايكفون عن الجرى وراء الأدوية والعمليات الجراحية المختلفة . وهم حين لايكونون مرضى يخال لهم أنهم مرضى . وهم فى قلق على ثرواتهم وعلى خدمهم وعلى أقاربهم وعلى إستغلال أموالهم وعلى المحافظة على مقامهم الاجتماعى . وحين يكون لهم أبناء عديدون ، يقلقون لأنهم لن يتركوا لكل منهم ثروة تعادل ثروة أبويهم حتى يعيشوا بعد وفاتهما كما كانوا يعيشون قبلها . . . ثم هما يتركان لأبنائهم عاداتهما الباهظة بتكاليفها وأصدقاءهم الأثرياء وديونهما . ولا يكادان يتركان شيئا آخر . وعندئذ تتفاقم حال الأبناء تنتقل إلى الأحفاد . وهذا هو السبب فيما نرى من رجال ونساء يعشن فى تعب وقلق لأن دخولهم دون نفقاتهم . ولذلك تزيد تعاستهم على تعاسة الفقراء » .

« إننا نتخلص ، عندما نلغى الفقر ، من جميع ألوان الشقاء الذى يحدثه . وكثيراً ما يلجأ الفقراء ، للتخلص من آثار الفقر ، إلى السعادة المصنوعة كما يلجأ المنتظر لعملية جراحية إلى تبنيج عقله وإحساسه . إذ كلاهما لا يستطيع مواجهة الالآم . والكئول الذى يلجأ إليه ملايين الفقراء يمنحهم سعادة مصنوعة ، وشجاعة مصنوعة ، وسروراً مصنوعاً ، حتى يتحملوا حياتهم التى لا تطاق فى واقعها . والكئول (أى الخمور) هو لذلك نعمة يحرصون عليها »

* * *

« . . . ولكن الفقراء ، عندما لا يتألمون من الجوع الممض أو البرد القارس ، ليسوا أقل سعادة من الأغنياء . بل فى كثير من الأحوال يكونون أسعد منهم . ويسهل عليك أن تجد ناساً قد بلغوا الستين فزادت ثروتهم إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه وهم فى العشرين . ولكن ليس فيهم واحد يستطيع أن يقول لك أن سعادته زادت عشرة اضعاف ما كانت عليه. وجميع المفكرين منهم سيقولون لك أن السعادة لا تتوقف على مقدار النقود . فإن النقود تستطيع أن تعالج الجوع ولكنها لن تعالج الشقاء . والطعام يمكنه أن يشبع البطن ولكنه لن يشبع النفس . وقد كان الزعيم الألمانى الاشتراكى فرديناند لاسال يقول إن أعظم ما يكربه حين يحاول إنهاض الفقراء إلى الثورة على الفقر هو أن الفقراء

أنفسهم لا يرغبون فى الغاء فقرهم . وليس معنى هذا أنهم راضون . وإنما معناه أنهم ليسوا من السخط على حالهم بحيث يطلبون تغييرها ، لقد أذهلهم الفقر وخدرهم .

***

لقد نقلت قليلا ، بل قليلا جداً مما كتبه برنارد شو عن الفقر . فإن مؤلفاته الخمسين أو الستين لا يخلو واحد منها من هذا الموضوع .

والفقر ، مثل الغنى ، لازمة من لوازم النظام الإقتصادى الإنفرادى الذى يدعو إلى التفوق بالمباراة ، أى يدعونى إلى أن اسبقك فى جمع الثروة وإلى أن أتركك متخلفاً فقيراً . ومن هنا مذهب الاشتراكية الذى اعتنقه برنارد شو منذ شبابه إذ هو مذهب المساواة وليس التفوق، وهو التعاون وليس المباراة .

وقد ارتضت الأديان وجود الفقر وعالجته بالصدقة . ولكن الحكومات المتمدنة تعاقب الفقير المتسول الذى يمد يده للصدقة . وهذا اعتراف منها بأن الفقر جريمة . ولكنها لم تضرب على هذه الجريمة فى أصلها . لأن مثل هذا العمل يقتضى الإيمان بالنظام الاشتراكى وتطبيقه .

ويدعو شو إلى المساواة فى الدخل كل منا يحصل من الدولة على دخل قدره ٥٠٠ أو ألف جنيه كل عام بصرف النظر عن ماهية عمله . وقد ترد هنا على هذا الاقتراح بأن هذه المساواة تمنع الرغبة فى التفوق

وبذل الجهد . ولكن مساوىء التفوق لا تحصى كما قدر أينا إذ هى تفرض الفقر الفاحش والثراء الفاحش . وكلاهما ضرر . كما أن الإسراف فى بذل الجهد يتلف صحة الجاهدين من الأثرياء .

ومع أن شو كان من الداعين إلى التدرج عن طريق الجمعية الفابية الاشتراكية فى لندن فإنه ، وهو فى الحلقة الثامنة من عمره ، أصبح من المعجبين بالنظام الاشتراكى فى روسيا . ولما زار سدنى ويب دول الاتحاد السوفيتى ألف كتابا بعنوان « دولة الاتحاد السوفيتى : حضارة جديدة » . وقرأ برنارد شو هذا الكتاب فى تجارب الطبع .

ولما مات وجدت صورة لنين على سريره .

وبكلمة أخرى بدأ شو اشتراكياً متدرجاً وانتهى شيوعياً ثورياً .

أوائل درامات شو

برنارد شو كاتب مسرحي قبل أن يكون أى شى آخر . وقد جعل المسرح ميدانا للبحوث الفلسفية والمناقشات الاجتماعية . ويبدو من تجاربة الأدبية الأولى أنه لم يكن يهدف إلى هذه الغاية التى أرصد لها حياته أو ستين سنة من حياته . ذلك أنه بدأ تجاربه بتأليف القصص التى لم يفلح فيها . ولكنه بعد ذلك اشتغل بالنقد المسرحى فبرزت ميزاته ولفتت إليه أنظار المؤلفين والناقدين .

وفى هذه الأثناء عرف هنريك إبسن . وكان هذا المؤلف المجدد فى المسرح الأوربى كشفا عظيما له . وقد تعلم منه شو درسا لم ينسه طيلة عمره هو أن الدرامة يجب أن تكون للتنوير الاجتماعى الفلسفى وأن ترشد المتفرجين كما لو كانوا فى جامعة يتعلمون ويسترشدون .

وبدأ مؤلفاته المسرحية بدرامة عنوانها « حرفة المسز وارين » . وذلك فى ١٨٩٤ . وأكاد أقول أن جميع مؤلفات أو درامات برنارد شو بعد ذلك إلى ١٩٥٠ حين مات لم تخرج عن موضوع هذه الدرامة وأعنى صميم الموضوع وهو الفقر . فقد عاش عمره كله وهو

يرى حقيقة بارزة هى أن الفقر أصل لجميع الرذائل فى الدنيا ، للجهل ، والمرض ، والإجرام ، والخسة ، والبغاء ، والجبن ، والهوان ، وسائر الرذائل .

وهذه الدرامة الأولى تبرز نتائج الفقر فى أعظم مخازية وهو البغاء أو بالأحرى الاتجار بالبغاء . وقد منع الرقيب فى لندن تمثيل هذه الدرامة بضع سنوات بدعوى أنها تتحدى الحياء العام وتفشى أشياء أصطلح الناس على إخفائها . ولكنه عاد فأجاز تمثيلها .

ونحن نجد فى هذه الدرامة أثر إبسن فى أسلوب المناقشة والوضع المسرحى للشلين . وهذا غير المشابهة فى إختيار الموضوع . وهو موضوع إجتماعى . وهذه الدرامة تمثل لنا إسلوب شو فى التأليف المسرحى . وهو أسلوب لم يتغير فى نحو ستين سنة .

أشخاص الدرامة يتحدثون . ومن حديثهم نستنبط ماضيهم وما وقع لهم من أحداث إنتهت بالموقف الحاضر على المسرح . وهذه هى طريقة إبسن . والحركة فى كل من إبسن وشو ، قليلة تكاد تكون معدومة على المسرح . ولكننا نستمع إلى حوار ذكى نفهم منه حياة الأشخاص التى تنتهى إلى الأزمة أو إلى الذروة وتتضح لنا مشكلة عميقة فى الاجتماع يجرى الحوار بشأنها كى نصل إلى حل لها أو إلى شعاع يشير إلى الحل .

نحن فى بيت ريفى هو كوخ أنيق فى حديقة يحيط بها سياج . وقد قعدت آنسة رشيقة على كرسى أمام الكوخ على العشب . وإذا بأحد يستأذن فى الدخول ويسأل إذا كان هنا منزل المسز وارينز . وتجيبه الفتاة بالإيجاب وتفتح له الباب . فيدخل .

ونفهم من الأحاديث الأبتدائية أن الفتاة ، الآنسة فيفيان ، كانت طالبة فى الجامعة وأنها تخرجت بإمتياز . وإنها أبنة المسز وارينز صاحبة الكوخ . ونفهم أن القادم شاب مهندس يدعى المستر برايد .

وبعد قليل تأتى المسز وارينز يرافقها السير كروفتس . وكلاهما فى الكهولة ولكن صحتهما توهم الشباب . وبين الفتاة ، الآنسة فيفيان ، والأم ، المسز وارينز ، كلفة بعيدة عن الألفة التى تربط بين الأم وأبنتها . وليس هذا غريبا إذا عرفنا أن الفتاة أمضت عمرها الماضى كله تقريبا بعيدة عن أمها إذ كانت هذه الأم فى أكثر أوقاتها أو كلها خارج إنجلترا فى بروكسيل أو أوستند أو بودابست لأسباب لاندريها .

ويدخل البيت زائر جديد هو المستر فرانك إبن القسيس جاردنر . وهو شاب وسيم تلتفت إليه الآنسة فيفيان فى حب وإعجاب .

ومع أن الأحاديث تجرى بين الجميع فى إنطلاق ومداعبة فإننا نحس أن الجو مثقل بالأسرار . وأن الآنسة فيفيان تكتم هذه الأسرار أو هى تشتبه فيها تحب أن تسأل وتتعرف ولكنها تتراجع وتتحفظ .

ثم يزيد الضيوف واحدا هو القسيس جاردنر والد الشاب الوسيم فرانك ولا نكاد نعرف شيئا من الفصل الأول سوى أن القسيس قد طلب إليه أن يستضيف إلى منزله بعض الضيوف لأن الكوخ ليس مجهزا لقضاء ليلتهم . فهم يتركون الكوخ ويقصدون إلى منزله .

ثم تتكشف الأسرار وكأنها كانت خيوطا قد التبست واشتبكت ثم أعيد تنسيقها وترتيبها .

الآنسة فيفيان الجامعية الأنيفة الجميلة هي أبنة المسز وارينز . ولكنها لاتعرف لها أبا . فهي تسأل أمها عنه . ثم هي تجد ثراء ضخما تتقلب فيه أمها ولا تعرف مأتاه . فتسأل أيضا عنه . ثم تتأمل السير كروفتس فتجد فيه رجلا دوارا من تلك الحيوانات التى تحيي فى الليل وتنام فى النهار وتفتأ تجرى وراء الشهوات . وهو يتحدث إلى أمها فى ألفة وتفاهم كما لو كانا زوجين .

وتسأل فيفيان أمها : أين أبوها ؟ ومن أين تعيش وتنفق ؟ وهى تبدى لها شكوكها وشبهاتها .

ولكن المسز وارينز ، على الرغم من خسة الحرفة التى تحترفها ، لاتزال على شىء كبير من الشجاعة . وهى تهدد إبنتها بقطع معونتها عنها وتطلب إليها أن تتزوج السير كروفتس الذى أبدى إعجابه بها .

ولكن الفتاة ترفض ، فى إباء ، هذا العرض . وتعود فتلح على أمها

فى السؤال عن ثرائها كيف جمعته ؟ وهل هذا السير كروفتس كان شريكا لها ؟

وتحرج الأم وتعترف بالاسلوب الذى جمعت به ثراءها الملوث .

إنها تدير أربعة « فنادق » فى بعض المدن الأوربية . وكلمة « فنادق » هنا تتحمل معانى اخرى . إذ أن المسز وارينز تزودها بالفتيات الجميلات من إنجلترا حيث يقدمن إلى الزبائن لهذه الفنادق خدمات أخرى غير مايفهمه المترددون من الزائرين العابرين الذين لايطلبون غير المأوى. وتعرف فيفيان أن هذا الثراء الذى تتمتع به أمها إنما جاء عن طريق الاتجار بالرقيق الأبيض .

وتصطدم الأم بالبنت .

وتدافع الأم عن موقفها أى عن حياتها الماضية . وتقص على إبنتها تلك الدوافع التى دفعتها إلى طريق العار هذا . ونجد برنارد شو هنا فى موقف الهجوم الذى يقفه فى معظم دراماته . وهو أن المجتمع الحاضر يؤدى إلى فقر الكثير من أبنائه وأن هذا الفقر هو علة جميع الرذائل ومنها هذا الإتجار بالرقيق الأبيض الذى تمارسه المسز وارينز التى تقص على إبنتها قصتها .

لقد ولدت فى فقر ورأت أقاربها يموتون فى الفقر والجوع والمرض . وقد عملت هى وأقاربها هؤلاء فى بعض الأعمال الوضيعة التى كانت

تطالبهم بمجهود ١٢ ساعة فى اليوم مع أجر لايزيد على بضع شلنات كل أسبوع . وكانت هذه الأعمال مع إيذائها للصحة وحرمانها للراحة « شريفة » .

ولكن أختها ليزا رفضت هذا الشرف ومارست عملا محرما . ولكنه مكسب . يعود على الفتيات اللائى يمارسنه بالربح الكبير . وقيل أو أشيع أن هذه الأخت قد أنتحرت . ولكن الواقع أنها كانت قد أختفت فقط حتى لاتثير غضب أسرتها أو فضيحتها .

أما المسز وارينز فكانت ، وهى فتاة ، قد إحترفت عملا فى حانة ليس شريفا كل الشرف ولكنه بعيد عما إنحدرت إليه أختها . وذات يوم وهى إلى « البار » تناول الشاربين كئوسهم المترعة بالخمور إذا بأختها ليزا تدخل لتناول كاس من الوسكى وهى فى أبهة من الجمال واللباس والفخامة .

وتلاقت الأختان . وجرى الحديث بينهما . ثم استؤنف . وأنتهت المسز وارينز إلى الأخذ بطريقة أختها فى الحياة . وإنهالت عليها بعد ذلك الأرباح التى أمكنتها من أن تحي حياة المترفين وأن تعلم إبنتها فى جامعة . وهى تذكر فضل السير كروفتس الذى ساهم فى أعمالها بأربعين ألف جنيه .

أربعون ألف جنيه كان يحصل هو منها على ربح سنوى قدره

٣٥ فى المائة . وكانت هذه الأعمال لا تزيد ولا تنقص عن البغاء أى أى الاتجار بالرقيق الأبيض فى تلك « الفنادق » المزعومة فى مدن أوربا .

وتعرف فيفيان هذه الحقائق وتسمع دفاع أمها عن سلوكها وتعرف أنه لولا هذه الحرفة الساقطة لمااستطاعت امها أن ترسلها إلى الجامعة . ولكنها تسأل ، من أبوها ؟ .

وتراوغ الأم فى الاجابة . ولكن فرانك الشاب الوسيم يتحبب إلى فيفيان التى تستجيب لحبه وتلاطفه فى رقة ولطف . وتجد الأم هذه العلاقة بين ابنتها وابن القسيس فتنكرها وتدعو ابنتها إلى الزواج من السير كروفتس شريكها فى البغاء . ولكن فيفيان ترفض وتصر على حبها لفرانك ابن القسيس .

ويدخل القسيس فتخبره المسز وارينز بأن ابنتها تحب ابنه وأنهما يسعيان لعقد الزواج . ويرتاع القسيس . وتتحداه المسز وارينز وكأنها تتحدى رياءه بل تتحدى الأخلاق العامة التى تجرى فى الظلام بغير ماتبدو به فى النور أمام الناس . وتتابع الأحاديث فنفهم أن فيفيان هى ابنة القسيس الذى كان فى بعض صبراته ، قد أحب المسز وارينز وأعقب منها هذه الفتاة بالزنا .

ففيفيان وفرانك أخوان . ولكنهما لا يعرفان ذلك .

وأخيراً وبعد هذه الإرتباكات تعترف المسز وارينز بكل شيء وتبوح لابنتها بأن أباها هو القسيس .

وفى غفلة من الجميع تفر فيفيان إلى لندن حيث تعمل فى أحد المكاتب بأجر شهرى متواضع . وتحس أنها قد نجت بنفسها من هذا الوسط الموبوء وأنها ستستقل وتعمل وتحيي حياتها كما تحب .

ولكن ما هى العبرة التى أراد برنارد شو إبرازها ؟

نجد العبرة على لسان السير كروفتس الذى يطلب يد فيفيان فتأبى عليه لأنه رجل قد سمط شرفه بالاشتراك مع أمها فى إدارة « فنادق » للدعارة . فهى تقول له :

« كانت أمى فقيرة قد حطمها الفقر فلم يكن أمامها سوى هذا السلوك الساقط . ولكنك أنت كنت رجلا ثريا فسلكت سلوكها كى تربح ٣٥ فى المائة . ولذلك أعدك وغداً من الأوغاد . وهذا رأيى فيك »

ويرد عليها السير كروفتس رد العارف بشئون المجتمع الساخر بنفاق الناس . فيقول : « قولى ما تشائين ياآنسة . فإنك تسلين نفسك ولا تؤذيننى . ولماذا لا أستغل أموالى بهذه الطريقة ؟ فأنا أحصل على الفائدة من أموالى كما يفعل غيرى . وأرجو ألا تعتقدى أنى ألوث يدىّ بالعمل الذى تستغل فيه أموالى . وأظن أنك لن ترفضى التعرف إلى ابن عمى الدوق بلجرافيا لأنه يجمع الايجارات من ممتلكاته التى تستعمل فى اغراض غير مألوفة . ولن تقاطعى أسقف كانتربرى لأن الخمارين وغيرهم من الخطاة يسكنون فى عقاراته ويؤدون له الإيجارات

غنها . وهل تعرفين الجائزة السنويّة ، جائزة كروفتس ، فى كلية نيونهام ؟ إن الذى وقفها على الكلية شقيق عضو البرلمان . وهو يحصل على ربح قدره ٢٢ فى المائة من المصنع الذى تعمل فيه ٦٠٠ فتاة ليست منهن واحدة تحصل على أجر يكفى قوتها . وكيف تعيش هؤلاء الفتيات إذا لم تكن لهن عائلات يعتمدن عليهن ؟ إسألى أمك . وهل تنتظرين منى أن أولى ظهرى لربح يبلغ ٣٥ فى المائة فى حين يجمع غيرى المئات والألوف كما يفعل العقلاء ؟ لا . لست أبله إلى هذا الحد . وإذا كنت أنت تنوين إختيار الأصدقاء والمعارف على أساس من المبادىء الأخلاقية فخيرلك أن ترحلى عن هذه البلاد إلا إذا كنت قد قررت الانفصال من المجتمع الراقى »

وترد فيفيان عليه وكأن ضميرها قد نخسها : « وأنك لتستطيع أن ترد على بأنى أنا نفسى لم أسأل : من أين جاءت النقود التى كنت أنفقها . واعتقادى أنى أنا وأنت سواء فى الرذيلة »

فيجيب السير كروفتس بعد أن اطمأن : « ليس شك أنك كذلك . وهذا حسن . وأى ضرر فى هذا ؟ (ويتابع حديثه فى بهجة مازحة) والآن وبعد أن فكرت هل تعدينى وغداً من الأوغاد . أليس كذلك ؟ »

فيفيان : « لقد اقتسمت الأرباح معك . وأوضحت لك عن رأيى فيك »

كروفتس (فى لهجة الصداقة) : « هذا صحيح . ولن تظنى بى سوءاً . ولأصرح لك بأنى لست أتعالى بالذكاء ولكنى على شىء كبير من الإحساس الإنسانى وأسرتنا جميعها تكره الخسة وهذاما أعتقد أنك تعطفين على بشأنه . صدقينى يافيفيان إن الدنيا ليست من السوء كما يزعم الساخطون عليها . وما دام أحدنا لا يتحدى المجتمع فإن المجتمع لا يسألنا سؤالا تربكنا الإجابة عليه . وفى هذا التسامح يقضى على السفلة من السائلين المربكين لنا . وليس هناك من الأسرار ما يبقى فى الخفاء مثل تلك الأسرار التى هى موضوع ظنوننا وشبهاتنا . وثقى أننا عندما نتزوج فإن الطبقة التى أقدمك لها لن تجرؤ سيدةأوسيدمنهاعلىأن ينسىأ حدهما نفسه حتى يتحدث معك عن أعمالى أو أعمال امك المالية . وعلى ذلك لن تجدى من يستطيع أن يكسبك الطمأنينة والأمن مثلى »

فيفيان (وهى تدرس وجهه ونفسه) « أظن أنك تعتقد أنك بحديثك هذا قد أقنعتنى وأرضيتنى »

كروفتس « بعد هذا الذى قلت أظن أن لى الحق فى أن أرضى عن نفسى وأن أقول إنك تحسنين بى الظن الآن أكثر من قبل »

فيفيان (فى هدوء) « لا أجد أنك جدير بأن أفكر فيك .... وعندما أفكر فى المجتمع لذى يتسامح فى وجودك ، وفى القوانين التى تحميك ، وفى الفتيات التسع أو العشر اللائى يؤدى عجزهن إلى

الوقوع بين يديك أو بين يدى أمى ، هذه المرأة التى يتعفن اسمها مع الذى يمولها .

كروفتس (فى غيظ) : لعنة الله عليك .

وينتقم كروفتس منها بأن يقول لها قبل أن يغادرها : « سأقول لك شيئا قبل أن أذهب . ولعلك تهتمين بهذا الشيء مادمت تغرمين به كما يغرم بك . إن المستر فرانك هو أخوك أو هو نصف أخ من الأب القسيس جاردنر . هو أخوك يا فيفيان » . ويخرج .

ولم يعد فى الدرامة سوى اللمسات الأخيرة . فإن الحب الذى كان بين فيفيان وفرانك ، وكان على وشك أن يؤدى إلى الزواج قد انتهى أمره . وأصبحا صديقين بعد أن كانا محبين . وتنتهى فيفيان إلى مقاطعة أمها وإلى السفر إلى لندن حيث تعمل بكد ذهنها وعرق جبينها لأن تعيش مستقلة .

والقارىء هنا يحس مضضا من هذه الدرامة التى يحاول فيها المؤلف أن يقنعنا بأن الفساد المختفى فى المجتمع لا يجد من يفشيه بل يجد الإحترام . أليس كروفتس قد حاز على لقب سير ؟ وأليس هو على حق بأنه ليس هناك من يسأله : من أين جمعت أموالك ؟ وأليست المسز وارين محترمة مرفهة مترفة ؟ وإنها لولا ماجمعته من البغايا لما استطاعت تربية إبنتها فى جامعة ؟ بل أليس من الحق أيضاً إن أصحاب الحانات

والمتاجر الأخرى يستخدمن الفتيات الوسيمات لجلب الزبائن ؟

وما سبب هذا الفساد كله ؟ ما الذى يغرى عليه ؟ السبب هو : الفقر ثم الفقر ثم الفقر .

التربية محببة التعلم

المفكر العظيم هو الذى يبقى طيلة عمره طالبا يدرس ويواصل الجديد فى الثقافة ويلم بالكشوف الجديدة فى العلم ، ولذلك ليس هناك مفكر لاتشغله مشكلة التربية : كيف يربى نفسه ؟ وماذا يختار ؟ وما هى الثقافة الأصلية التى يحتاج إليها فى حياته وينضج بها ذهنه ؟ وما هو الفرق بين التعليم والتربية ؟

كل هذه مشكلات قائمة بل بارزة فى أذهان المفكرين ولست تجد واحدا منهم إلا وله فيها رأى بل آراء ، إذ هى تمس شخصه فى إرتقائه الذهنى كما تمس الشعب بل البشرية التى ينتمى إليها .

أن برتراند رسل الفيلسوف الانجليزى قد أسس مدرسة وعلم فيها فى بعض سنى حياته . وألف كتابا عن « التربية » .

و هـ . ج . ويلز الأدب الإنجليزى الذى مات قبل سنوات قد ألف كتابا عن مدرسة ساندرسون التى أختطت خططا جديدة وجعلت التربية منهجها بدلا من التعليم . بل إن معظم مؤلفات ويلز تنحو إلى التوجيه فى التربية الشخصية والشعبية والعالمية .. وهو لم يؤلف كتابه

العظيم عن تاريخ العالم إلا وهو يسترشد بفكرة التربية لقرائه بل التربية الإنسانية حتى يخرج هذا القارىء من حدود الوطنية إلى رحابة العالمية . وقصصه هى مشروعات للتربية .

ومازلت أذكر وصف هـ . ج ويلز للسياسى المشهور جلادستون بأنه رجل ناقص التربية ، لأنه لم يكن يعرف العلوم ولم يستنر ذهنه بكشوفه فى أصل الإنسان وسعة الكون وأسسه الإقتصادية ونحو ذلك . وهذا على الرغم من أنه كان يقرأ اللغتين القديمتين الإغريقية واللاتينية .

لقد كان العلم والتاريخ مصباحين استرشد بهما ويلز فى التوجيه البشرى وألف عنهما كثيرا ، بل اكاد أقول أنه لم يؤلف غيرهما لأن قصصه نفسها تنزع إلى هذا التوجيه . وكانت دراسة التاريخ عنده وسيلة إلى الوحدة البشرية التى تسمو على الإختلافات المذهبية واللونية والجغرافية : لغة واحدة وعالم واحد . بل إنه ليسمى هذا العالم « قريتنا الكبرى » . ولما قارب الموت كان أعظم ما تعذب به تلك القنبلة الذرية التى حطمت أحلامه وجعلته يحس الخطر منها فى إنقراض الحضارة والإنسان ، مع إنى أعتقد أن لهذه القنبلة وجها آخر هو تعميم السلم وتعمير الدنيا وإلغاء الحرب .

ذلك لأن خطرها أكبر من أن يتيح لإحدى الدول التفكير فى الحرب التى قد تقضى عليها كما تقضى على العدو ، ثم تنتشر كالوباء المميت إلى سائر انحاء هذا الكوكب .

وقدد أب ويلز في شرح الدلالات الجديدة من العلوم . وكان على الدوام يوضح لنا التخلف فى العلوم الاجتماعية عن العلوم المادية وما يحمل هذا التخلف من أخطار فادحة للبشر . فإن المجتمعات القديمة والأخلاق القديمة التى تحمل أعباء من الأساطير والعادات والامتيازات والاحتكارات لا ترتفع إلى ما سما إليه العلم من إبتكار للقوات الجديدة التى قد تعمر الدنيا وتحيلها إلى جنة أو تدمرها وتحيلها إلى جهنم .

ومصداق هذه الأقوال يتضح فى أيامنا عندما نتأمل السياسة ، فإن مشكلة السويس لم يكن فيها ما يشكل أقل الأشكال لو أن الساسة الاوربيين كانوا على شيء من التربية . فقدأ وشكوا على أن يجروا العالم إلى حرب عامة لأنهم ، كما كان يمكن لويلز أن يقول ، يجهلون التاريخ وإنسانيته والوحدة البشرية فيه ، كما يجهلون العلم وقواته للتعمير والتدمير .

لقد تعلم هؤلاء الساسة الاوربيون فى المدرسة والجامعة . ولكنهم يتربوا ولم تحس نفوسهم إحساس الإنسانية .

والتعليم هو مهمة المدرسة والجامعة ، ولكن التربية هى مهمة العمر كله . وتربية بلا تعليم خير ألف مرة بل مليون مرة ، من تعليم بلا تربية . وحسبنا برهانا أن أحد خريجى كلية الحقوق فى القاهرة ألف فى الشهر الماضى كتابا يخبرنا فيه عن العفاريت والجن والشياطين

كيف تتزاوج وكيف تتوالد ولماذا يزيد عددها على المصريين (من الانس).

التربية ثقافة ننشدها ونتحرى الصحيح منها وتغيرها ونتطور بها ونحيا على أصولها طيلة العمر، وهى تبدأ بعد الجامعة أو المدرسة، بل تبدأ قبلهما أو بدونهما، ولكن الجامعة والمدرسة لن تستطيعا تحمل عبء التربية إذ هما تعلمان فقط.

لقد كان برنارد شو حكيم العصر منذ نصف قرن، ومع ذلك لم يحصل من التعليم المدرسى على أكثر من مستوى السنة الثالثة الابتدائية. وإنما وصل إلى الحكمة لأنه اعتمد على «التربية الذاتية». فاختار من الكتب ومارس من الأعمال الأدبية والفلسفية ما أنضج به ذهنه وقدس به حياته. فكان فى تفكيره وسلوكه مثالا للثقافة العالية حتى ارتفع فى أخلاقه إلى القيم العالية فى الإنسانية والفن وفهم الدلالات فى شئون هذا العالم.

أجل. يجب ألا نقتصر على الفهم إذ علينا أن نرتفع إلى الدلالة. فإن أبلد البلداء يمكنه أن يفهم ولكنه يعجز عن الوصول إلى الدلالة فيما يفهم.

ما هى دلالة مشكلة قناة السويس فى سياسة العالم؟

ماهى دلالة كتاب العفاريت فى برنامج التعليم فى كلية الحقوق وأيضاً

فى المجتمع المصرى الحاضر ؟ إن المفكرين الناضجين يضعون أصبعهم على الدلالة .

لقد كتب برنارد شو كثيراً عن التربية وكانت علامة الإستفهام البارزة فى حياته هى هذا السؤال وهل ربيت نفسى ؟ هل الدولة تربى الشعب

وقد خلص من تأمله لهذا الموضوع إلى أن الأقدار قد حابته لأنه لم يتعلم فى مدرسة أو جامعة وإنما علم نفسه . وذلك لأنه كان يدرس بعد الاختيار . وكان يختار وفق حاجاته الذهنية كما يختار الجائع الطعام الذى تشتهيه نفسه . ولكن المدرسة أو الجامعة تعطينا أحيانا ما لا نشتهيه ، ولذلك قد نعجز عن هضمه .

وهناك بالطبع مواد من المعارف نحتاج إلى أن نتعلمها بالإغراء أو الإجبار مثل القراءة والحساب والجغرافيا وأمثال ذلك من المعلومات التى لا نستطيع أن نقرأ جريدة أو نتحدث فى فهم أو نرتقى إلى المستويات العليا من الثقافة بدونها . ثم هناك معارف أخرى يجب أن يعرفها كل شاب أو فتاة إجبارا مثل تلك التى تتصل بالصحة الجنسية وصلاح الرجل أو المرأة فى التناسل والأمراض الوراثية التى تؤذى الأجنة وتعقب العاهات وكذلك الأمراض الزهرية التى تنتقل عدواها إلى الأبناء . ولكن إجبار التلميذ على حفظ الأدب أو الشعر أو الفنون ، التى قد لا يكون هو أهلا لأن يفهمها ، هو إضاعة للوقت والجهد . كما أن

هناك من الشئون الثقافية ما لا يجوز أن تعلمه المدرسه أو الجامعة مثل العقائد أو الأخلاق إلا إذا جعلت هذا التعليم خاضعا للمناقشة والمناقضة من جانب التلاميذ . وذلك لأن هذه العقائد والأخلاق لم تكن قط ثابتة عند أية أمة وإنما كانت فى تغيير دائم والأمة المتطورة يجب أن تكون مستعدة على الدوام للتغيير والتحسين فى عاداتها الذهنية أى العقائد والأخلاق الموروثة أو ما نسميه تقاليد . بل إنه ليصرح فى أسلوبه المسرف بأن الأمة الراقية يجب أن تنقح دينها مرة على الأقل كل عام .

ويحمل برنارد شو على التعليم المدرسى والجامعى بأنه لا يتقدم على المجتمع ولكنه يتأخر عنه . ويضرب المثل بتعليم اللغة اللاتينية إلى وقت قريب فى جامعة أكسفورد وإلى تأخر العلوم العصرية فيها ، بل هناك ما هو أكثر من ذلك فى جمود المدارس والجامعات . ذلك أنها ، لانتمائها إلى الحكومات واعتمادها على الحصول على اموالها منها ، ترفض ذكر الاحرار الذين قاموا بالثورات . فإن وشنطن الذى حرر أمريكا من الاستعمار البريطانى ، وكذلك توم بين داعية الثورة على العرش البريطانى ، بل كذلك فولتير وروسو ، كانوا مبعدين لا تذكرهم كلية فى جامعة لأنهم كانوا ضد الدولة أو كانو فى رأى اساتذتها ملحدين أعداء للبشر والدين .

ويقول هنا برنارد شو : « إذا كنا سنعلم الصبيان أشياء تتجاوز

بجرد القراءة والكتابة فيجب علينا أن نعلمهم علم الفلك العصرى منذ كوبيرنيكوس ، وكذلك الفيزياء الاليكترونية ، ونظرية التطور . وليس من الحكمة أن نقود الصبي فى الساعة العاشرة فى الصباح إلى حصة ما كى يقول له القسيس إن الأرض مسطحة وثابتة لا تتحرك وإن السماء سقف فوقها حيث توجد جنة مؤثثة كما لو كانت قصرا ملوكيا . ثم فى الساعة الحادية عشرة نقوده إلى حصة أخرى حيث يقول معلم الفيزياء أن الأرض كرة تدورحول نفسها على محورها وإنها تدور حول الشمس فى فضاء لا نهاية له وإن هناك الوفا من الأجسام مثل الأرض تفعل مثل ذلك . وليس كذلك من العقل أن نلقن الصبيان فى حصة الدين أن جميع الأحياء باشكالها المختلفة قد خلقت فى ستة أيام . وأن من هذه الأحياء إمرأة كاملة صيغت من ضلع رجل . فإذا دقت الساعة لحصة أخرى تناولنا الصبيان بالشرح لملايين السنين التى انقضت فى تجارب لإيجاد أشكال عديدة من الأحياء من العمالقة الضخمة إلى أحياء صغيرة لا تراها العين . وهى تجارب إنتهت إلى شكل مركب لا نستطيع بأية حال أن نقول أنه حسن ، هو المرأة » .

وفى هذه الكلمات التى نقلناها من كتاب « مرشد المرأة إلى الاشتراكية والرأسمالية » يحاول برناردشو أن يبين التناقض بين الثقافة القديمة التى لاتزال حية فى المدارس إلى جنب الثقافة الجديدة

التى تصطدم بها وما يعقبه هذا الاصطدام من بلبلة فى عقول الصبيان والشباب تحول دون الفهم الصحيح .

ويزيد برنارد شو فى الشرح فيقول « إننا نعلم الجهل فى المدارس ، وإننا نجعل منها مستودعات لقاذورات القرون الماضية وللخرافات الهمجية ، بل إننا نعاقب من يدعو . إلى إلغائها » ومع إن كلماته هنا قاسية بل أحيانا فظة فإنها لاتستغرب منه إذ هو رجل جديد يدعو إلى دنيا جديدة . ويحاول أن يحقق هذه الدنيا بالتعليم . وهو يخلص من هذا إلى أن الرجل المثقف فى عصرنا إنما يصل إلى هدفه بمجهوده الشخصى وليس بالتعليم الجامعى . وهو بالطبع لاينكر قيمة الجامعات والمعاهد فى التعليم الفنى الذى يحتاج إلى المعامل والتجارب ، ولكن هنا تعليم للتخصص وليس ثقافة عامة تجعل المثقف حكيما مفكرا فى الحياة يستوعب المعارف ثم ينظمها فى ذهنه ويقارنها ويستنتج منها فهما للكون والإنسان وحكمة للعيش .

أين الدين فى التربية ؟

يجيب برنارد شو على هذا السؤال بأن رجلا بلا دين هو رجل بلا شرف .

والذى يجب ألا ننساه أن الثقافة مكفولة لكل من يطلبها فى أوربا بحيث يمكن الذين حرموا الجامعة أن يجدوا فى مئات وألوف الكتب

ما يربيهم ويساعدهم على تعيين القصد فى الحياة . فهل الحال كذلك مثلا عندنا ؟

أعتقد أن الثقافة الصحيحة ليست مكفولة بالمؤلفات فى مصر أو فى أى قطر عربى آخر ولكن بعضها مكفول . ومشروع ألف كتاب الذى تقوم به وزارة التربية فى الوقت الحاضر بغية نقل الكتب النافعة إلى لغتنا هو خطوة بل وثبة نحو الأمام ، نحو إيجاد ثقافة عصرية يستطيع عامة القراء أن يجدوا عن سبيلها التربية التى ينشدونها .

هذه الكتب ليست للتعليم إنما هى للتربية ، هى إنسانية ، هى دين ، يرشدنا إلى المستقبل .

ولكن هل الكتب هى كل ما يربينا وكل مايثقفنا ؟

إن التربية أكبر من الكتب . إذ هى أيضا إختبارات وتجارب حتى ليمكن الأمى الذكى أن يحصل على تربية عالية ولو لم يقرأ كتابا . وبالطبع كانت تربيته تكون أفضل وأعم وأسمى لو أنه كان يقرأ الكتب . ولكن هناك أفذاذا إختبروا الدنيا يعدون من أسمى الناس إنسانية وصلاحا مثل أكبر خان السلطان المسلم فى الهند . فإن هذا الأمى كان فيلسوفا بل فيلسوفا من الطراز العالى . وتجربته الدينية التى قصد منها إلى الأخاء البشرى ،لاتزال محل الاعجاب من جميع المفكرين حين أراد أن يستنبط دينا من الاديان الالهية الثلاثة . ولكن هؤلاء أفذاذ . والثقافه التى تهدف إلى التربية لاتزال تحتاج إلى الكتب .

ما هو القصد من الثقافة ، من التربية ؟

هو أن أستطيع الإجابة على هذا السؤال من أنا ؟ من أنا فى هذا الكون ؟

هو أن أبلغ يقظة الوعى الكونى بالفهم . هو أن أحيا الحياة الإنسانية وأن أحس ألفهم ليس للإنسان فقط بل للكون كله .

هو أن أزيد وعي للإنسان والكون .

هو أن أجد القصد فى الحياة .

ولذلك نقول أن التربية هى مهمة العمر .

فكرة السيبرمان عند شو

عندما أتأمل التفكير الفلسفى عند المفكرين الملهمين الذين أخصبوا الثقافة البشرية وبعثوا النمو فى براعمها وولدوا فيها ، أجد أنهم ، أى هؤلاء المفكرين ، أطفال يفكرون تفكير الأطفال ولكن على مستوى عال .

ذلك أن تفكير الأطفال يتسم بحرية مطلقة لاتعرف القيود الاجتماعية أو التحفظات العرفية حتى ليسألك الطفل حين تقول له « إن الله خلق العالم » أين الله ، أين مسكنه ؟ ماذا يلبس ؟ ونحو ذلك مما نتأفف منه ونمنعه عن المضى فى السؤال عنه .

والرجل المفكر يسأل مثل هذه الأسئلة ولكن على مستوى عال : كيف نشأ الكون ؟ ما هو أصل المادة ؟ ما هى نهاية الكون ؟ ماذا بعد الموت ؟ ما هو مستقبل الإنسان بعد مليون سنة ؟ ونحو ذلك

والرابطة بين الطفل الساذج والمفكر الناضج هى أن الإثنين يفكران فى حرية مطلقة . فالطفل حر لأنه لايعرف القيود الاجتماعية والمفكر حر لأنه يجد نفسه مضطرا إلى التخلص من هذه القيود كى يحسن التفكير .

وهذا هو ما نجد فى برنارد شو . طفل كبير يسأل أسئلة الأطفال

ويجيب عليها إجابة الفلاسفة . ومن قبله فعل مثل ذلك نيتشـــه .

كلاهما سأل عن السبرمان أى الإنسان العالى .

والفكرة فى الإنسان العالى نشأت فى ألمانيا منذ انتشى الألمان بحياة أديبهم وعالمهم وفيلسوفهم جوتيه . فقد عاش هذا العظيم نحو ثمانين سنة وهو يمارس أنواعا من النشاط العالى فى مختلف الثقافة يجمع بين الفن والعلم ، والشعر والسياسة ، والأدب والدين ، ويستنبط من كل هذه الأشياء حكمة للعيش وبصيرة لماضى الإنسان ومستقبله .

فلما مات أصبحت حياته أسطورة يقرأها الشباب ويتأملها الشيوخ ويعكسون تفاصيلها على مايلابسهم من ظروف وما يستجيبون له من أحداث . ويسألون عن ارتقائهم فى ضوء شخصيته ، وأصبح جوتيه الرجل المثالى .

وكان جوتيه السحر الذى سحر نيتشه . ولم يعد عنده الرجل المثالى فقط بل صار السبرمان (فوق الإنسان)

ودعا نيتشة خاصة المثقفين إلى أن يكون كل منهم سبرمانا يترفع عن الأخلاق العامة ويسن لنفسه أخلاقه الخاصة . فكان بذلك وجوديا يقول باستقلال الشخصية وبأن المجتمع يجب ألا يغرقنا فى عاداته وتقاليده وأخلاقه .

هذه هى الفكرة الأولى عن السبرمان عند نيتشه : فكرة وجودية

أساسها عظمة جوتيه الذى ارتفع فى حياته حتى كاد يكون إنسانا أعلى فوق الإنسان العادى.

ثم درس نيتشه فكرة التطور من داروين. فقال: كما أن الإنسان أعلى من القردة التى ينتسب إليها كذلك يجب أن يتطور البشر إلى السبرمان الذى يعلو على الإنسان.

ولكنه مع ذلك لم ينس جوتيه. بل لقد ذكر اسمه إلى جنب اسم داروين ورفعه فوقه أى فوق داروين.

لقد كان جوتيه حبه الأول: حبه الأعلى. ولكن منذ داروين أصبحت فكرة السبرمان هى الفكرة الإيجابية فى نظرية التطور. إذ عرفنا أن الأحياء على الأرض لايزيد عمرها على ٧٠٠ مليون سنة. بدأت حقيرة كالفيروس الذى لانستطيع أن ننظمه فى الجزيئات المادية أو فى عداد الخلايا الحية. فإنه يجمع بين خصائص الإثنتين. ثم «ترتقى» الأحياء إلى الخلايا المفردة، فالخلايا المشتركة فى جسم واحد، فالأحياء الكبيرة مثل القناديل، ثم تشرع خصائص الحياة العالية تظهر فى أعضاء الحواس ثم يتفرع الأحياء فرعين أحدهما نحو المفصليات التى تنتهى بالحشرات والعناكب واعتمادها الأكبر على الغرائز. والآخر نحو السمك الذى ينتهى بالإنسان واعتماده الأكبر على العقل.

وكان من المعقول المتوقع أن يتساءل الناس أو المثقفون: إذا كان

هذا أصلنا فما هو مستقبلنا ؟ أليس الإنسان حلقة فى سلسلة طويلة من التطور مضت منها جملة حلقات وبقيت منها جملة حلقات أخرى هى تطور الإنسان فى المستقبل ؟

أو كما قال نيتشه : « الإنسان جسر تعبر عليه الطبيعة من القرد إلى السبرمان » ، « الإنسان يجب أن يعلى عليه » ، « الإنسان يجب أن يزول كى يأخذ مكانه السبرمان »

الفكرة جليلة ومخصبة لأنها تبعث المفكرين فى كل وقت ومكان عن الإنسان الحاضر وإلى أين يتجه ؟ هل هو يسير نحو الانقراض كما حدث للدينصور ؟ هل هو وقف عن التطور ؟ هل هو سيتطور إلى إنسان آخر أعلى منه ؟ إلى السبرمان ؟

* * *

التطور عند برنارد شو ديانة ، وكثيرا ما يقول « ديانة التطور » هو الديانة البيولوجية القائمة على أصل الإنسان واتجاهه ومستقبل كفاءاته الجسمية والغريزية والذهنية .

والتفاتات برنارد شو إلى الناحية البيولوجية كثيرة . فإنه مثلا يقف عند قصة لوط وكيف خدعته ابنتاه حتى حملتا منه . فيشيد بهذا العمل ويجد فيه سموا لأن دلالة البقاء بالتناسل حق، ولوكان هذا البقاء يخالف العرف العام والأخلاق السائدة . إذ لو لم تسلك ابنتا لوط هذا السلوك

لانقرضت سلالته . . . وهو حين يتحدث عن الزواج يقول بأنه ، أى الزواج ، ليس من حق كل إنسان . وإن الناس يسرفون فى الإقبال على الزواج إذ يجب أن يقصر على أقلية تتمتع بكفاءات إنسانية تستحق التخليد فى الأبناء والأحفاد .

وهو ينشد السبرمان الذى يجب أن نستولده من الإنسان الحاضر على سبيل التدرج . وهو يفكر هنا تفكير الأطفال أى أنه ينسى أنه فى مجتمع متمدن له قوانين وأوضاع ويجرى على عرف وأخلاق .

وهو بالطبع يخبط . ولكنه لاينسى الهدف وهو يخبط . بل إنه لايمكن أن يفكر فى هذا الموضوع بلا خبط إذ ليس هناك طريق ممهد إليه . لأن معلوماتنا الحاضرة فالأرض بكر لم تطأها قدم أحد قبله إلا نيتشه . ولكن نيتشه لم يشرح لنا النظام الذى يحملنا إلى السبرمان وقصارى ما قال إن بين البشر صقورا وعصافير ، ومن حق الصقور أن تأكل العصافير . ومن مصلحة الإنسان أن يأكل قويه ضعيفه لأن فى هذا ارتقاء نحو القوة .

السبرمان عند نيتشه يتحقق بمذهب القوة ومطاردة الضعف ومحوه . مذهب تنازع البقاء والبقاء للأقوى .

ولكنه لم يقل لنا ما هى القوة التى يريدها ؟

وحين يشرع برنارد شو فى معالجة هذا الموضوع يذكر أولا أن

الإرتقاء البشرى وهم أكثر مما هو حقيقة . وذلك لأننا ارتقينا فى الوسط ببناء المدن وزراعة الأرض واختراع الآلات ، ولكن أجسامنا وغرائزنا لاتزال كما كانت قبل مليون أو نصف مليون سنة ، والارتقاء الصحيح يجب أن يتناول أجسامنا وعقولنا وغرائزنا .

إننا لانزال نسلك بغرائزنا سلوك الحيوان .

ولا تزال عقولنا عاجزة عن الفهم السليم لقلة ماتتمتع به من ذكاء

ولا تزال أجسامنا عرضة للأمراض وأعمارنا قصيرة .

ولذلك يجب أن يتغير الإنسان . أى يتطور نحو السبرمان .

إن عندنا من القوانين مايكفنا عن ارتكاب الجريمة وممارسة الرذيلة ولكن هذه القوانين لاتدل على ارتقائنا . لأن القوانين قفص يحبسنا عن الانطلاق نحو الرذيلة والجريمة ، ونحن منها بمثابة الأسد فى القفص لايؤذى الناس لأنه محبوس . ولكنه لو انطلق لعاث وافترس .

وإنما يكون الإنسان راقيا حين تتطور غرائزه فيكف عن الجرائم والرذائل دون خوف من قوانين . أى يجب أن نصل إلى الانسان الذى يسلك السلوك الحسن ويعزف عن السلوك السىء عفو طبيعته وليس خوفا من عقوبة .

وهو هنا يعود طفلا يتحدث وكأنه لايبالى المجتمع . فيقترح الفكرة دون الخطة ويلقيها على عواهنها كى يبحثها غيره أو كى تكون إيحاء وإيماء

لمن يفكرون بعده . فيضرب المثل بالفلاح الانجليزى الذى تبدو عليه متانة الأعضاء وصحة الأجهزة الفسيولوجية فيقول بزواجه من المرأة النحيفة الذكية . فيكون من هذا الزواج نسل يجمع بين صحة الجسم وذكاء العقل .

وهو يحرص على أن يقول إنه يقدم فكرة للبحث وليس خطة للعمل

* * *

إن داروين هو الموحى للفكرة التى يقول بها برنارد شو .

وحوالى سنة ١٩٠٠ نشأت فى لندن جمعية ، لاتزال حية ، تسمى الجمعية اليوجنية . غايتها إصلاح النسل بالوسيلتين . السلبية والايجابية وهدفها الارتقاء فى المادة البشرية بحيث يعلو الجيل القادم على الجيل الحاضر ويستمر الارتقاء جيلا بعد جيل .

وكان هدفها ، ولايزال منع الناقصين من التناسل وإن أجيز لهم الزواج . وذلك بالتعقيم الذى يتيح الاتصال الجنسى ولكن بلا أخصاب فأولئك الذين يولدون بعاهات وراثية مثلا يعقمون . وهذه هى الوسيلة السلبية للارتقاء . أما الوسيلة الايجابية فتكون بتشجيع الأكفاء على الزواج والتناسل .

وبمرور الزمن ، نحو ألف أو عشرة آلاف سنة ، تظهر النتائج الحسنة لهاتين الخطتين السلبية والايجابية بحيث يظهر جيل يخلو من العيوب

الوراثية فى الجسم والعقل ، كما أن الصفات الحسنة يتأكد ويكثر وجودها فى الأفراد نتيجة لتشجيع الأصحاء على التناسل .

وواضح أن الفكرة موحاة من نظرية داروين . ولم تجد هذه الجمعية التأييد من العلميين وإن وجدت من الحكومات اتجاها نحو تعاليمها . وأعظم ماصد العلميين عنها أنها جعلت الإرتقاء موقوفا على الوراثة وكأن الوسط لاقيمة له فى ترقية الأفراد . فهى داروينية أكثر مما هى لاماركية .

وقد صد عنها برنارد شو لهذا السبب .

ولكنه مع ذلك فى مسرحيته « الإنسان والسبرمان » يهدف إلى إيجاد نوع جديد من البشر له خصائص عالية فى الصحة والذكاء والتمييز وهو يومىء إلى الطريق للوصول إلى هذا الهدف ولكنه لايفصل ولا يوضح

والذى لاشك فيه أن الوسط يغير الأحياء بتغيره ، فبقرة البحر ، الميرميد ، التى تكثر فى البحر الأحمر ، كانت قبل نحو ٣٠ أو ٤٠ مليون سنة بقرة سوية تسير على اليابسة وترعى الأعشاب . ثم وجدت من الظروف ماحملها على أن تأكل أعشاب البحر التى تطرحها الأمواج على الشاطىء . ثم تدربت على البقاء فى الماء والسباحة فيه . والسباحة تقتضى الاستغناء عن الساقين مع بقاء الذراعين وإحالتهما إلى زعنفتين حتى تتخذ شكل السمكة .

وهذا هو ماحدث للميرميد التى لم يبق من ساقيها غير نحو ثلاثة

سنتيمترات تتصل بعمودها الفقرى .

ولكن ما هى عبرة الميرميد ؟.

هى أنها تدربت على السباحة أى اعتادت وسطا جديدا .

ثم تغير جسمها بالعادة الجديدة . وهى تركها لليابسة ونزولها فى الماء .

وأخيرا أصبحت العادة المكتسبة وراثية .

والإيمان المطلق بالوراثة فى الإنسان وإنها هى العامل الوحيد فى التغير والتطور ينتهى بإيجاد نوع من الاستبداد وسن القوانين التى تميز فى الحقوق . بل يؤدى إلى إهمال الوسط بدعوى أننا مهما ارتقينا بهذا الوسط فإن ارتقاءه هذا لن يؤثر فى ارتقاء الانسان . وقد ننتهى إلى ما هو أسوأ فنقول : هذا رجل عبقرى بالوراثة . وهذا آخر مجرم بالوراثة ، وهذا معتوه بالوراثة . ونحو ذلك . وكأننا بهذا القول نكف الناس عن بذل المجهود الفردى أو الجماعى للإصلاح . لأن الوراثة عندئذ تعود قدرا من الأقدار لا يتغير .

* * *

ولكن مع الإيمان بقوة الوسط فى التغيير ، بل مع الإيمان بأن الوسط هو الأصل فى التغير والتطور ، فإننا حين نريد سلالة جديدة من الدجاج أو الحمام أو الخيول أو الكلاب نعمد إلى الوراثة نستخدمها بالتلاقح بين فردين نجد أن صفاتهما أقرب ما نفهم من الهدف الذى نصبو إليه .

فالاختيار للكفاءات الوراثية فى الإنسان هو الوسيلة النهائية لإيجاد السبرمان .

ولكن هنا تبرز صعوبة .

ذلك أننا حين نريد سلالة من أحد الحيوانات نعرف مانريد . جواد للسباق أم للجر ، بقرة للبن أم لولادة العجول الضخمه ، حمامة لحمل الرسائل أم للريش المزغب ، كلب للحراسة أم للشراسة . الخ

ولكننا فى الانسان لانعرف ماذا نريد وكيف نهتدى إلى مانريد .

فإن الذكاء والصحة وسلامة الغرائز والتعمير، كل هذه صفات نرغب فى أن نستكثر منها فى الأجيال القادمة . ولكننا حين نريد الاختيار نجد أولا أن للمجتمع قوانين تقليدية لاتجيزهذا الاختيار بين الناس كما تجيزه بين الحيوان . ومن غير المعقول أن يتحدى أحد هذه القوانين . وثانيا نحن لا نعرف إذا كان الذكاء أوالصحة أوسلامة الغرائز أوالتعمير هى نتيجة الوسط بالتربية الحسنة أم هى نتيجة الوراثة .

ولذلك كان برنارد شو يقول إن تحقيق السبرمان عنده فكرة وليس خطة . وإن الفكرة ستبقى أملا بعيدا إلى أن يزداد فهمنا لمعانى الارتقاء البشرى وحقائقه .

أما قبل ذلك فليس لنا غير الإصلاح اليوجنى بكف الناقصين عن التناسل وتشجيع القادرين عليه . ولكن مع تجنب الإسراف .

كتاب السبرمان

ربما كان كتاب « الإنسان والسبرمان » الذى ألفه برنارد شو فى سنة ١٩٠٣ أعظم مؤلفاته . وهو مقـــدمة ، ثم درامة ، ثم كتيب ، ألفه أحد أشخاص هـذه الدرامة عن الثورة . ثم كتيب آخر ، هو مجموعة من الحكم والأمثال الثورية . ومجموع ذلك فى طبعـــة بنجوين يبلغ ٢٨٦ صفحة .

والكتاب الذى ألفه أحد أشخاص الدرامة هو بالطبع من تأليف شو نفسه .

والدرامة لا تمثل كاملة إذ يحذف منها عادة أخطر فصولها وهو الفصل الفلسفى . ولكن الكتاب أى المجموعة يقرأ كأى كتاب .

وأنا هنا ألخص الكتيب الذى زعم برنارد شو أن أحد أشخاص الدرامة قد ألفه . إذ هو لباب الدرامة .

وهو يقول فى مقدمة هذا الكتيب :

« إن جميع الممتازين بدأوا حياتهم ثائرين . وأعظم هؤلاء الممتازين يزدادون ثورة كلما تقدموا فى السن . وإن لم يكن هناك من يظن أنهم

يعودون محافظين ، وإنما ذلك لأنهم يفقدون إيمانهم بالأساليب المألوفة فى الإصلاح .

« إن الرجل الذى يخلص فى دينه يعد هرطيقا (زنديقا) أى ثائرا

« أيما إنسان ، لايزال دون الثلاثين فى العمر، وعلى شيء من المعرفة بالنظام الإجتماعى القائم ، ثم مع ذلك ليس ثائرا ، يعد ناقصا .

« ومع ذلك لم تخفف الثورات من أعباء المظالم . وقصارى مافعلته أنها نقلت هذه الأعباء إلى عاتق آخر ،

— ١ —

كان توكل الإنسان على قوة سماوية تعينه على صعوبات الحياة كسلا وجبنا . وعليه منذ الآن أن يحمل العبء بنفسه بدلا من أن يحيله على قوة سماوية . وليس هذا ممكنا فقط وإنما هو السبيل الوحيد الذى أمامه

وما تحقق من تغيرات فى المجتمعات ، والحكومات ، والتعليم ، والغيبيات ، والطبيعيات ، إنما هو تغيرات عقيمة ينطبق عليها المثل الفرنسى « كلما زاد التغير بقيت الأشياء كما كانت ، أى بقى الانسان كما هو وكما كان .

وإنما التغيرات الحقيقية هى تلك التى اتخذ فيها الإنسان مقام الآلهة حين خلق من الثعلب أو الذئب كلبا ، ومن الثمار البرية العفصة ثمارا طرية حلوة ، ومن جواد الجر الثقيل مهرا خفيفا للسباق .

إن التغيير هنا صادق : سلالة جديدة من الحيوان أو النبات ظهرت من سلالة قديمة . أما تغيير المجتمع والحكومة الخ فلم يغير الإنسان .

لقد أردنا التغيير فى الحيوان وغيرناه .

ولكننا هنا نعرف لماذا تغير . ذلك لأننا نعرف ماذا نهدف إليه . كلب أنيس من الذئب أو الثعلب ، أوجواد للسباق ، أوثمرة حلوة تؤكل

ولكننا فى الإنسان ، حين نرغب فى إيجاد سلالة جديدة منه ، لا نعرف ما نهدف إليه . هل ننشد رجلا وسيما ، فيلسوفا ، رياضيا ، مع امرأة جميلة سليمة تكون زوجته ؟

الجواب : إن التجارب وحدها هىالتى سترشدنا ، وهى تجارب لابد تحتوى الإصابة والخطأ .

ولكننا مع ذلك نتفق على أننا نحتاج إلى العقل المتفوق فى السبرمان . ولكن العقل المتفوق لايعنى الفضائل العرفية . وإذا كان لابد من الاختيار بين رجل الفضائل العرفية وبين رجل الرياضة البدنية فيجب أن نؤثر الثانى على الأول لأن أقل ما فى الرياضى جسم سليم قوى . أما الفضائل العرفية فليست لها قيمة أصلية إذ هى تختلف باختلاف البيئات

— ٢ —

لن يأتى السبرمان ، إلا إذا أرادته المرأة عن تفكير وتدبير .

إن أخطر مافى الانسان هو ما نجهله إلى الآن فيه . ولذلك نحن نبدأ

بحذف الناقصين ، المعيبين ، التافهين ، وحرمانهم الأبوة مادامت هذه العيوب واضحة وليس لها في هؤلاء الأشخاص ، مايقابلها من ميزات توازنها وتبرر حقهم فى الأبوة .

وعلينا مع ذلك ألا نقع فى الخطأ فنقول إن أبناء الزواج الموفق يكونون على الدوام مواطنين صالحين . إذ من المرجح إننا يمكننا أن نحصل على نتائج حسنة من التلاقح بين اثنين غير زوجين بل لايليقان للمعاشرة الزوجية .

وليس هناك ، سواء فى إنجلترا أوأمريكا ، من يستطيع قبول فكرة التلاقح بلازواج بغية ارتقاء السلالة البشرية وإيجاد سلالة تتجدد جيلا بعد جيل نحو هدف السبرمان . والاعتقاد العام إن غاية الزواج هى إنجاب الأطفال . مع إن هذا ليس هوالواقع . لأن الزواج قبل كل شىء معاشرة قد يرافقها إنجاب الأطفال أو لايرافقها . والأطفال ، فى الزواج، يأتون جزافا بلا أدنى تفكير فى تحسين السلالة البشرية .

لابد إذن من إنجاب السبرمان بطريق آخر غير الزواج .

— ٣ —

يروى لنا برنارد شو فى هذا الفصل قصة ، مجتمع أونيدا ، الذى أسس فى ١٨٤٨ سنة الثورات التى اشتعلت فيها الأفكار فى أوربا وأمريكا .

وزعيم هذا المجتمع هو الفريد نويس من أبناء الولايات المتحدة . وكان قد درس الإنجيل وفهم منه إنه يدعو إلى الشيوعية وإن الإنسان لايمكنه أن يكون إيثاريا يؤثر على نفسه أو يساوى بينه وبين سائر مجتمعه إلا إذا ألغى الامتلاك الفردى على نحو مافعل تلاميذ المسيح .

وكان هذا المجتمع يتألف من نحو ثلاثمائة شخص عاشوا معا فى أمريكا دون أن يعرف واحد منهم أنه يملك شيئا من عقار أو منقول . وكان الفريد نويس يزعم أن هذا المجتمع هو « ملكوت الله » الذى ذكره المسيح .

وعاش أفراد أونيدا يعملون وينتجون للمجتمع وقد ألغوا الزواج وصار التناسل بينهم وفقا للإختيار الحر بين الجنسين .

وعاش هذا المجتمع ثلاثين سنة بقوة زعيمه نويس الذى قاده إلى هذا النظام . ولكن لما أحس نويس إنه يقترب من الموت خشى الفوضى على مجتمعه فعاد به إلى النظام الانفرادى فى الممتلكات والزواج قبل موته

والعبرة التى يستخلصها برنارد شو من مجتمع أونيدا هذا أنه يمكن الرجل العبقرى أن ينكر الأخلاق العرفية بغية الوصول إلى هدف أعلى مما تتيحه المجتمعات المتمدنة . ولكن لما كان الناس فى مجموعهم دون المستوى الذى يبلغه العبقرى فإنهم عندما يفقدون القيادة العالية التى توجههم يعودون إلى حضيضهم السابق .

وبرنارد شو يعرض لمجتمع أونيدا باعتبار أنه فكرة وليس نظاما . كما سبق له أن عرض لابنتى لوط اللتين حملتاه ، وهو سكران ، على الاتصال الجنسى بهما كى تحافظا على النسل . وهو يذكر حادث لوط ومجتمع أونيدا كى يدلل على أن الأخلاق العرفية فى الزواج ، والإمتلاك ، ليست هى الأخلاق المثلى التى يجب ألا تتغير والتى يجب أن نتجمد بها كأنها خالدة .

والتغيير ليس ممكنا فقط بل هو واجب . وإنما يقع هـذا الواجب على عاتق الزعيم العبقرى وحده الذى يجدد المجتمعات . وليس هذا من حق العامة أو الجمهور أى أنه ليس من حق الأفراد العاديين .

— ٤ —

ويمدح برنارد شو بجتمع أونيدا ويقول إنه فى المدة التى عاش فيها نويس وهو يتزعم هذا المجتمع عمت السعادة جميع أفراده وزاد إنتاجهم وارتقت معاملتهم للاطفال وقلت الوفيات إلى أقل عدد .

ولكنه يعترف بأن أفراد الجماهير تنشد السبرمان أى الإنسان الأعلى فى الخيال . فتصف أبطال تاريخها كما لو كان كل منهم الاسكندر وتضفى صفات القداسة على الأفذاذ من رجال الدين ، لكن هؤلاء الأفراد يرفضون التدخل من أحد فى عاداتهم المألوفة فى الزواج . بحسبان أن هذا التدخل سيحرمهم مسرات الزوجية أو ينقصها ، وهم يهبون فى وجوه دعاة التغيير

ويصفونهم بأنهم فاسدون مفسدون قد انحلت أخلاقهم . ولكن إذا وثقوا بأن الزواج ممكن وإنه سيدوم ويتوافر وأن كل ما سيؤدى إليه التغيير هو قصر التناسل على الممتازين من الشعب : إذا وثقوا من ذلك فإنهم يقبلون التغييرات التى يقتضيها النظام الاجتماعى الذى سوف يهيأ كى يرتقى الشعب ، وترتقى البشرية بتقييد حق التناسل على الرجل الممتاز والمرأة الممتازة . ويحرم غير الممتازين التناسل ولكنهم لا يحرمون الزواج

وهنا يقول برنارد شو أن أعظم المخترعات فى القرن التاسع عشر هو الأدوات التى تستعمل لمنع التناسل . لأن هذا المنع سيغير البشرية فى صلب الانسان أى يغير جسمه وعقله . أما سائر المخترعات فليس لها هذا الأثر إذ هى تغير وسطنا المتمدن ولكنها لا تغيرنا فى تركيب أجسامنا

وبكلمة أخرى يقول إن التناسل يجرى فى أيامنا جزافا . ولكن طريقنا إلى السبرمان يقتضى أن نجريه بالتدبير والتنظيم .

— ٥ —

حاجتنا إلى السبرمان حاجة سياسية ، حاجة محتومة .

السبرمان كلمة تحمل معنى التدرج . فهى تعنى فى عصرنا الرجل الممتاز الذى يبصر بالمستقبل ويتحسس طريقه إليه . وهو نادرة عصره ، رجل ناضج دارس له قيم خاصة وأفكار فذة . ولكنه قلما يستطيع قيادة الجماهير التى تحتاج إلى من يتملقها ويشيد ، بلغة الخطابة ، بالأخلاق والدين والتاريخ والتقاليد .

السبرمان فى عصرنا نادر الظهور لأن التناسل يجرى فوضى بلا انتظام ولكنه أى السبرمان سوف يتكاثر فى المستقبل حين ينظم الزواج بغية إيجاد النسل الأعلى ، الجيل الذى يعلو على الجيل الذى سبقه فى توافر الصفات البشرية العليا .

والسياسة هى فى عصرنا تملق الجماهير لأنها سياسة ديمقراطية أى أنه لايمكن تأليف حكومة إلا إذا رضى عنها الشعب ، والشعب لا يمكن أن يرضى عن سياسى يدعوه إلى إيجاد نظام تناسلى أو زواج مقيد يهدف منه إلى السبرمان .

وهنا نجد أن برنارد شو قليل الإيمان بالديمقراطية . وهو يميل إلى شىء من الديكتاتورية الاشتراكية التى تملى على الشعب وتحمله بل تجبره على الارتقاء . ومن هنا إعجابه بهتلر بل أيضا بموسولينى . وقد كان هذا بالطبع شططا منه حمله عليه إيمانه بأن الجماهير راكدة ليس لها القوة الحافزة على الابتكار الجرىء . وإنها لذلك تعوق نشوء السبرمان .

وبرنارد شو هنا لم يبصر بقوة الانتاج ، هذا الانتاج الذى سيتوافر بحيث لايحتاج من أحد إلى أكثر من ساعتين أوثلاث ساعات فى اليوم للعمل . ثم يبقى سائر النهار وبعض الليل بلا عمل . وهذه الحال التى تقترب إليها الشعوب المتمدنة ستحمل حكوماتها على أن تجعل التعليم العام ، أى التعليم الذى يفرض على كل شاب وفتاة تعليما اجباريا من

السنة الأولى فى المدرسة الابتدائية إلى السنة الأخيرة فى الجامعة. بحيث لن يخرج إلا حوالى سن الثلاثين قد حصل على ثقافة تهيئه لأن يفكر التفكير الناضج وأن يتقبل الأفكار الجديدة التى تؤدى إلى الارتقاء البشرى العام حتى ولو كان فى هذه الأفكار ما يخالف تقاليده وعاداته .

— ٦ —

أولئك الذين يأنفون أو يستحيون من الحديث عن التناسل واعتباره الأساس للعلاقة بين الجنسين إنما يفعلون ذلك لأنهم لايستطيعون الحديث فى هذا الموضوع إلا بكلمات بذيئة عاهرة. فحياؤهم هنا هو عجز فى التعبير ونقص فى التربية وبرهان ذلك أن الأطباء أو المعلمين الذين يشتغلون بحياة الحيوان يمكنهم أن يتنافسوا فى حرية لغوية تامة عن موضوع التناسل لأن كلماتهم التى يعبرون بها علمية ولأنهم يلتزمون الجد والدرس فى تناول الموضوع .

وعندما يضاف إلى فقر اللغة فقر آخر مادى فى المسكن والمأكل ووسائل العيش عامة تكثر الأدران والأقذار وتلابس الموضوع فيكون الإشمئزاز الذى يمنع الحديث .

ولكن عندما يكون زواجنا نظيفا ، ومدننا نظيفة ، ومعيشتنا نظيفة ، فان لغتنا عندئذ تكون نظيفة ولن نأنف ولن نستحى من الحديث عن الشئون الجنسية والتناسل والزواج وأن نوجه هذه الموضوعات نحو الإرتقاء البشرى .

— ٧ —

عبارة « الأرتقاء البشرى » من العبارات الخادعة .

ذلك أن الحضارة التى هيأت لنا المسكن الحسن والإنتقال السريع والملابس الوفيره ، ونظافة المياه ، والأمن ، ونحو ذلك إنما هى جميعها إرتقاء فى الوسط الذى نعيش فيه وليست إرتقاء فى صميم أجسامنا وعقولنا . فنحن أرقى مساكن مما كنا قبل عشرة آلاف سنة حين كنا نعيش فى كهوف . ولكن أجسامنا وعقولنا لا تزال على ما كانت عليه قبل عشرة آلاف سنة .

وقد انفجرت ثورات غيرت المجتمعات ولكنها لم تغير الإنسان .

إنما يتغير الإنسان إذا توليناه بالعقل الناضج والقصد الأرحب بحيث نهدف منه فى قوانينه ، وعاداته ، وأسلوب عيشه ، وفلسفته ، إلى أن يكون ، جسما وعقلا ، فى ارتقاء دائم يزداد صحة وذكاء جيلا بعد جيل ، وذلك قبل كل شىء ، عن طريق قصر التناسل ، لا الزواج ، على الأكفاء الممتازين من التناسل .

— ٨ —

مازلنا متوحشين ودعوانا باننا أرقى من المتوحشين كاذبة . إذ لا تزال عقانا وأخلاقنا وعاداتنا متوحشة .

اننا ما زلنا نمارس فى عقائدنا تأكل الأله كما يفعل المتوحشون .

وما زلنا نمزق أعضاء الموتى. وقد فعلنا ذلك بجثة المهدى فى السودان حين ضرب كتشنر ضريحه بالمدافع.

وقد كان سلوكنا فى حرب الصين، البوكسر، لا يختلف أقل اختلاف عن سلوك المغول والتتار.

وما زلنا نستخرج الاعترافات من المتهمين بالتعذيب.

وفى حربنا فى أفريقيا الجنوبية كنا نجبر أقارب المعدمين بحضور «حفلة» الاعدام.

وكذلك فعل الأمريكيون فى فيليبين.

ونحن نحكم بجلد المجرمين مائة جلدة وألف جلدة مع أن موسى، قبل ثلاثة آلاف سنة، كان يقنع بأربعين جلدة فقط.

وقد يقال أننا ألغينا الرق فى القرن الماضى. ولكن الحقيقة أننا لم نلغه لأننا ارتقينا فى الإنسانية على أسلافنا وإنما لأنه لم يعد يصلح للانتاج. إذ أن العامل المأجور ينتج أكثر من العبد المملوك.

وكل هذا الذى ذكرنا يدل على أن دعوانا فى الارتقاء كاذبة. ولن نرتقى حتى نتطور إلى ما هو أعلى أى حتى نتجه فى الطريق الذى يسمو بنا إلى ظهور السبرمان من الانسان.

— ٩ —

ليست المخترعات برهانا على ارتقاء الانسان. فان ستيفنسون

اخترع لنا القاطرة ونحن جميعا نستعملها دون أن نرتفع إلى مستوى ستيفنسون فى الذكاء. ولكن لن نستطيع أن نكون مسيحيين إلا إذا كان كل فرد منا على مستوى المسيح نفسه فى الأخلاق.

ركوبنا للقطار لا يقتضينا أن نكون أكثر تطورا وارتقاء من أسلافنا الرومان أو المصريين القدماء. ولكن اتخاذنا للأخلاق المسيحية، بحيث تصير جزءا من كياننا لانجبر عليه بل نحبه، يعد تطورا

نحن نتحدث عن تأميم الانتاج كالزراعة أو الصناعة. ولكن يجب أيضا أن نفكر فى تأميم التطور. أى التربية البيولوجية الانتخابية للانسان بحيث يرتقى الأحفاد على الجدود ويزداد الارتقاء جيلا بعد جيل حتى يأخذ السبرمان مكان الإنسان.

— ١٠ —

نحتاج إلى وزارة للتطور يكون لوزيرها مقعد فى مجلس الوزراء.

ويكون هدف هذه الوزارة ألا نحيي فقط بل نحيي إلى أحسن بتحسين السلالة البشرية وسن القوانين التى تؤيد هذا التحسين.

اعتبر مثلا ما كانت تفعله الحكومة من منع المعلمات من الزواج. فإن هذا المنع قد تنتفع به الحكومة من حيث إدارة أعمالها، ولكن الضرر كبير حين نفكر ونذكر أن أحسن النساء اللائى تعلمن وعملن قد كافأناهن بالتعقيم مع حاجة التطور إلى أبنائهن؟ أليست المعلمة التى هدفت

إلى الخدمة الجادة . ونجحت فى مراحلها التعليمية خير أم تنجب الأطفال ؟

إننا لا نسمح للملوك بأن يتزوجو أو يختاروا زوجاتهم كما يشاءون لأننا ننظر من خلال زواجهم إلى مصلحة الدولة . وهذا مع إن الملوك ليس لهم شأن كبير فى سياسة الدولة . ولكن الشأن الكبير لأبناء الشعب العاملين . ولذلك يجب ألا نتركهم يتزوجون ويتناسلون كما يشاءون وفق أهوائهم . إذ يجب أن نذكر المصلحة التطورية للشعب من زواجهم وتناسلهم .

يجب أن نعيش ألف سنة

تذكر التوراة أن متوشالح عاش ٩٦٩ سنة .

وعبرة هذا القول إن الرغبة فى طول العمر أصيلة فى الإنسان بل هى الأصل فى أساطير عديدة لجأ إليها البشر فى مختلف أطوارهم الاجتماعية . فإن المصريين القدماء عبروا عن هذه الرغبة بتحنيط الجثمان حتى يحتفظ بأعضائه ويستطيع أن يحيا حياة خالدة فى العالم الآخر .

ولكن إذا كان المصرى القديم قد استسلم للأساطير حين جعل من التحنيط وسيلة للخلود ، فإن الإنسان العصرى لايزال يرغب فى إطالة العمر ولكن بوسائل علمية . فهو يسأل : لماذا تعيش الببغاء قرابة مائة سنة وتعيش السلحفاة ضعفى هذا العمر ، ولماذا لانعيش نحن البشر أكثر من ٧٠ أو ٨٠ سنة ؟ .

وليس الحافز على هذا السؤال هو النفور من الموت والتشبث بالحياة لمحض الحياة كما كانت الحياة عند أسلافنا . وإنما الحافز عندنا فلسفى علمى . فقد أصبح الإنسان المتمدن وجوديا سواء أراد أم لم يرد . كما أنه أيضا قد انتهى فى عصرنا إلى عقلية تطورية يقول بإمكان التغيير للمادة البشرية

بايجاد سلالات جديدة منها على نحو ما أوجدنا أكثر من مائتى سلالة لكل من الكلاب أو الحمام أو الخراف .

وهذا إلى أننا قد اتجهنا أيضا هذا الاتجاه الوجودى الذى يحثنا على أن نحيا فى هذه الدنيا ملء كفاءاتنا وأن نستمتع فيها بأكثر ما نستطيع من استمتاعات عالية تتفق وإنسانيتنا .

رجل العلم ورجل الفلسفة . كلاهما يشتغل بالوسائل التى تطيل عمر الإنسان .

رجل العلم مثل متشنيكوف الذى أمضى كل عمره تقريبا يبحث عن البكتيريا « المضادة » التى تستطيع قتل جراثيم الفساد فى أمعائنا فتطول أعمارنا بذلك . وقد خاب فى سعيه . ولكن خيبته فتحت الأبواب لغيره من العلميين الذين لايزالون يبحثون هذا الموضوع والذين سوف يهتدون إلى الوسائل التى تحقق هذا الهدف .

ثم رجل الفلسفة مثل برنارد شو الذى يهدف إلى زيادة الفهم بزيادة العمر . أليست الفلسفة فهما ؟

ولكن كيف نفهم كل هذه المعارف التى تشتتت وتعددت من كيمياء إلى فيزياء ، ومن اليكترونات إلى فلك ؟ ومن طب إلى هندسة ، ومن تاريخ إلى اقتصاد ، ومن أدب إلى فن ، كيف نفهم كل هذه الأشياء وندرسها هى وغيرها دراسة التعمق والتفرغ إذا كنا لانعيش سوى ثمانين أو تسعين سنة ؟

إننا نقتصر على دراسة علم واحد أو فن واحد لأن أعمارنا قصيرة . ودراستنا تتخذ صيغة التخصص الذى يعمينا عن سائر العلوم والفنون . فنحن نعرف علما ونجهل مائة علم ، وأولئك الذين يحاولون التعميم بدلا من التخصيص يجدون أنفسهم فى قصور لا يمكنهم التغلب عليه ، ومرجع هذا القصور إلى أن أعمارنا قصيرة .

إن العلوم كشوف . كل كشف منها ينير العقل ويفتح البصيرة . ويجب أن نتعلمها . ولذلك نحن فى حتمية فلسفية تطالبنا بإطالة أعمارنا حتى نستطيع استيعابها وحتى يزول هذا التخصص الذى كثيرا ما يؤذى أكثر مما يؤذى الجهل .

ذلك أن المتخصص . كما قلنا ، يحده تخصصه ويعميه عن شئون الحياة الأخرى . بل هو يعميه عن الأثر الحسن أو السىء لما تخصص فيه من علم أو فن . فلو أن العلميين الذريين الذين اشتغلوا باختراع القنبلة الذرية كانوا على شىء من مهارة الذهن وعمق الذكاء فى فهم الخير الإنسانى كما كانوا فى فهم الذرة لما ارتضوا اختراعها ، هذا الاختراع الذى تجاوز القنبلة الذرية إلى القنبلة الهيدروجينية التى تخيم على عالمنا غيمة سوداء تهدد بمحو الحضارة وفناء الانسان .

إن رجل العلم يجب أيضا أن يكون فيلسوفا . وإلا فهو خطر . وهل أحتاج إلى أن أذكر أن رجلا من رجال العلم الانجليز اقترح

قبل سنوات . حرمان الامم المتخلفة التى ترفض تحديد النسل ومنع الحمل من العقاقير الجديدة « المضادات » التى تقتل بكتيريا الأمراض ، وكانت حجته فى هذا الاقتراح أنه مادامت هذه الأمم تسرف فى التناسل فلنتركها حتى تموت بالأمراض الميكروبية بلا دواء .

هذا النقص فى الإحساس بالخير الإنسانى هو ثمرة التخصص . إذ لو كان هذا الوحش قد درس الأدب والفلسفة والشعر والفنون الجميلة كما درس العلم لما أجاز لقلمه أن يكتب هذه الكلمات الكافرة .

ولكنه لم يجد الوقت لهذا التعميم فى الدراسة لأن العمر قصير . فتخصص وقنع بالتخصص .

وقد بصر برنارد شو بهذه المشكلة وألف مسرحية بعنوان « العودة إلى متوشالح » يوضح فيها ضرورة الإطالة لعمر الإنسان .

لقد عاش متوشالح ٩٦٩ سنة كما تقول التوراة . ولكن برنارد شو يطمع فى ٣٠٠ سنة يحياها كل منا ، أو بالأحرى من أعقابنا على الأرض

وقد عاش برنارد شو ٩٤ سنة وكان يفكر كثيرا فى قيمة العمر الطويل ، وكان يمكن أن يعيش أكثر من هذا العمر لو لم تقع له حادثة أدت إلى كسر ساقه ، فلما لزم السرير بسببها وقع فى نزلة شعبية كانت سبب وفاته .

والاهتمام بإطالة العمر هو إهتمام يمكن أن نصفه بأنه « وجودى » .

فإن الوجودية كانت كامنة فى جميع المفكرين الماديين قبل أن يصرح بها ويشرحها سارتر . فقد كان إبسن وجوديا عندما أخرج الزوجة من بيت زوجها فى الليل تبحث عن استقلال شخصيتها وتربية ذهنها واقتحام الدنيا . وبرنارد شو وجودى عندما يطالبنا بأن نحيا فى هذه الدنيا أقصى مانستطيع من العمر الطويل كى ندرس العلوم ونسيح فى الأقطار ونختبر ونتعلم ونستمتع .

إن أسلافنا أيام الفراعنة لم يكونوا يجدون أية دلالة لوجودهم على هذه الأرض وكانت الحياة لذلك ، فى العالم الآخر ، كل ما يهتمون له . شيدوا مقابرهم بالحجر ، وبنوا مساكنهم بالطوب النيء . وكان العالم الآخر مجسما فى أذهانهم كأنهم يعرفون شوارعه وأزقته .

ولكن الوجوديين فى أيامنا لايسلمون بعقائد مصر الفرعونية . وكأن لسانهم يقول :

« فلنعش فى هذه الدنيا ولنستمتع بأقصى مانستطيع بحياتنا »

والسخفاء من الشبان والفتيات الوجوديين فى باريس يفهمون من هذا الاستمتاع على أنه إستهتار وعبث . ولكن الجادين الناضجين يفهمون منه على أنه إستقلال وحرية فى الاختيار ودرس وثقافة واختبار .

يقول برنارد شو أن أعمارنا تجعلنا لانعنى بهذه الدنيا

إذ أننا بمثابة المستأجر لمسكنه شهور أو سنوات قليلة لا يبالى فيها أن يصلح بناءه إذ هو سيتركه بعد قليل . ولو أنه كان على يقين بأنه سيقيم فيه هو وأبناؤه ثم أحفاده بعده نحو مائتى سنة فانه كان يبنيه مع العناية والدرس ويزينه مع السخاء والفن بحيث يعود متحفا فى الجمال والأناقة .

وهذا هو شأننا نحن البشر فى هذه الدنيا . فإن عنايتنا بها قليلة أو معدومة . ولكن لو كان كل منا يعيش نحو ألف أو ثلاثة آلاف سنة لعنينا بها بحيث نجعل من غاباتها متاحف ونزرع بحارها كما نزرع يابسها ونقيم المصايف على هملايا وفى القطبين الجنوبى والشمالى ونلغى الحكومات المتعددة ونقنع بحكومة مفردة تشرف على جميع البشر ونعمم الخير بين الناس ونلغى الحرب ونعيش فى سلام .

ولكن ، لأننا لانعمر طويلا ، لانبالى أن نبنى دنيانا كما يجب أن تبنى . بل نتركها فى فوضاها ودمارها الحاضرين وفى اختلافات أبنائها وجهلهم بل وتوحشهم .

وليس هذا فقط . فإن برنارد شو يذكرنا بأننا عندما نعمر طويلا ، مئات وآلاف السنين ، فإننا نستطيع أن نصل إلى مانشده من تربية لأنفسنا لانحصل ولا يمكن أن نحصل على مثلها أو نصفها ونحن فى أعمارنا القصيرة الحاضرة . بل كذلك إستمتاعاتنا التى لانجد الوقت لأن نمتلىء بها وننغمس فيها ونتعمق الحياة عن سبيلها .

لو كان أحدنا يستطيع أن يعيش ألف سنة لاستطاع أن يحيا جملة حيوات من حياتنا الحاضرة الموجزة . فإن ألف سنة من العمر تتيح لنا أن نعيش فرنسيين عشر سنوات فى فرنسا ، وصينيين عشرين سنة فى الصين ، ثم فى روسيا وألمانيا ألخ . وهذا إلى أن نمضى سنوات فى دراسة الذرة ، ومثلها فى دراسة الكيمياء، ومثلها فى دراسة الفيزياء . ونحو مائة سنة فى دراسة الفلسفة .

هذه هى الاستمتاعات على مستوها العالى كما يفهمها برنارد شو عندما يقول بضرورة إطالة الأعمار ، هى إستمتاعات الحكمة التى تثمرها الدرسات المتعددة والإختبارات الشخصية فى القارات الخمس .

إن السلحفاة تعيش نحو مائتى سنة فلماذا لا نعيش نحن ألف أو ألفى سنة ؟

إن فكرة التطور بارزة فى كل مايكتبه برنارد شو . وهو يذكر لوحة الأحياء وتطورها من الخلية المفردة إلى الإنسان الحاضر فى نحو ٧٠٠ مليون سنة . ثم يفكر ، فى إيجاد كفاءات جديدة فى إنسان المستقبل ، وأولى هذه الكفاءات أن يطول عمره حتى يكفى لأن يحيله من طفل كبير يحب الحروب وينغمس فى الخمر والجنس ويشتهى المخدرات ويقتنى المال ويؤثر الجهل والكسل على الجد والدرس إلى إنسان حكيم قد كسب حكمته من السنين المديدة وأستمتع بحياته .

وهو حين يصل إلى هذه الغاية يجد معنى ودلالة للوجود ولذة فى الحياة لا يجدهما الآن .

لجميع الأديان ، أيا كانت ، وجهتان . الأولى غيبية . والثانية دنيوية فأما الغيبية فهى التى تعين مركز الإنسان فى الكون . والالتفات هنا يتجه أكثره نحو موقفه من أصل الدنيا وأصل البشر ومصيره بعد الموت وما يلقى من ثواب أوعقاب فى نعيم أوجحيم . وجميع الأديان القديمة تعنى لذلك بشرح ما بعد الموت وكأن هناك حياة هى خير من الحياة على الأرض .

أما الوجهة الدنيوية فهى ما يتصل بمعايش الناس وأخلاقهم .

وبرنارد شو يؤمن بنهائية الموت . فلا نعيم عنده ولا جحيم . ولاحساب فى عالم آخر . ولكن ما موقفه من ناحية « الله » ؟

هو موقف سبينوزا من حيث أن الله كامن فى المادة . برنارد شو لايذكر كلمة الله ولكنه يقول إن هناك ما يسميه « قوة الحياة » وهذا التعبير هوصورة أخرى لتعبير برجسون « النهضة الحيوية » أو « التطور الخالق »

وعندما نحاول أن نفهم هذا الموقف نجد أنه لامفر لنا من الإعتراف

بأنه موقف مادى . بل كذلك موقف سبينوزا نفسه الذى نفهم منه أن القوة الخالقة ليست منفصلة من المادة وإنما كامنة فيها.

وهذه القوة الخالقة عند سبينوزا ، بل أيضا عند برجسون ، هى الله الذى ينأى معناه هنا عن معناه فى كتب الدين .

وهذه القوة فى المادة عند برنارد شو هى قوة تطورية . أى أن فى المادة خاصة التطور . وكثيرا ما نجد برنارد شو يقول: ديانة التطور .

والموقف هنا مادى لاشك فيه عند جميع هؤلاء الثلاثة . سبينوزا ، وبرجسون ، وشو . ونستطيع أن نعبر عن موقف برنارد شو بهذه الكلمات .

إن العقل كامن فى المادة .

والأخلاق والانسانية والخير كامنة كلها فى العقل .

والخير أكبر من الشر فى هذه الدنيا ، بل فى هذا الكون . وبرهان ذلك عند شو أنه لو كان العكس هو القائم ، أى الشر أكبر من الخير ، لكانت الفوضى ثم انقراض الإنسان بل الأحياء جميعها . فبقاء الإنسان فى نظام ومجتمع برهان على أن الخير فى الطبيعة ، فى المادة ، فى الدنيا ، أكبر من الشر .

ليس هناك إله خالق منفصل عن المادة . هذا هو موقف الثلاثة الذين ذكرنا .

القوة الخالقة فى المادة هى خاصة من خواص هذه المادة أى إنها خاصة التطور فيها .

ليست هناك قوة روحية أى روح للكون كما ليس هناك روح للإنسان . إنما مادة الكون ومادة الإنسان تحتوى كلتاهما قوة التطور

هذه القوة تسير فى تطور من أسفل إلى أعلى فى الكائنات الحية . وهى عرضة للصواب والخطأ . وملايين الأحياء التى انقرضت ، مثل الزواحف الكبرى قبل نحو ثمانين مليون سنة ، برهان على أن المادة تسير فى تجارب تصيب وتخطىء . وليس بعيداً أن تتجه هذه القوة التطورية وجهة أخرى غير الوجهة التى انتهت بوجود الإنسان فينقرض هذا أيضا ثم تسير هذه القوة التطورية نحو إيجاد إنسان آخر وإلى تجارب أخرى

وعند برنارد شو أن هذه القوة هى الله . فكأن الله يصيب ويخطىء وأنه دائم التجارب فى الخلق . ولا يعنى هذا القول أكثر من أن الدنيا والكون والإنسان والحيوان والنبات والمادة فى تطور .

ونحن نجد هذه التعابير التالية مكررة فى مؤلفاته .

ديانة التطور ، شهوة التطور ، الديانة البيولوجية ، تطور الإنسان فى المستقبل (بإرادة الإنسان) نحو السبرمان ، رجل بلادين هو رجل بلا شرف .

ثم نجد أنه أوصى بألا يصلى عليه عند وفاته فى كنيسة . كما أنه أوصى

بإحراق جثمانه . وقد سبق أن فعل مثل ذلك مع زوجته . ثم يقول فى أحد مؤلفاته إن الأمة اليقظة يجب أن تنقح ديانتها مرة كل عام على الأقل .

فكأن نظرته للدين إنكار للغيبيات جميعها ، من إله منفصل عن المادة ، إلى نعيم وجحيم بعد الموت ، إلى أرواح . ثم فهم الدين على إنه إحساس بالتطور . وإن واجب الأمة . وواجب البشر ، وواجب كل فرد منا ، ونعنى الواجب الدينى هو أن نتطور .

نتطور فى الثقافة فنثابر على استيعاب المعارف وزيادتها ونتطور فى الصحة حتى نعيش ٥٠٠ أو ألف سنة فنتعمق الحياة ونعنى بالدنيا ، ونتطور فى الأخلاق حتى نولد بها أصيلة فى كياننا النفسى وليست مكتسبة بالمرانة والتعليم بعد الميلاد .

وما أفهمه من الدين ، كما أستخلصه واستنتجه من برنارد شو ، هو اليقظة إلى الوعى الكونى . أى ما هو موقفى من الكون والدنيا والبشر .

وزعماء الدين عندى هم موسى ، والمسيح ، ومحمد ، وعمر وأبى بكر ، وغاندى ، وتولستوى ، وشفيتزر ، وبرنارد شو ، وسقراط ، وابن رشد ولنكولن ، وتوم بين ، وكارل ماركس ، ولينين ، وباستير ، وجميع الفلاسفة والأدباء والشعراء والمفكرين والعلميين الذين خدموا الانسان فى زيادة حريته وإنقاذه من رق العمل أو رق الأفكار أو من الأمراض أو من مظالم الاستبداد والاستغلال .

والذى أفهمه من ديانة برنارد شو أيضا أن الرجل الصالح فى عصرنا ليس هو الأنانى الذى لايفكر إلا فى إنقاذ نفســه ونجاتها بالصلاة والصوم وإنما هوالذى يسعى لإصلاح البشر بإيجاد حكومة موحدة للعالم وإلغاء الحروب ومحو الأمراض وتعمير الصحـارى والجبـال وصيانة الأحياء والغابات واختراع الوسائل لزيادة الثقافة والفهم والصحـة والذكاء .

والذى أفهمه منــه أيضا أن التعاون فى الطبيعة أكبر من التنازع . وأن التعاون هو الوسيلة إلى التطور فى الانسان . وإننا يجب أن نأخذ بالتطور فى إيجاد السبرمان أى الإنسان الأعلى .

وأفهم منه ، أى من ديانته التطورية ، أن إرادة الإنسان تخلق . فإذا أردنا أن نعمر ألف سنة فإن هذا الأمل سيتحقق وإن بعد ميعاد التحقيق . وإننا لم نصل إلى ميزاتنا الإنسانية الحـاضرة إلا لأننـا أردنا ذلك عن وعى أو غير وعى .

ولبرنارد شو نحو أربع أو خمس درامات خصها ببحث الموقف الدينى للإنسان . وهذا إلى إشارات عديدة إلى هـذا الموضوع تخللت مؤلفـاته الأخرى . وعندى أن « العودة إلى متوشالح » و « الإنســان والسبرمان » يشرحان لنـا فلسفته أى ديانتــه . وهما بحث للتطور كما يبصر به فى المستقبل . أوهما بحث للدين فى مستوياته العليـا للمفـكرين

الذين يتجاوزون التفكير العلى . وقد ألف دراما عن جان دارك الفتاة الفرنسية التي قادت الجيش الفرنسي إلى النصر فى حرب فرنسا مع إنجلترا فى القرن الرابع عشر . ثم وقوع جان دارك أسيرة فى أيدى الإنجليز ومحاكمها بتهمة الهرطقة (الزندقة) لأنها تؤمن بعقائد تخالف المبادىء المسيحية . ثم الحكم عليها بالإحراق .

والنقطة البارزة فى هذه الدرامة هى موقف جان دارك بأنها تفهم المسيحية بعقلها المستقل وأنها لاتتوسل إلى الله بالكنيسة أو القسيس . ويشرح لنا القاضى فى محكمة التفتيش خطيئتها بأنها تسلك سلوك المسلمين ويسب نبي المسلمين لأنه أيضا يقول بأن للإنسان الحق فى الشكوى إلى الله ومناجاته دون وسيط من كاهن أوقسيس . ولكن برنارد شو وهو يضع كلمات السباب على لسان هذا القاضى إنما يمدح النبي . لأن موقف جان دارك هو موقفه . وهوالموقف الذى يبرره برنارد شو ضد القاضى أى إن الإنسان لايحتاج إلى وسيط بينه وبين ربه .

ويومىء برنارد شو إيماءة نحوالمستقبل . فإن جان دارك هى الرائدة الأولى فى الإصلاح الكنسى الذى انتهى بظهور لوثر الألمانى فى القرن السادس عشر . وقد التبس موقف برنارد شو على بعض كتابنا فحملوا عليه حين ظهرت درامة جان دارك بدعوى أنه سب النبي .

ودرامة أخرى له تدعى « أندروكليس والأسد » تمثل الاسطورة

التى شاعت فى القرن الأول أو الثانى للميلاد بشأن الأسد الذى أطلق لافتراس أحد المسيحيين فى العرين الذى كان فى رومة وكان يلقى فيه المسيحيون للأسود التى تفترسهم وتأكلهم أمام الجماهير المتفرجة. وهذا الأسد يدخل العرين فيجد رجلا مسيحيا قد أنقذه قبل سنين من شوكة دخلت فى ساقه وأعجزته عن الحركة فيعرفه الأسد ويأبى افتراسه. وقد عد المسيحيون الأولون هذه القصة أو بالأحرى الأسطورة إحدى معجزات الدين الجديد.

ويشرح لنا برنارد شو فى هذه الدرامة المبادىء المسيحية كما يفهمها فيقول:

١ ـ إن ملكوت الله فى نفسك وليس فى عالم آخر. وأنت ابن الله والله ابو الانسان. والله هو أبوك. وأنت هنا فى الدنيا تؤدى عمل الله وأنت والله شيء واحد.

٢ ـ تخلص من ممتلكاتك واجعلها مشتركة بين أعضاء المجتمع. وافصل بين عملك وبين النقود والأجور. واذكر أنك إذا تركت طفلا يجوع فإنك تجيع الله نفسه. ولا تقلق على غدك ماذا تأكل فيه وما تلبس فيه.

٣ ـ تخلص من القضاة والعقوبات والانتقامات واحبب جارك كما تحب نفسك إذ هو جزء منك. وأحب أعداءك إذ هم جيرانك.

٤ — تخلص من الإشتباكات العائلية . لأن كل امرأة تلاقيها هى أمك مثل المرأة التى حملت بك . وكل رجل يلاقيك هو شقيقك مثل شقيقك الذى حملت به أمك بعدك . ولا تضع وقتك فى الجنازات العائلية حزنا على أقاربك . لتكن عنايتك بالحياة وليس بالموت .

هذه هى النقاط الأربع التى يلخص فيها برنارد شو فهمه للمسيحية كما دعا إليها المسيح . وهى أبعد ماتكون عن فهم المجتمع أو الكنيسة لها .

ولكن هل معنى ماذكرنا أن برنارد شو كان مسيحيا ؟

الجواب أنه كان مسيحيا من حيث فهمه للأخلاق كما دعا إليها المسيح ولكنه من حيث الغيبيات المسيحية كان كافرا منكرا . وهو يرد هذه الغيبيات إلى أقاصيص وعقائد الأمم القديمة .

ويجد برنارد شو فى المسيحية التبرير للأعتراف بحق كل إنسان فى دخل من الدولة يكفل به بقاءه هو وعائلته . وبكلمة أخرى يجد فى المسيحية دعوة إلى الشيوعية . وكل من يقرأ الإنجيل ، فى تأمل ، ويتعمق المبادىء المسيحية يضطر إلى التسليم بصحة هذا الإستنتاج .

وهو يعلل إمتناع المسيح عن الزواج بأنه كان صاحب رسالة يريد التفرغ لها وأن يبقى حرآ من الإشتباكات العائلية . ولكنه مع ذلك ، أى المسيح ، لم يدع إلى إيثارا العزوبة على الزواج كما فعل بولس .

ويشرح برنارد شو لنا هذا الموقف ، أى موقف العزوبة ، فيقول

إن كل من يحمل رسالة للبشر أو يكافح للوطن ، أو يمارس الأدب الحر ، أو الفلسفة الحرة ، أو الذى يدعو إلى مذهب ، كل هؤلاء يجدون أنفسهم مضطرين إلى إيثار العزوبة على الزواج . ذلك لأن رب العائلة الذى يرتبط بالزوجة والأبناء يضطر فى أزمات ضميره إلى المساومة عليه حتى لاتجوع عائلته . وهنا تفسد رسالته . أما إذا كان أعزب حرا فإنه لا يبالى ماينزل به من حرمان أو عذاب .

وهذا مصداق الحديث المشهور . الولد مجبنة ومبخلة لأبيه .

وليس هذا الموقف بالطبع ، موقف إيثار العزوبة على الزواج ، لجميع الناس . وإنما هو للخاصة والقادة وأصحاب الرسالات فقط . أما سائر الأفراد فيتزوجون بلا حاجة إلى نصيحة .

* * *

والآن ، بعد هذا الذى ذكرنا عن الدين كما يعتقد برنارد شو ، لنا أن نسأل ما هو برنامجه العملى الذى يستنبطه من الدين ؟

هو بلاشك الاشتراكية التى عاش لها وسعى لتحقيقها طيلة حياته كما قد وجدنا فى نشاطه فى الجمعية الفابية . وهذا أيضا هو موقف هـ . ج ويلز .

كلاهما رأى رؤيا الاشتراكية كما لو كانت دينا يحس الولاء له . وكلاهما خدم هذا الدين بكل ماوسعه من مجهود .

وكلاهما كان ملحدا فى المعنى العرفى للألحاد وهو إنكار خالق متصل بالكون له شخصية عاقلة ورعاية شاملة للبشر . وكلاهما يجد فى التطور ديانة كاملة كافية . فالديانة هنا ليست غيبية وإنما هى بيولوجية .

والاخلاق عندهما هى مسئوليتنا قبل كل شىء نحو الحياة التى تفرض علينا التطور والتعلم وإن نربي أنفسنا وأن نتوسع فى وجداننا وأن نطيل أعمارنا ونصون صحة أجسامنا وعقولنا وأن نرتقى وأن نحسن الولاء لهذا العالم وليس العالم غيبي آخر .

لسنا مسئولين أمام الله ، أو أمام القانون ، أو أمام المجتمع ، وإنما نحن مسئولون أمام الحياة التى تضطرنا فى النهاية إلى أن نكون مسئولين أمام المجتمع والقانون إذا كانا على عدل . أما إذا إصطدمت مسئوليتنا أمام الحياة بمسئوليتنا أمام القانون والمجتمع فإننا يجب أن ندافع عن الحياة ضد القانون والمجتمع .

إصلاح الهجاء الإنجليزي

لأول مرة ينهزم برنارد شو هزيمة منكرة. فقـــد حكمت محكمة تشانسري في لندن بأن الوصية التي كان قد كتبها بشأن وقف نحو ربع مليون جنيه من تركته لإصلاح حروف الهجاء في اللغة الإنجليزية، هذه الوصية ملغاة، ويجب لذلك أن تقسم التركة بين الورثة الشرعيين. وصدر هذا الحكم في فبراير من ١٩٥٧.

وكان برنارد شو عند وفاته في ١٩٥٠ قد ترك نحو سبعمائة ألف جنيه خص منها نحو ربع مليون لإصلاح الهجـاء الإنجليزي. فطعن الورثة في صحـة الوصية ودخلوا في تفاصيل عديدة احتاجت إلى نحو خمس سنوات من الدرس والمرافعة وانتهت بفوز الورثة وإلغاء الوصية أي انتهت بهزيمة شو لأول مرة في حياته الثانية بعد وفاته

وكان برناردشو كبير العناية باللغة كبيرالتقدير لقيمتها في ثقافة الشعب وتكوين الشخصية والارتقاء الذهني لكل إنسان. وكانت له كلمة جارحة صادقة بشأن إرلندا وطنه الأصلي . فقد حمل على الوطنيين الارلنديين لانهم يحيون لغتهم الميتة ويكتبون بها بدلا من الكتابة باللغة الإنجليزية

لغة المستعمرين . وكان يقول إنه على الرغم مما أنزله المستعمرون الانجليز بالارلنديين فانهم أسدوا إليهم فضلا كبيرا بتعميم اللغة الانجليزية بينهم . ذلك لأن هذه اللغة تحوى من ألوان الثقافة العصرية ما لا يستطيع الارلنديون أن يحصلوا على مثله بلغتهم التى لاتتسع للتعابير العلمية أو للتأليف عن الأبعاد الرحبة فى الثقافة كما هى الحال فى بريطانيا . وهو هنا يشبه ، فى حماسته للغة الانجليزية ، نهرو . فإن هذا الزعيم العظيم أيضا يدعو إلى التخفيف من النعرة الوطنية الهندية وإبقاء اللغة الانجليزية فى الهند كلغة الثقافة والعلم واللهجة المشتركة بين أبناء الهنود الذين تختلف لهجاتهم بل لغاتهم . وهذا على الرغم من أنها لغة المستعمرين الذين أذلوا الهند أكثر من مائتى سنة ونهبوها وأفقروها .

والحق أن اللغة العظيمة التى تتسع للعلم والثقافة العصريين تعد من أعظم الوسائل للارتقاء الفنى والاجتماعى بل السياسى والحربى . وأيما شعب يهمل لغته ويتسامح فى وجود بعض النقائص فى تعبيرها أوهجائها إنما يهمل بذلك عاملا خطيراً من عوامل حياته فى موكب التطور . وكما يتخلف الشعب لإهمال القوة الصناعية أوالقوة الحربية ، ويتعرض بذلك للهزيمة فى موكب التطور ، كذلك يمكن أن يتخلف وينهزم إذا كانت لغته ناقصة .

وأيما إنسان درس التطور البشرى يعرف قيمة اللغة بل القيمة

العظمى لها فى تكبير الدماغ وترتيب المعارف وتوجيه الحضارة ، وكان برنارد شو يكثر من ذكر الحكمة القائلة بأن اللغة جعلت المكان جغرافيا والزمان تاريخيا .

أى أننا بلا لغة لا يمكن أن يكون لنا جغرافية أو تاريخ .

وذلك لأن اللغة عينت ، بالكلمات ، المعانى . وهى التى نقلتنا من الخصوص إلى العموم . ومن الفكرة الإحساسية إلى التفكير التصورى .

وقد ذكرت الآنسة باتش سكرتيرة برنارد شو أنه كان كبير العناية باقتناء المعاجم . فما هو أن كان يظهر معجم جديد فى إحدى اللغات حتى كان يشتريه ويقرأ فيه كما يقرأ أحدنا كتابا عن موضوع معين .

والواقع أن قراءة المعاجم الكبيرة التى تتحدث عن الكلمة حديثا تاريخيا هو متعة ذهنية كبيرة عند المستعدين لها . أى عند أولئك الذين يجدون الدلالة التاريخية أو الأنتروبولوجية فى تاريخ الإنسان . وكثيرا ماعثرت أنا فى قراءة الزمخشرى أو بن منظور على مواد ثمينة فى هذا الباب .

وكان من اهتمام برنارد شو باللغة تلك الدرامة « بيجماليون » التى جعل بطلها أستاذا متخصصا فى درس اللهجات . بحيث كان يستطيع وهو يستمع إلى أشخاص القصة أن يعين الإقليم الذى نشأوا فيه فى انجلترا . ومع أنه كان للمؤلف غاية أخرى فى هذه الدرامة فإن الحوار كان يجرى

على هذا الموضوع بشأن تعليم إحدى الفتيات لهجة أخرى غير لهجتها الوضيعة التى نشأت عليها . وذلك كى يرفعها ، باللهجة الجديدة ، إلى مقام اجتماعى عال .

وكان برنارد شو يجد فى هجاء اللغة الانجليزية عيوبا كثيرة . والقارئون لمؤلفاته يجدون له أسلوبا آخر فى هجاء بعض الكلمات ، لايتبعه غيره ، يختلف من الهجاء المألوف . وقد دعا إلى إصلاح الهجاء ووقف مقدارا كبيرا من ثروته لإيجاد مؤسسة تدرس هذا الإصلاح وتدعو إليه حتى يقنع الرأى العام ويأخذ به . وهذا الإصلاح هو الموضوع الذى ناقشته المحكمة وانتهت إلى إلغاء الوصية .

وكان برنارد شو يهدف من إصلاحه إلى جملة أشياء نستطيع أن نلخصها فيما يلى :

١ — إن حروف العلة التى تتحرك بها الكلمة ست فقط . مع إن هناك ١٢ صوتا لغويا . فيجب أن يكون فى اللغة الانجليزية ١٢ حرفا للعلة حتى لايؤدى حرف أكثر من صوت واحد .

٢ — ضرورة الاستغناء عن الحروف الثلاثة . X Q C لأنها زائدة ، ويمكن الحروف الأخرى أن تؤدى عملها .

٣ — يجب ألا ينطق الحرف ، ساكنا كان أم متحركا ، إلا بصورة واحدة . هذه هى أهم التغييرات التى طلبها شو . وهنا نحتاج إلى أن نقول

أن الأمريكيين قد أخذوا ببعض الاصلاحات للهجاء الانجليزى . وحاول تيودور روزفيلت ، حين كان رئيسا للجمهورية فى ١٩٠٦ ، أن يغير الهجاء لنحو ٣٠٠ كلمة ، وبعث بجدول لهذه الكلمات المصلحة إلى إدارات الحكومة ومكاتبها للأخذ بها فى المراسلات الرسمية . ولكن الرأى العام هاج . فسارع إلى سحبها .

ما الذى يجعل الناس يكرهون إصلاح اللغة أو إصلاح هجائها ؟

إن الجواب على هذا السؤال لايختلف من جوابنا على نفور الناس من تغيير عاداتهم . فالكلمات عادات وطرق الكتابة عادات . وتغيير العادة هو صدمة تؤلمنا . ونحتاج إلى بذل جهد كى نقبل هذا التغيير . والصدمة تكون بالطبع أوقع عند الكتاب الذين يمارسون الكتابة كل يوم . وهى كذلك أكثر من صدمة عند الخطاطين إذا كان هذا التغيير يتناول الحروف لأنه يكون عندئذ بمثابة قطع العيش .

ومع أن هذه الحركة لإصلاح الهجاء قد وقفها حكم المحكمة ، فإن هناك من سوف يستأنفون هذا الكفاح لأن القضية التى تبناها شو صادقة تعمل للاقتصاد فى التعلم لأبناء الانجليز كما تيسر هذا التعلم لأبناء الشعوب غير الانجليزية . وفى العالم الآن ثلاث أو أربع لغات يحتاج إلى تعلم واحدة منها جميع المثقفين فى أنحاء العالم كله . وعلى قدر الصحة فى نطق الكلمات ، والقدرة على التعبير ، والخدمة للعلم . والاقتصاد فى

الوقت والجهد للأجانب فى التعلم ، على قدر هذا كله يكون التفوق لإحدى هذه اللغات حتى تغدو لغة عالمية .

والآن أرجو القارىء العربى أن يذكر أن شو أراد من الإصلاح للغة الانجليزية أن يكون بها ١٢ حرفا للعلة أى حرفيا حركيا بدلا من ستة حروف ، فماذا نقول نحن وليس عندنا غير ثلاثة فقط ؟

ولكن صعوبتنا لاتنحصر فى قلة الحروف الحركية وإنما هى فى الانفصال عن الحركة العالمية الثقافية لأننا لانستعمل الحروف اللاتينية التى أخذ بها ٦٠٠ مليون صينى قبل شهور ، هذه الحروف التى تستعمل مقاطعها لتأليف الكلمات العلمية والتى نتعب نحن عبثا فى ترجمتها أوكتابتها بحروفنا العربية . ماذا نقول فى هذا ؟

شو والطب والأطباء

عاش برنارد شو طيلة عمره يحمل على الطب والأطباء . يقول عن الأول إنه مجموعة من الخرافات ويصف الأطباء بأنهم ليسوا مخلصين إذ يعلمون أن معارفهم قاصرة ، وأن جراحاتهم خطرة ، وأن علاجاتهم عقيمة ، ولكنهم يكادون يكونون مرتبطين فى مؤامرة ، كل منهم يدارى على أخطاء الآخرين ويزعم العلم أو الفن حيث لا علم ولا فن .

ودرامته أو مأساته « ورطة الطبيب » التى تناول فيها هذه الموضوعات قد كتب لها مقدمة تبلغ ، فى طبعة بنجوين ، ٨٨ صفحة ، شرح فيها موقفه . وهو موقف الأديب الفيلسوف الذى يدرس العلوم فى إستقلال ، ويدلى برأيه فى شجاعة تقارب الوقاحة .

ألف برنارد شو هذه المأساة فى ١٩٠٦ أى قبل خمسين سنة ؟

وماذا كان الطب قبل خمسين سنة ؟

أسأل هذا السؤال لأحد الأطباء هذا العام (١٩٥٧) يجبك بأنه لم يكن شيئا . وإنه حين يصف دواء لأحد المرضى فإنه لا يجد واحدا من تلك الأدوية المألوفة قبل ١٩٠٦ يمكن الاعتماد عليه الآن .

أذكر أنا طبيبا عرفته حوالى ١٩١٠ فى إنجلترا . كان ينتمى إلى

أصل إنجليزى لبنانى ، وكان يدعي الدكتور صليبي وكان قد إنقطع عن ممارسه العلاج بدعوى أنه ليس هناك دواء للأمراض . وأن كل معارفنا عن الطب لاتبرر لطبيب ما أن يزعم أنه يعرف معانى الداء والدواء ، أو أنه قادر على شفاء المرضى . وكل الطب فى نظره ، وهو نفسه طبيب مرخص ، أمل يرجى فقط وليس عملا يمارس . وأقتصر كى يحصل على قوته ، على تأليف الكتب فى الدعوة إلى إصلاح النسل بما يسمى اليوجنية .

وما زلت أذكر طبيبا فلاحا كنت أجالسه وأجد الأنسة والنور فى أرائه . وكان ذلك فى الزقازيق حوالى ١٩١٥ . وقد قلت إنه كان فلاحا لا لأنه كان يمارس الفلاحة فقط بل أيضا لأن عقليته كانت ريفية عملية يسأل عن النتيجة فى الدواء للجسم كما يسأل عن النتيجة فى السماد للتربة . وكان قد إنتهى إلى مثل يضربه لكل من يأنس فيه القدرة على التفكير وحفظ السر . وهذا المثل هو قوله : « ليس فى الطب غير ثلاثة أشياء يوثق بها . هى الشربة للاسهال ، والكينا للملاريا ، والسم للموت » .

أما ما عدا ذلك فليس هناك دواء لأى مرض آخر .

ولم يكن برنارد شو شاذافىهجومه على الطب والأطباء فإن تولستوىوقف مثل هذا الموقف أيضا وسخر من الطب . ومن قبل شو وتولستوى

سخر كثير من المفكرين . واختيار شو لأسلوب معيشته فى الغذاء والنوم والعمل ، وشذوذه فى هذا الاختيار ، هما ثمرة إستقلاله الفكرى . وقد عاش بهذا الأسلوب ٩٤ سنة .

وعندما نتأمل أسلوب حياته نجد أنه ينطوى على الاعتقاد بأن الأمراض هى نتيجة الحضارة القائمة . وأنها جميعا تقريبا تعود إلى الفقر وإلى الجهل بقيمة ارتباطنا بالطبيعة . فقد كان يرفض التدخين ولا يشرب الخمر أو القهوة أو الشاى ، كما كان ينام فى غرفة مفتحة النوافذ حتى فى الشتاء . وكان يمشى كل يوم نحو ثمانية كيلو مترات وكان يتسلق الأشجار ويقطع غصونها . بل إنه مات عقب كسر حدث له عندما سقط من شجرة وأدى الكسر إلى التزامه الفراش فى المستشفى ، فأصابته نزلة شعبية مات بها .

وكلنا يعرف أنه التزم الطعام النباتى منذ بلغ التاسعة والعشرين من عمره . وإن يكن هو يعزو هذا الالتزام إلى الانسانية وليس إلى المنفعة الصحية . ولكننا مع ذلك لا نتمالك الإحساس بأنه حين قاطع المنبهات والمخدرات، وحين أصر على النافذة المفتوحة وقت النوم ، وحين مارس المشى كل يوم وتسلق الشجر ، وحين التزم الطعام النباتى . إنما كان ينبعث فى كل ذلك بالدعوة التى سادت فى القرن التاسع عشر والتى بذر بذرتها جان جاك روسو وهى : عودوا إلى الطبيعة . لأن الطبيعة

هى الإنســانية وهى الصحة وهى الهدوء والطمأنينـة . وهى شاطىء الأمان من مفاسد الحضارة .

والواقع أن الطبيعة لم تكن قط فى يوم ما كذلك ، وإنما كانت فى أحيان كثيرة « حمراء بين الناب والمخلب » ولـكن الأفكار أو الخيالات الرومانسية كثيرا ماحفزت ونفعت . أجل . وغيرت الواقع .

وقد تأمل برنارد شو الطب ، وانتهى إلى أنه فن أو علم ناقص . ولا تنس أن درامته هذه التى ألفها عن هذا الموضوع ظهرت كما قلنا فى ١٩٠٦ . وكان من أحسن ما قاله أن الفضل فى تقدم الصحة العامة فى الشعوب المتمدنة يعود إلى الهندسة وليس إلى الطب . لأن المهندسين صنعوا أنابيب المياه التى تحمل الماء المصفى إلى المنازل وتنزح الماء القذر فى أنابيب أيضا إلى خارج المدن .

ومع ذلك ليس كل الفضل للمهندسين .

ذلك أن حركة التمدن وزيادة الثراء العام يعدان من العوامل الأولى فى تقدم الصحة الوقائية التى كان معتمدها ، إلى بداية هذا القرن ، على النظافة . وأولى الوسائل للنظافة الشخصية هو الصابون الذى كان يحتاج إليه الفقراء ولايجدونه . ولـكن اتساع الثراء العـام جعل هذه السلعة فى متناول جميع الطبقات التى استطاعت أن تتخلص بها من أمراض بكتيرية عديدة . كما أن تعميم النظافة . التى يطالب بها التمـدن ذوقا وييسرها

اقتصادا ، جعل العدوى بالحشرات ، كالقمل والبراغيث ، محصورة أو معدومة . وأصبح الغذاء وافيا فى كمه على الأقل بتوفير الطعام .

وكل هذا ، قبل اكتشاف الفيتامينات واختراع الضديات ، مما جعل الصحة العامة على مستوى حسن وإن لم يكن عاليا . ولم يكن الفضل فى شيء من هذا للطب . وإنما كان ، كما قلنا للهندسة والتمدن والارتقاء العام

وقد كان هذا الكلام حقا وصوابا ليس إلى ١٩٠٦ فقط بل إلى ١٩٣٠أو١٩٤٠ أما بعد تلك السنين فقد وثب الطب جملة وثبات حاسمة ، فعثر على عقاقير السولفا أولا ثم الضديات ثانيا . وإلى جنب هذا . أو قبل هذا ، عرفت الفيتامينات ، ويستطيع المتأمل لهذه العقاقير أن يصف هذه المكتشفات بكلمة الثورة . وهى ثورة على ثلاثة أو أربعة آلاف سنة ماضية من الطب والشعوذة .

وأرجو القارىء ألا يلومنى على جمعى بين هذين اللفظين . فإن المعاجم العربية لاتزال تقول أن الطب هو السحر . وقد كان كذلك بلاشك فى أصله . بل أنى حين أتأمل إقبال المرضى أوالواهمين على استعمال العقاقير بلا تعقل وعلى إنفاق المبالغ الضخمة عليها أكاد أحس أن الطب لايزال فيه من الجاذبية مايسحر به الجماهير ويجذب أموالهم إلى الصيادلة والأطباء بلا أدنى منفعة لها .

ولذلك لا نستطيع أن نلوم برنارد شو على حملته على الطب فى ١٩٠٦

بل كذلك لانلومه على استهجان الأطباء فى اعتمادهم على الحقن الالزامى للطعم المضاد للجدرى . فقد شاركه هربرت سبنسر فى ذلك . وظنى أنهما لم ينتهيا إلى هذا الرأى إلا لاستصغارهما شأن الطب حتى صار كل مافيه عندهما ، سيئا . وكانا بالطبع مخطئين ولكن برنارد شو يتناول ناحية أخرى من الطب هى اعتماد الأطباء على التجربة فى الحيوان الحى . وهو هنا إنسانى فقط بعيد عن الروح العلمية . وبدهى أنه إذا اصطدمت عواطفنا الإنسانية فى شأن كهذا بعقولنا وتجاربنا فإنه يجب أن نسلم بقيمة التجربة . وليس شك أن الحيوان يتألم ولكن المنفعه التى تعود على النوع البشرى تستحق هذا الألم الذى يجب أن نتسامح فيه إلى حدود معينة .

وواضح بعد ذلك أن ابرنارد شو موقفا اجتماعيا نحو حرفة الطب وقد عاش حتى رأى هذا التأميم ، أو شيئا منه ، فى انجلترا .

والطبيب الحر ، قبل التأميم ، كان يجد أن مصلحته المالية تتفق وتفشى الأمراض لأنها تزيد عدد المرضى ثم مقدار الربح منهم . ولكن الطبيب فى نظام التأميم . إذا تم ، يجد مصلحته فى قلة الأمراض لأنه يكلفه العلاج بأجر معين لايتغير ، فمن مصلحته أن ينقص عدد المرضى .

* * *

فى آخر المقدمة المسهبة التى كتبها برنارد شو لدراسته « ورطة

الطبيب ، نجد هذه الخلاصة المثالية لرأيه فى الطب والأطباء :

١ - ليس هناك ما هو أكبر خطراً من الطبيب الفقير . حتى صاحب المصنع أو صاحب الأرض الزراعية ليسا أكبر خطر منه .

٢ - ليس بين المصالح المؤسسة على الشرور الإجتماعية ما هو أعمق فى الشر من المصلحة القائمة على استغلال المرضى .

٣ - تذكر أن المرض جريمة وأن الطبيب الذى يهمل الإبلاغ عنه للسلطة الطبية الرسمية فى البلاد يعد شريكا فى هذه الجريمة .

٤ - أنظر إلى كل وفاة ، فى ظروفنا الحاضرة ، بإعتبارها جناية قتل أو اغتيال . وذلك بأن تجعلها موضوعا لتحقيق على يد النيابة العامة فإذا ثبت أن الطبيب المعالج هو السبب للوفاة فيجب الحكم عليه بمحو اسمه من جدول الأطباء .

٥ - يجب أن نعرف ونقدر عدد الأطباء الذين يحتاج إليهم الشعب . فلا نزيد عليهم ولا ننقص منهم . ويجب أن نجعل الطبيب موظفا عاما فى الدولة ونعطيه أجراً كافيا من الميزانية يحفظ كرامته .

٦ - عامل الطبيب الحر الذى يعمل وهو غير موظف بالدولة كما تعامل الجلاد الحر .

٧ - عامل الأشخاص الذين يزعمون قدرتهم على شفاء الأمراض كما تعامل المنجمين ومحترفى البخت .

٨ - إجعل الجمهور على معرفة تامة ، عن طريق الإحصاءات ، بالأمراض التى يصاب بها الأطباء أو أفراد عائلاتهم .

٩ - يجب على كل طبيب أن يزيد على اللوحة التى كتب عليها إسمه على باب عيادته أن يضيف هذه الجملة : « تذكر أنى أمرض أيضا وأموت »

١٠ - يجب ألا يفوتنا ، ونحن نضع التشريعات للنظم الإجتماعية ، أن نعرف أن المرضى المزمنين الذين لا يستطيعون الشفاء بمجهودهم ليس لهم الحق فى البقاء أحياء بإستخدام غيرهم لهذا البقاء . . . والقول بأن كل إنسان حى لاتقدر قيمته هو ، من حيث التشريع ، غير عملى . . . .

١١ - لاتحاول أن تعيش إلى الأبد فإنك لن تنجح .

١٢ - استغل صحتك حتى إلى درجة البلى . وأنفقها كلها قبل أن تموت إذ ليست لها قيمة أخرى عندك .

١٣ - إبحث عن العناية بصحتك قبل أن تولد . ومعنى هذا أن يكون هناك طبيب حسن تلدك أمك على يديه . ثم بعد ذلك يجب أن تجد المدرسة التى تكون بها عيادة طبية للفحص عن أسنانك وعينيك وغذائك وسائر ماتحتاج إليه صحتك . ويجب أن يكون كل ذلك على نفقة الدولة وإلا فلن تجد هذه العناية بتاتا . كما أنك لن تستطيع ، فى الأغلب ، أن تؤدى ثمن هذه العناية بنفسك بل لاتعرف كيف تطلبها . وعندئذ تكون

كما نحن الآن عليلين فى شعب عليل لا نحس الخجل أو الخزى أو التعاسة مما نعانى .

* * *

والقارىء هنا يحس التحامل على الاطباء . ولكن علينا أن نذكر أن هذه الدرامة كتبت قبل خمسين سنة .

شو فى سنيه الأخيرة

فى مثل هذا الشهر من سنة ١٩٥٠ مات برنارد شو بعد أن بلغ الرابعة والتسعين . وهـذه هى سنيه الأخيرة . . فى شيخوخته ومرضه ثم وفاته مما يجد فيه القارىء حكمة الفيلسوف وفكاهة الأديب وتصرف الإنسان

فى ١٩٤٦ بلغ برنارد شو التسعين . وكان لا يزال نشيطا سليم الصحة يسير كل يوم فى الحقول ويشذب الأشجار ويتسلقها ومعه فأس يكسر منها تلك الغصون التى لا تتسق وجمالها . وكان لا يزال يضع « التصميمات » لأعمال مسرحية جديدة . وقد كتب وهو فى هذه السن كتابه المعروف « ست عشرة صورة ذاتية » وهى ذكريات عن حياته . كما وضع كتيبا آخر بعنوان « أساطير مستغربة أو مستبعدة » .

وسئل عند بلوغه التسعين إذا كان هانئا بشيخوخته فأجاب بالإيجاب . وأنه لو لم يكن هانئا لانتحر وانتهى من حياته . وكان لا يكف عن الدرس والعمل وفقا لحكمته التى قال فيها إننا يجب أن نستهلك كل ما فينا من قوة قبل الموت وأن نذهب الى القبر ونحن « خردة » أى ليس فينا عضو سليم نأسف على دفنه .

وحدث وهو فى الرابعة والتسعين سنة ١٩٥٠ أن تسلق شجرة لتشذيبها، وبقى على ذلك مدة وبينا هو ينزل إنزلقت قدمه فسقط وانكسرت ساقه .

ونقل إلى المستشفى حيث كان الأمل كبيرا عند الأطباء المعالجين بشفائه القريب . ولكن اتضح فجأة أن كليتيه لاتؤديان عملهما على الوجه الكامل . وكان هذا العجز فى كليتيه السبب الأول لوفاته .

وكان طيلة مكثه بالمستشفى يضاحك الأطباء والممرضات ويتفقأ لسانه عن النكات فكان مما قاله للطبيب المعالج : « إنى لو مت على يديك لأصبحت أشهر طبيب فى العالم » .

وقال لإحدى الممرضات عقب استحمامه : « أكتبى لى شهادة بأنى استحممت على يديك حتى لا أطالب من ممرضة أخرى بتكرار هذا العمل » .

وساءت حالته بسبب العجز فى الكليتين وأحس برغبة جامحة فى العودة إلى منزله حيث أجيب إلى طلبه . وبقى أياما قليلة مات عقبها . وتقول المسز باتش سكرتيرته التى كانت ترعاه وتقرأ له الخطابات والتلغرافات التى تسأل عن صحته وترجو له الشفاء أن الموت غشى وجهه بهدوء رائع كأنه قد مات هانئا إذ قد أدى عمله وأنجز واجبه نحو الحياة .

وما زلنا نذكر ذلك اليوم فى ديسمبر من ١٩٥٠ حين أذاعت التلغرافات نبأ وفاته . وكان مجلس الوزراء فى الهند معقودا برياسة نهرو

فقرر انفضاض الجلسة . وأعتبر اليوم أجازة رسمية للمدارس كأن نهرو قصد من ذلك إلى إيجاد وعى سياسى فلسفى عالمى بين التلاميذ الذين سيسألون عن السبب لهذه الأجازة وعن قيمة هذا الكاتب الذى أمضى عمره وهو يدافع عن الانسانية ويحد الإمبراطورية البريطانية. وأغلقت جميع المسارح وسائر الملاهى فى نيو يورك .

وحدث حادث يؤسف له فى الصحافة الإنجليزية التى تنحدر أحيانا إلى أسفل الدركات . فإن العادة المألوفة فى جميع الجرائد الكبرى أنها تخص مكانا من مبناها تجعله « جبانة » العظماء وهى تستكتب الكتاب المختصين تراجم العظماء المشهورين قبل أن يموتوا . وكانت الديلى اكسبرس قد استكتبت هـ . ج . ويلز ترجمة موجزة لبرنارد شو . ومع أن ولز مات قبل شو فإن هذه الجريدة نشرت هذا المقال الذى خرج على الناس كما لو كان عواء من القبر يوم وفاة شو فقد كانت هناك خصومات قديمة بين هذين الكاتبين لم ينسها ولز فبعث أحقادها بكل مافيها من لؤم وقبح .

ورأت الديلى اكسبرس أن نشر هذا المقال يزيد عدد القراء . وهذا هو ماتتوخاه فى جميع نشاطها الصحفى .

ولا نستطيع أن ننسى هنا أن مثل هذه المهمة قد طلبت من برنارد شو عن هـ.ج.ويلز ، فكتب عنه إنه واحد من أولئك الناهضين الذين

انفجرت نهضتهم أولا فى القرن السادس عشر وأن العالم إرتقى بمؤلفاته التى أرشد قراءه فيها نحو المستقبل . وهنا فرق بين كاتبين . . .

وتعود الخصومة بين شو وويلز إلى سنة ١٩٠٥ حين أراد ويلز أن يغير خطة الجمعية الفابية الإشتراكية ويزيد عليها نشاطا آخر رأى شو أنه ليس من شأنها إذ هى مختصة بنشر الإشتراكية فقط . وانهزم ويلز وخرج من الجمعية غاضبا على برنارد شو . ومن هذه المشاجرة الأولى نشأت خلافات وأحقاد . ولكن حدث أن وقع هـ . ج . ويلز فى مأزق من تلك المآزق الأخلاقية التى كان كثير الوقوع فيها أو هكذا على الأقل رواية القصة . ولا ندرى عنها أكثر من أن ويلز بعث بخطاب يشكر فيه شو لموقفه العالى نحوه ويرجوه أن ينسى إساءاته القديمة إليه . ولكن هذا الموقف لم يمنع ويلز من كتابة الترجمة الدنيئة لجريدة الديلى اكسبرس .

وكتب برنارد وصيته التى جاء فيها :

« إنى أرغب فى أن يحرق جثمانى ثم يجمع الرماد ويخلط بالرماد المتخلف من زوجتى خلطاً لا ينفصل . ورماد زوجتى مودع الآن أمانة فى مرمدة جولدرزجرين . ويحفظ خليط الرمادين فى إناء أو ينشر فوق أرض الحديقة بمنزلنا فى أيوث سان لورنس حيث عشنا معاً خمساً وثلاثين سنة ولكن يمكن منفذى الوصية أن يغيروا فى مصير الرماد إذا شاءوا

وأنا شخصياً أفضل نشر الرماد فى الحديقة ».

وقد أنفذت رغبته كما شاء.

وزاد فى الوصية قوله:

« بما أن عقائدى الدينية وآرائى العلمية فى الوقت الحاضر، لا يمكن أن أضع لها تعريفاً أكثر من أنى أومن بالتطور الخالق، فإنى أرغب فى ألا يقام لى نصب أو يصنع لى تمثال، أو صورة فنية، أو تنقش بشأنى كتابة، أو يلقى أحد عنى عظة، أو تعقد بشأنى حفلة دينية على سبيل التذكار. ولا يحتوى شيء من هذا على ما يوهم أنى اعتنقت أو قبلت العقائد الخاصة بإحدى الكنائس أو أن يتخذ هذا التذكار علامة الصليب أو أية آلة أخرى للتعذيب أو التضحية الدموية ».

وبكلمة أخرى مات برنارد شو ملحداً فى معنى الإيمان بالأديان أو العقائد الدينية.

وترك برنارد شو تركة قدرت بمبلغ ٧٦٧ر٣٢٣ جنيهاً حصلت الحكومة منها على ضريبة قدرها ١٨٠ر٥٧١ جنيهاً أى نحو النصف. ومع ضخامة هذه الضريبة فإن برنارد شو لم يكن ليأسف عليها إذ هو كان من أعظم الدعاة لزيادة الضرائب التى تمكن الحكومة وهيئاتها المختلفة من القيام بالاصلاحات المدنية والإشتراكية والإجتماعية.

وكان أول ما عنى به فى وصيته أن عين منها مقادير (غير كبيرة)

للسنين من أسرته خئولة وعمومة . وكذلك فعل لأصدقائه .

ثم خص معظم التركة لمشروع إصلاح الهجاء الانجليزى . وذلك بتأليف لجنة تدرس هذا الموضوع وتوالى الدرس حتى تزيد حروف الهجاء وتخترع حروفاً أخرى لتأدية النطق الذى يتفق مع الحروف ولا يخالفها كما هو الشأن الآن فى اللغة الإنجليزية .

ولكنه حرص على أن ينص فى الوصية بأنه إذا لم يكن المنفذون راضين عن هذا الإصلاح فإنه يرغب فى توزيع التركة على هذه المؤسسات التالية :

١ ــ المتحف الوطنى فى دبلين عاصمة ارلندا (ولا ننس أنه أرلندى الأصل) .

٢ ــ المتحف البريطانى فى لندن .

٣ ــ المجمع الملوكى للفن المسرحى .

هذا هو بعض ما يذكر عن السنوات الأخيرة من حياة برنارد شو الذى مات فى ديسمبر من ١٩٥٠ دون أى احتفال بدفنه أو الصلاة عليه أو سير جنازته فى الشوارع فى مظاهرة سخيفة كما يحدث لسائر الناس .

وليس شك أن الاحراق خير من الدفن . وهو نظافة وطهارة بالمقارنة إلى ما فى الدفن من قذارة ونجاسة . وهذا إلى الاقتصاد

فى النفقات . والاحراق عادة قديمة مألوفة عند الهندوكيين الذين ليس فى بلادهم جبانات .

ويطيب لنا هنا أن نذكر فكاهة شو عن التزامه للطعام النباتى ٦٤ سنة فقد كتب يقول إن له الحق عندما يموت أن تشيع جنازته قطعان وأسراب من البقر ، والخراف ، والخنازير ، والدجاج ، وأيضاً حوض يحوى جماعة من الأسماك ، وكلها فى حداد عليه على أعناقها كوفيات بيضاء . . . وذلك لأنه لم يأكل الحيوانات مدة ٦٥ سنة . . .

* * *

عندما يموت كاتب أو فيلسوف أو أديب نعود بالذكرى إلى حياته وأعماله . ونسأل :

ما هى الأفكار التى أشاعها فاستنار بها الناس أو ارتقوا ؟

ما هو أسلوب حياته الذى أثر به فى غيره ؟

ما هى القيم الأدبية أو الاخلاقية أو الفلسفية التى خلفها ؟

ما هى التطورات التى أحدثها ؟

وفى ضوء هذه الأسئلة نستطيع أن نقول أن برنارد شو قد علمنا ورقانا وطورنا فى هذه الأشياء التالية :

إن المسرح ليس للغرام وحديث العشاق أو لقعقعة السيوف والبطولة

الزائفة أو للجرائم السينمائية وإنما هو للدراسة التى نلهو بها جادين نتعلم ونحن نطرب ونسر .

وأن التربية مهمة العمر كله وأنها واجبنا الأول نحو الحياة وليس لنا من واجبات أخرى فى العالم تقارب هذا الواجب .

وإننا يجب أن نتزوج إلى أعلى بغية التناسل فنختار الشريك الذى نعتقد أن نسلنا منه سيفضل أبويه .

وأن ندين بديانة التطور فنهدف إلى تعمير الدنيا وإطالة عمر الإنسان وزياده الصحة فى جسمه والذكاء فى عقله .

أن نأخذ بمذهب الاشتراكية إذ هى الإنسانية فى التطبيق .

سطور من الآنسة باتش

الآنسة باتش كانت سكرتيرة برنارد شو أمضت معه ثلاثين سنة.

وكتابها « ثلاثون سنة مع برنارد شو » ليس من الكتب العظيمة. ولكنه يحوى بعض التفاصيل الصغيرة التى تخفى على الذين عرفوا شو من مؤلفاته فقط. وقد رأيت أن أنقل من هذا الكتاب سطوراً قد تكون فيها بعض الدلالة على حياة أديب عظيم. وترجمتى هنا معنوية أكثر مما هى لفظية.

* * *

• كان برنارد شو مهوساً بحب المعاجم. فما هو أن كان يقرأ عن إعلان عن معجم جديد حتى كان يسارع إلى شرائه.

• كان مكتبه يحفل كل مكان فيه بالكتب من « الموسوعة البريطانية إلى الكتاب المقدس فى لغاته الفرنسية والألمانية والإيطالية والاسبانية فضلا عن الإنجليزية . . . إلى كتب أخرى.

• كان يحب الحبر الأحمر وعجينة اللزق وكان عندما يحب أن يصحح جملة فى أحد السطور ، المجموعة بالكتاب ، ينقر بالمكتاب الجملة الصحيحة على ورقة بقدر الجملة الممحوة ويلزقها فى مكانها.

. لما كان يقيم فى المدينة قبل الحرب (الثانية) كان يبكر فى الصحو ويقصد إلى نادى السيارات الملوكى ، كى يرتاض بالسباحة فى حوضه . . . ثم يعود حيث يتناول فطوره ويقرأ الجرائد حوالى التاسعة صباحاً . ثم يشرع فى أداء أعماله ويبقى أمام مكتبه إلى الساعة الأولى حين يتناول غداءه . ثم يرتاح بعد الظهر ويستأنف أعماله فى الساعة السادسة ويبقى فى مكتبه إلى وقت العشاء . وكان من عادته فى تناول العشاء أن يغير ملابسه ويلبس ملابس داكنة .

. كان من اعترافاته لى إنه لم يكن يجد ما يكفيه من إيراد التمثيل لمؤلفاته فى لندن إلا حوالى ١٩٠٥ . مع أنه كان مدة السنوات العشر السابقة (من ١٨٩٥ إلى ١٩٠٥) يحصل على إيراد حسن من تمثيل دراماته فى أوربا وأمريكا .

. لما كان عمره ٦٥ سنة تعلم رقصة التانجو فى ماديرا . . . ويبدو أنه كان لبقاً رشيقاً فى هذه الرقصة لأن معلمه عرض عليه أن يرافقه فى الطواف حول العالم لعرض رقصته . ولعل نجاحه فى هذه الرقصة (مع تقدمه فى السن) هو الذى حمله بعد ذلك على أن يتعلم أيضاً اللغة الاسبانية واشترك فى مدرسة مراسلة وأخفى اسمه . فكانت الدروس تصل إلى بعنوانى أنا . وسئم هذه الدروس حتى أن مدير المدرسة بعث إلى بخطاب يأسف فيه على قلة مثابرتى فى المذاكرة .

• زارنا نهرو (بعد الحرب) وأعجب بفاز مملوء بزهور الخزامى فى البهو . وطلب منى أن أرافقه للتفرج فى الحديقة . وكنا فى صباح يوم ربيعى وكانت الحديقة على أزهاها وأنضرها . وترك لنا سلة كبيرة بها نحو ألف من ثمار المنجة وشرح ابرناردشو طريقة أكلها . وسأله برناردشو عن المقدار الذى يمكن أن يأكله الإنسان بلا ضرر .

• لم يكن يحب أن يكتب مقدمات للمؤلفين الذين يرجون منه ذلك لمؤلفاتهم . ولكنه مع رفضه ذلك ، كان على استعداد لمساعدة الكاتب الناشىء الواعد . وقد سأله واحد عما إذا كان يجب عليه ، إذا شاء أن يكون مؤلفاً ، أن يتعلم صناعة الكتابة أولا فأجابه شو بأن يعمد إلى الموسوعة البريطانية ويقرأها حتى إذا وجد مادة يهتم بها فإن عليه أن يمضى فى دراسة هذه المادة . وقال له ليست هناك أية منفعة بأن تتعلم كيف تكتب إذا لم تكن قد اهتممت بموضوع تكتب عنه وفى نفسك شىء تقوله عنه . فإذا وجدت الموضوع ووجدت الإهتمام فإن الكلمات ترد إلى ذهنك فى سهولة .

• كان كل مساء قبل أن يأوى إلى فراشه ، يخرج إلى الحديقة ويرفع رأسه إلى السماء يتأملها .

• كان المستر جون كيرى لحاداً يدفن الموتى . وكنا نحبه جميعاً . وكنا نفرح عندما كنا نحمله على أن يلعب الكريكيت معنا فى الحديقة .

. كان يقول في الدفاع عن الاشتراكية أن الإمتلاك الفردى لا يتفق مع الحرية . ويضرب المثل على ذلك بأن مالك الأرض لايجعل من مستأجرها عبداً له فقط بل إنه ليستطيع أن يبيع فرشاة أسنانه إذا لم يدفع له الجزية عن أرضه .

. قال عن الخمور إنها مخدرات قد استغنت عنها روسيا لأنها جعلت الحياة محتملة (أيام لنين) .

. قال لأحد الزنوج الذى زاره إنه كان مغموراً إلى عنقه فى مذهب داروين قبل أن يبلغ السادسة عشرة . ثم عرف كارل ماركس بعد ذلك وصار إشتراكياً . وإنه لا يعرف أحداً آخر قد أثر فى ثقافته .

. قال إن ماركس أثر فى العالم أكثر مما أثر فيه المسيح أو محمد . ولكنه كان سبابة ولذلك لم يكن له غير صديق واحد لو أنه كان قد استغنى عنه لمات جوعاً .

. كانت المسز هيجت الطباخه التى تهيء الطعام النباتي لبرنارد شو . وقد أقام لها نصباً فى حديقته . وقال للنحات : « هل تحب أن أنقدك الأجر مقدماً لأن عمرى الآن ٩٢ سنة وأخشى أن أموت قبل أن تنتهى من إقامة النصب فتجد صعوبة من المتولين للتركة على أجرك ؟ » .

ونقشت الكلمات التالية على النصب :

« برنارد شو المؤلف لعدد كبير من المسرحيات قد أقام هذا النصب

فى ذكرى صديقيه ومعاونيه اللذين يشكرهما كلارا ربيبكا هيجنز التى ماتت فى الرابع من أغسطس من ١٩٤٨ فى الرابعة والسبعين من عمرها . وأيضاً فى ذكرى هنرى باتشلور هيجنز الذى مات عقب وفاتها . فقد أمضى كلاهما السنين فى العناية ببيته وحديقته فى أيوت سانت لورنس . وبهذه العناية وجد الحرية لأن يؤدى عمله الذى كان يليق له . ولم يجد كاتب مسرحى آخر مثلما وجد هو من عنايتهما » .

• كتب خطاباً إلى جريدة التيمس وهو فى الثانية والتسعين من عمره يقول فيه إنه يجد من المحال أن يجعل الآخرين يفهمون ما يريد . وذلك لأن الذين يستعملون الكلمات لا يقصدون منها المعانى التى يطلبها منها غيرهم . وإنه هو مسئول بقدر مسئولية غيره فى هذا الشأن .

• كلمة « الفظاعة » كانت الوصف الذى يصف به برنارد شو فكرة الأبدية بعد الموت . هى « فظاعة لا يمكن تصورها » . و « لا يمكن غير الطفل الذى لا يفهم معنى الأبديه أن يجابه هذه الفظاعة » . وكان يسخر من نشاط مستحضرى الأرواح الذين يقولون أنهم يتصلون بالموتى .

• كان يتبرم بالغيبيات فى الديانة المسيحية ولكنه كان يسخو فى التبرع للكنيسة فى أيوت (حيث منزله) لإصلاح الارغن ولشراء مولد كهربائى للإضاءة . وكان يصف قول الإنجيل « الله محبة » أنه ليس لهذا القول أية قيمة وإننا لا نستطيع أن يحب أحدنا الآخر فى عالم

يحفل بالوحوش البغيضين المموهين. ولكن مع ذلك كان القسيس « إنج » المشهور يصف برنارد شو بأنه « يعرف قلوب الناس » ويقول له: « إنك لست بعيداً عن ملكوت الله » . وفى مدة الحرب طلبت الوزارة أربعة آلاف نسخة من درامة « اندروكليس والأسد » لتوزيعها على الضباط وذلك لأنها توضح رقة التعاليم المسيحية . ورفض شو أن يأخذ ثمنها .

• كان يقول أنه يجب تعليم الصبيان قراءة الكتاب المقدس « لجمال لغته » .

• صفة التدين فى المتدين الصالح إنما توجد ، فى رأى برنارد شو ، فى ذلك الإنسان الذى يعد نفسه وسيلة للغاية التى يهدف إليها الكون . وهى غاية سامية إذ « هى الصعود الدائم نحو النظام والقوة وانبساط الحياة ، حتى يظهر بالتطور كائن قوى حكيم له عقل يحوى الكون كله بالفهم مع الوسائل التى تمكنه من انفاذ إرادته الكاملة . وبكلمة أخرى يكون هذا الكائن إلهاً قادراً طيباً » .

• « . . . إنما نعجز عن الحديث عن الشئون الجنسية لقصورنا فى التعبير اللغوى النظيف اللائق . ولذلك لا يجد الأطباء هذا الحياء الذى نجده نحن لأنهم يستعملون الكلمات العلمية فى التعبير بدلا من كلماتنا البذيئة . . . »

« . . . الدين يكسبنا اليقين والاستقرار والسلام والإيمان المطلق . وهو يحمينا من ذلك الإرتقاء الذى نخشاه جميعاً . أما العلم فهو نقيض ذلك . لأنه لا يحل مشكلة إلا ويثير ، إلى جنبها ، عشر مشكلات جديدة . . . . »

• فى اجتماع عام حضره شو وأينشتين قال الثانى عن الأول : « لقد نجح المستر شو فى كسب حب الشعوب وإعجابهم الطروب بطريقة اتخذها كانت تؤدى بغيره ، لو أنه استعملها ، إلى الاستشهاد . وإنه ليجرؤ على أن يسخر بما يبدو لغيره أنه بعيد المنال . وهذا الذى قام به المستر شو ما كان ليمكن لأحد أن يقوم به سوى الفنان الموهوب . واستطاع بما لم يستطع غيره أن يضع المرآة أمامنا وأن يحررنا ويخفف عنا بعض أعباء الحياة » .

• لما كان فى أفريقيا الجنوبية كان يسوق سيارته وكان إلى جنبه زوجته فاصطدمت السيارة وتدهورت وأصيب كلاهما بما أحوجهما إلى الراحة والعلاج . وفى هذه الأثناء ألف شو درامته « الفتاة السوداء » وموضوعها الإهتداء إلى الله . وقال فى تصريح له عقب التأليف هذه الكلمات الغريبة لأحد الذين سألوه عن علة تأليفها : « إنت تظن أنك تعتقد أن الله لم يعرف قصدى عندما كلفنى وأوحى إلى بتأليف : « الفتاة السوداء » . وما حدث هو أن زوجتى كانت مريضة طريحة الفراش

فى أفريقيا لجاء إلىَّ الله وقال : إن كثيراً من النساء قد أرهقننى بصلواتهم من أجلك . وما هى قيمتك أنت مع ذلك ؛ فقلت له : إنى أستطيع أن أكتب مع شيء من الكفاءة أما فى غير ذلك فلا أعرف شيئاً . فقال الله : تناول قلمك واكتب ما سوف أضعه فى رأسك السخيف . وهذا هو الأصل لتأليفى هذه الدرامة » .

• لما ماتت شارلوت (زوجة برنارد شو) حملت إلى مرمدة جولدرزجرين حيث أحرق جثمانها فى نفس المكان الذى أحرق فيه بعد ذلك جثمان برنارد شو . وكانت حفلة الإحراق متفقة فى الحالين ولم يحضرهما قسيس . وطلب برنارد شو عند ابتداء الحفلة أن يلحن الأرغن قطعتين من فيردى هما « نحن خالقو الموسيقا » وأيضاً « فلنتحرر » . وقرأ السر سدنى كوكريل صفحات من قصة « الحجيج فى الطريق » للأديب دانيل ديفو . ولم تستغرق الحفلة الخاصة بشارلوت أكثر من أربع دقائق .

• تواردت الخطابات والتلغرافات لتعزية برنارد عقب وفاة زوجته فنشر فى الصحف هذا الإعلان التالى :

• « تسلم المستر برنارد شو مقداراً هائلا من الخطابات بمناسبة وفاة زوجته . وهو مع أنه قد قرأها وقدرها جميعها ، فإنه لن يحاول الرد عليها لأن هذا فوق طاقته . ولذلك فإنه يرجو أصدقاءه وأصدقاءها

بأن يرضوا بهذه الإجابة العامة كما أنه يؤكد لهم أنه ، فى انتظار النهاية السعيدة جداً ، لعمره الطويل ، يحي الآن فى هدوء كامل » .

• كان برنارد شو يفخر بأن جسمه يعادل فى الصحة والقوة عشرة أضعاف الصحة والقوة عند « أكلة الجثث » يقصد غير النباتيين مثله . ومع ذلك يجب أن نذكر أنه كان مديناً فى شفائه من الأنيميا الخبيثة لعصارة معدة الخنزير التى كان يحقن بها حتى حصل على الشفاء .

• كان من أقواله : « الصحة جزء من منهج الحكمة الذى ننهجه » .

• كان عقب وفاة زوجته (فى أوائل الحرب الثانية) يترك فراشه فى الصباح فى الساعة الثامنة . . . وبعد الفطور يقصد إلى الحديقة فى حذائيه الثقيلين ويسير إلى أن يبلغ مخبأه حيث يبقى إلى أن يدعى للغداء ولم يكن أحد يطرق عليه الباب طوال هذه المدة .

• فى السنوات الأخيرة من عمره كان يقنع من الطعام بسند ويتشات من السلطة المهيأة من الخضراوات النيئة . ويشرب كوباً من عصير التفاح أو يأكل طبقاً من اللبن الزبادى . ولكنى لم أره قط يشرب الشاى أو الماء القراح . وكان يأكل البيض عندما لايجد طعاماً غيره . وقد سئم البيض لأن جميع من كانوا يدعونه لتناول الطعام كانوا يطبخون له البيض والسبانخ . وقد سمعته يهدد أحد الجيران بأنه إذا قدم له هذا الطعام فإنه سيترك بيته فوراً . ولا يعود . ولم أره قط يأكل الزبد

الطبيعى . وقال ذات مرة إنه لا يمكنه التمييز بين الزبد وبين المرجرين (الزبد الصناعى) . ولم يكن يشرب شيئاً بين الغداء والعشاء عند منتصف الساعة الثامنة من المساء . ولكن ، إذا حضر ضيف وشرب الشاى ، كان يشرب معه كوباً من اللبن . وكان بعد أن يستريح عقب الغداء يخرج إلى الحديقة ويرتاض بقطع الخشب من الشجر . فلما تقدمت به السن إلى الهرم كان يقنع بالسير فى مماشى الحديقة حول البيت . وقبل أن يصل إلى السنين العشر الأخيرة من عمره كان يقصد إلى مكتبه فى الساعة السادسة مساء ويعمل بعض الوقت . وكان قبل أن يقعد إلى المائدة يدير الراديو . وظنى أنه كان يفعل ذلك حتى لا يتحدث إليه أحد وقت الطعام .

. لم يكن شو نهماً إلى الطعام . بل لم يكن أيضاً دقيقاً فى تذوقه للطعام . وكان مغرماً بالفواكه ولكن كثيراً ما كان يتركها لا يمسها حين تأتى إليه هدايا من أصدقائه فى إنجلترا أو من الخارج . . . وكتب إلى صديق له ، وعمره وقتئذ ٩٢ سنة ، يقول إن اعتراضه على طعام اللحم ينهض على أساسين : الأول ذوقى والثانى منفعى . فإن الإنسان المتمدن يجب أن يصد عن رؤية القتل للحيوان أو الرضى به . ثم أن قتل الحيوان للطعام يستهلك الكثير من الوقت والجهد فى إطعام الماشية والدجاج وإضاعة الوقت فى تربية الملايين منها . وهذه التربية تستلزم استعباد

هذه الحيوانات للملايين من الناس فى تربيتها وإطعامها وتناسلها .

• كان يقول إن النباتيين وصموا الطعام النباتى إزاء غيرهم من اللحميين حين قصروه على الكرنب والرز والعصيدة والجزر . وإنه يجب على النباتيين أن يأكلوا أيضاً الجبن والزبد والشهد والبيض وفى بعض الأحيان زيت كبد الكود أى السمك المعروف الذى يباع جافاً فى مصر فى آخر رمضان باسم البكلاه . وقد وصل إلى سن الرابعة والتسعين على الغذاء النباتى . ولكن حاجته إلى زيت كبد الكود ، وأيضاً احتياجه إلى التداوى بعصارة معدة الخنزير ، برهان على أنه لم يكن يتعصب تعصباً أعمى للمذهب النباتى .

• من النوادر التى يشك فى صحتها أن برنارد شو دخل مطعماً فقدم إليه الجرسون طعاماً من اللحم فوبخه شو . ولكن الجرسون بادره بالرد : « يا مستر شو إنت تلبس اليوم حذاء جديداً » .

والنكتة هنا أن أديم الحذاء مصنوع من جلود الحيوانات .

ولكن شو كان يرد على هذه النكتة بأنه ما دامت هناك ملايين من الحيوانات تقتل للطعام فإن من الحماقة ألا نستغل جلودها وصوفها للباس .

• كان بعد سن السبعين يستريح نحو ساعة ونصف بعد الغداء وكان ينزلق فى هذه المدة من النعاس إلى النوم . وكان ينبه من حوله بألا يزعجوه

وكان يتناول كتاباً يشرع فى تقليب صفحاته ثم يجده مخدراً فينام . أما قبل السبعين فلم يكن يحتاج إلى ذلك .

• جميع الأفراد فى أسرة شو يعزفون على الآلات الموسيقية .ولما كان السرستافورد كويبس وزيرا للمالية وحين فرض ضريبة قدرها ٦٦ فى المائة على أثمان الآلات الموسيقية وبخه شو . وقال فى توبيخه له : إن الموسيقا من الحاجات الأولى فى الحياة المتمدنة . وكان يعزف على البيان ويغنى وهو يعزف وبقى على ذلك كل يوم إلى أن ماتت زوجته . وكان صوته حسنا قد مرنته أمه ، وكانت معلمة غناء ، على الغناء .

• كان يهوى إلتقاط الصور الفتوغرافية فى جولاته وبقى على ذلك إلى حوالى سنة أو سنتين قبل وفاته .

• كان يقرأ كثيرا . وأيضا كان يلعب كبيرا . ولكنه لم يكن يلعب للذة أو التسلى . فقد كان يمارس السباحة ، وركوب الدراجة ، وسباق السيارة ، والتجوال على قدميه فى الريف ، وكسر الخشب ، وجز السياج الشجرى حول الحديقة ، وأحيانا يلعب التنس . وكان قصده من هذه الرياضات زيادة كفاءته لتأدية أعماله . . . وحتى حين بلغ الثمانين كان يجول ويصعد فى التلال ويمشى فى السهول . . وحدث أن جاءه صحفى يريد الحديث معه فدعاه إلى مرافقته فى التجوال وامضى معه الحديث . وعاد الصحفى المسكين وهو يلهث من الاعياء .

• على الرغم مما كنت أضيق به فى خدمتى لبرنارد شو ، كان فى سلوكه معى يعتمد الحفاوة بى . وعندما بلغ التسعين ، حين هزل وصار يبدو كما لو كان ورقة الخريف التى تهفو فى الهواء لأقل هبوة ، كان ينهض واقفا ويقدم لى كرسيه إذا رأى أن الكرسى الذى أقعد عليه ليس مريحا .

• كان عاجزا العجز كله عن أى خبث . وذلك لأنه كان راضيا عن نفسه فلم يكن يحمل الخبث لأحد . وكان يرد على الحاقدين بهز كتفيه . وكان يعتمد الخير لجميع الذين كان يضايقهم بنقدهم . وقد انتقد فى دراسته « المسرحية الأولى تأليف فانى » أصدقاءه الحميمين مثل ووكلى كما انتقد الساسة بالفور ، واسكويث ، وكتشنر .

• عرض عليه رئيس الوزارة رمزى مكدونالد أن تمنحه الحكومة لقبا أو يدخله عضوا فى مجلس اللوردة . فأبى . وقبل منحه واحدة هى جائزة نوبل (١٤ ألف جنيه) للآداب . ومع ذلك لم يأخذ هذا المبلغ لنفسه وإنما وقفه على جمعية تؤلف من الانجليز والسويديين لإيجاد التعاون الأدبى بين الشعبين .

• كان يصف نفسه بأنه «خطيب الغوغاء الممثل الذى لا رجاء فى إصلاحه »

• كان يقول إن الرجل الذى يحمل فى صدره مظلمة وقعت به

يجب عليه أن يتخلص منها ولا يذكرها إذا وثق أنه لن يجد من ينصفه فيها. والمظلمة (مفرد مظالم) هى فى رأيه ، كرب ونكد بمقدار ما تحتوى على حق وعلى مالقى صاحبها من قسوة . ولذلك يجب على المبتلى بها أن يسارع إلى إسقاطها من حياته عندما ييأس من علاجها

. كان عقله مضيئا كما لو كان من البلور لأنه كان يأبى أن يزحمه بما لا قيمة له من الاهتمامات أو الدراسات .

. كان يقول عن مقامه فى عالم المسرح : « لست الحصاة الوحيدة على الشاطىء بين كتاب المسرحيات . إنما أنا شبح من أشباح أبسن »

وأبسن هو الكاتب المسرحى الذى أثر فيه تأثيرا كبيرا . وله درامة أو مأساة بعنوان « الأشباح »

. كان يكره قطف الأزهار . زاره زائر ولاحظ أنه ليس فى الغرفة أزهار . فأجاب شو : « أنا أحب الاطفال . ولكنى لا أقطع رءوسهم وأضعها فى زوايا البيت » .

. وكان إعجابه عظيما بالامداء الفسيحة فى الحقول .

. كان يكره الحديث وقت عمله . فكان إذا احتاج إلى شىء من شخص آخر فى غرفة مجاورة كتب إليه سطرا . فيجاوب الآخر بسطر ثم تجرى مكاتبات بينهما كأن محيطا بين قارتين يفصل بينهما .

. كان غيورا على الوقت . فقد قال لى بعد أن تناول غداءه

وأحس الشبع . « يجب أن أستغنى عن الغداء . تأملى كم من الوقت أنفق عليه فى الطبخ والغسل . . . وهذا بعد فطور جيد . هذه سخرية » .

. قال لى وهو فى التاسعة والثمانين : « لا أستطيع أن أنتظر ستة شهور أخرى . فإن أيامى تعد على الآن » وعندما بلغ الثالثة والتسعين قال لى : « إن الموت يطرق الباب . وهو ضيف لا أرفض الترحيب به » .

كلمات برنارد شو

ليس لنا الحق فى أن نستهلك السعادة دون أن ننتجها كما أنه ليس لنا الحق فى أن نستهلك الثروة دون أن ننتجها .

لا تقاوم ميولك . جرب كل شيء . ثم التزم الأحسن .

ذلك الذى يقتل الملك ، وذلك الذى يموت من أجله ، كلاهما عابد أصنام .

الحرية تعنى المسئولية . وهذا هو علة الخوف الذى يبديه معظم الناس منها .

إحذر الرجل الذى لا يرد لطمتك لأنه لن يغفرها لك ولن تغفرها أنت له .

الإقتصاد السياسى والإقتصاد الاجتماعى كلاهما ألعوبة ذهنية . إنما حجر الفلاسفة هو الإقتصاد الحيوى (الإقتصاد للحياة) .

من الخطر أن تكون مخلصاً ما لم تكن بليداً .

كل من تجاوز الأربعين يعد من الأوباش .

قولنا : « العقل السليم فى الجسم السليم » خطأ . لأن الجسم السليم هو ثمرة العقل السليم .

عندما يمارس المتوحشون المسيحية تمارس المسيحية الوحشية .

الحياة تسوى بين جميع الناس ولكن الموت يبرز المتفوقين .

إنما يحصل الناس على الحكمة بقدرتهم على الإنتفاع من اختباراتهم وليس لمحض اختباراتهم .

الإعتدال لا يمدح أبداً لذاته .

لا يستطيع أثرى الأثرياء ، فى عالم يحفل بالقبح والتعس ، أن يشترى بثرائه سوى القبح والتعس .

كلما امتلك الإنسان أكثر مما يستعمل زادت همومه .

أعظم الآلام هو ما ينشأ من إطالة اللذة الحادة .

الجنون هو أن ننشد السعادة والجمال .

ذلك الذى يرغب فى أن يحي طيلة عمره حياة السعادة مع إمرأة

جميلة يشبه ذلك الذى يرغب فى الاستمتاع بلذة النبيذ بإستبقاء فمه مليئا به .

فى الشعب الاحمق يعد العبقرى إلها. الجميع يعبدونه ولا أحد يعمل

بإرادته ، لو أن العظيم إستطاع أن يجعلنا نفهمه الفهم الصادق لقتلناه

الرذيلة هى التبذير فى الحياة .

حب الإقتصاد هو الأساس لجميع الفضائل .

إحذر الرجل الذى يقول إن ربه فى السماء .

ليست الفضيلة أن نكف أنفسنا عن الرذيلة إنما هى إلا نشتهيها

إن ما يؤمن به الانسان ليس مذهبه الذى يفصح عنه إنما هو مبادئه التى تحمله على السلوك والعمل .

السيد والخادم كلاهما ظالم . ولكن السيد يحتاج إلى الخادم أكثر مما يحتاج الخادم إلى السيد .

إذا عاملنا الخادم كما لو كان إنسانا لما وجدنا منه أية فائدة

أكثر الناس قلقا فى السجن هو السجان .

مادامت عندنا سجون فليس من المهم أن نعرف من هم المسجونون .

السجن كالشنق لا يمكن أن نعالجه بعد وقوعه .

القتل بالمشنقة هو أسوأ أنواع القتل لأنه يتم بموافقة المجتمع

عندما يقتل الانسان نمرا فإنه يصف عمله بأنه صيد ورياضة وعندما يقتل النمر إنسانا فاننا نسميه حيوانية ووحشية . وليس الفرق بين الجريمة والقضاء أكبر من هذا .

أسوأ المربين هم الذين يحاولون أن يصوغوا أخلاق الصبي فى قالب لايمكن أى إنسان أن يتخصص تماما فى علم ما دون أن يكون أبله

الغاية الأساسية من الزواج هى التناسل كما قال الكتاب المقدس

أعظم المخترعات فى القرن التاسع عشر هو منع التناسل الذى يتيح الاتصال الجنسى ولكن بلا إخصاب .

الأمل هو نوع من المسئولية الأخلاقية .

إن خلف مسرحياتى علما إجتماعيا مدروسا .

الفنان الصادق يؤثر أن يترك زوجته جائعة وأبناءه حفاة وأمه تكد لتحصل على لقمتها وهى فى السبعين على أن يترك فنه كى يعمل عملا آخر

إنى أفهم على الدوام من معنى الاشتراكية إنها إصلاحات إقتصادية معينة أرغب فى أن تنفذ وليست مبدأ من المبادىء.

لقد أصبح التطور دينا بل هو الآن دين القرن العشرين الذى نشأ من رماد الأديان والمذاهب الماضية ... ولكنه لن يصير دين السواد من الأمة حتى تؤلف له أساطيره ومعجزاته وأمثولاته .

ولا أعنى بقولى « دين السواد » أن يفهمه سكان القرى فقط بل أعنى أن يفهمة الوزراء أيضا. وليس من العقل أن ننتظر النور والإرشاد فى الذين يعدون الآن من محترفى السياسة ورجال الحكومات لأنهم ليسوا فلاسفة ولا أنبياء إذ لو كانوا كذلك لكان همهم أن يفلسفوا ويتنبأوا بدلا من أن يضيعوا وقتهم فى ممارسة الحكم .

لما رأى الكاتب العظيم اميل زولا مبلغ العقم الذى أصاب التناسل فى بلاده وأزعجه ذلك عمد إلى قلمه فألف كتابا فصيح العبارة قوى الحجة فى الدفاع عن مقام الأبوة والأمومة باسم « الخصوبة » . ولكن كتابه هذا اعتبر فى إنجلترا غير لائق للترجمة وأن كل محاولة يراد منها شرح العلاقات بين الجنسين إلا من الناحية الغرامية الشهوانية يجب أن تقاوم .

... وهذا الحياء الذى تبديه الصحف لا يختلف من الحياء الذى يبدو من السامرين حول مائدة العشاء . وهو فى حقيقته ليس شيئا

سوى نقص فى التربية وصعوبة فى التعبير . فنحن لا ننشأ على أن نفكر تفكيراً نظيفا طاهرا عن هذه الموضوعات وينتج من ذلك أننا نستعمل لغة فاسدة فى التعبير عنها. ثم ننتهى إلى أن نصرح بأنه لا يجوز لنا أن نناقش هذه الموضوعات مناقشة علنية وذلك لأن الألفاظ التى نستعملها فى المناقشة لا تليق للإستعمال . على أن الأطباء الذين يستعملون الألفاظ الخاصة بحدود العلم لا يجدون هذه الصعوبة . وكذلك الحال فى أساتذة اللغة الذين يحسنون التفكير مثل أميل زولا فى قصة « الخصوبة » أو تولستوى فى قصة « البعث ». فإنهم يمكنهم أن يكتبوا دون أن يسيئوا أقل إساءة إلى القراء الذين يفكرون مثلهم تفكيراً نظيفاً طاهراً .

هذا المخلوق الذى يسمى إنساناً والذى يعد ، فى صميم عظامه ، جباناً عندما يعالج مصالحه الشخصية ، يستحيل إلى بطل عندما يجد فكرة .. وإذا أنت أوضحت له أن سيؤدى عملا يزعم أنه قد كلفه الله إياه وأنه سيكون لهذا العمل أسماء جديدة عديدة فإنه عندئذ يخاطر بكل ما يملك ولا يبالى ما سوف تكون النتائج فى شخصه .

تخلصت من رشوة السماء .

إنى أمقت مذهب الفداء إيماناً بأن كرام الناس من الرجال والنساء يأبون أن يكفر أحد عن خطاياهم بأن يعانى هو موتاً قاسياً .

بأى حق تجيز الأم لنفسها أن تدخن وهى تعنى بتربية طفلها . مع إنها تمنع من التدخين حين تبيع التفاح أو المناديل أو حين تجمع أثمان التذاكر فى الاتوبوس ؟ أليس من حقنا أن نترك عربة التدخين فى القطار ونحن مشمئزون دون أن نذكر أمهاتنا ؟

إنى أجد أن حضارتنا سائرة إلى الدمار لإسرافها فى حرية الفرد الذى نجيز له أن يكون كسولا أو متلافاً أو أن يجمع الثروة الضخمة بالإستغلال المهين للعمال أو بتجويعهم أو بحملهم على أن يبيعوا أعراضهم أو على أن يرتكبوا الجرائم أو يفشوا الأمراض بين مواطنيهم . أو أن يكون أحدهم لصاً يغش الارامل واليتامى أو غيرهم من الآمنين بأن يحصل على مدخرهم فيبذره . . . الخ

العبقرى ليس هو الرجل الذى يعرف أكثر من غيره أو يعمل أكثر من سائر الناس . ولم يحدث قط أن عاش عبقرى ولم يتفوق عليه فى هذين الشأنين عدد كبير من المغفلين الذين لا يرجى منهم خير . إنما العبقرى هو ذلك الذى يرى أهمية الأشياء ويميز بينها . ولولا ذلك لكان أى معلم خيراً من المسيح نفسه .

لو أن مؤلف هذا الكتاب (أحد كتب شو نفسه) كان يشرب الخمر أو أى مخدر آخر لكان فى الأغلب أروح لك . ولكنه كان يكون

عندئذ أقل كثيراً فى قيمته الذهنية ومحاسبته الوجدانية . ولذلك كان يكون أكبر خطراً على ذهنك .

أيما تغيير يلغى الفقر ويزيد الفراغ بين العمال سوف يلغى أيضاً الحاجة إلى المخدرات والخمور التى تبعث فى النفس إحساساً كاذباً بالسعادة .

إن القاعدة التى يقول بها الطبيعيون : « الطبيعة تكره الخواء » تنطبق أيضاً على رأس الإنسان . إذ ليس هناك رأس فارغ . . . فإذا أنت تركت زاوية صغيرة فارغة فى رأسك لحظة واحدة فإن آراء الناس غيرك ستندفع إلى ملئها . . . . من الإعلانات والجرائد ، والكتب ، والقيل والقال ، والخطب السياسية ، والقصص والدرامات . . . فيجب أن تحرص على أن تفكر بنفسك ما استطعت .

نموت جوعاً إذا نحن كففنا عن العمل المنتج كل يوم . وإذا وجدت إنساناً فارغاً لا يعمل فإن هناك من يعمل لنفسه وله . وإلا لما وجد أحدهما طعامه . ولذلك قال بطرس الرسول : « إذا لم يعمل الإنسان وينتج فإنه لن يجد ما يأكل » .

عقولنا هى عقول الجماعة . ومهما حاولنا الاستقلال فى تفكيرنا فإننا مع ذلك لن نستطيع التخلص من التفكير الجماعى . وقصارى

ما نستطيعه هو قشرة صغيرة من الاستقلال الفكرى . بل إنى لأقول أنك حين اشتريت كتابى هذا إنما فعلت ذلك كى أفكر أنا لك . ولكن الواقع إنى لن أستطيع ذلك أكثر مما أستطيع أن أتناول ، لك ، عشاءك . وقصارى ما أفعل إنى أطبخ لك عشاءك الذهنى بأن أقدم لك مقدار ما فكرت وفكر غيرى فى الموضوع الذى تفكر أنت فيه . وذلك اقتصاداً لك فى المجهود .

ما منفعة النقود ؟ إنها تمكننا من أن نحصل على ما نريد بدلا من أن نحصل على ما يظنه غيرنا أننا نريده . وعندما نتزوج إحدى الفتيات يتقدم إليها أصدقاؤها بالهدايا بدلا من أن يقدموا لها نقوداً . ونتيجة ذلك أنها تجد نفسها مثقلة بأدوات المائدة المكررة أو بنحو ثمانى ساعات ولا تجد جورباً واحداً من الحرير . ولو أن أصدقاءها كانوا على تعقل وقدموا لها النقود بدلا من الهدايا ، كما أفعل أنا ، ولو أنها هى أيضا كانت على تعقل وقبلت النقود (وهى تقبلها على الدوام) لاقتصدت

يمكننا تعليم الصبيان الجهل . إذ من السهل أن نكتب على ورقة بيضاء ما نشاء . ولكن أوراق المدارس التى يكتب عليها التلاميذ ليست بيضاء إذ هى تحفل بأبيات الشعر اللاتينية السخيفة ، وبالشعارات والأمثال المهجورة ، وبسخافات القرون الماضية وقماماتها ، وبالتاريخ الحافل

بالأساطير . وأيما إنسان يحاول محو هذه الأشياء يعاقب . وإذا لم يمكن عقابه فإنه يلعن باعتباره عدو الله والإنسان. أما روسو وفولتير وتوم بين الذين حرروا الشعوب فيعدون ملحدين أشراراً فى مدارسنا العامة وكذلك واشنطون وكارل ماركس ولنين يعدون مجرمين طغاة .

لاتقوم الحضارة إذا لم يكن لهاقوانين ونظم وإصطلاحات وقواعد . ولكن بعد أن تستقر كل هذه الأشياء يجب أن يكون هناك مجال للثورة والزندقة والشذوذ والإبتداع والمخالفة .وإلا فإن الحضارة تتصدع وتنهار لأنها تعجز عن التكيف باكتشافات العلم ونمو الذهن . وعلى الحكومات أن تعاقب وتتسامح فى وقت معا . ولكن العقوبة والتسامح ليسا مبدأين . إذ على الحكومة أن تعرف متى تعاقب ومتى تتسامح وفق الظروف الجديدة .

جميع أولئك الذين يحققون امتيازاً ، فى الحياة يبدأون حياتهم ثوريين . والمتفوقون فيهم يزدادون ثورة كلما تقدموا فى السن وإن كان الوهم السائد عنهم إنهم يعودون محافظين .وعلة هذا الوهم أنهم يفقدون إيمانهم بالطرق المألوفة فى الإصلاح .

فهرست

كتب أخرى للمؤلف

	ص
الشخصية الناجحة	١٥
محاولات سيكولوجية	٢٠
هؤلاء علموني	٢٠
عقلي وعقلك	٢٥
الأدب والحياة	١٥

التربية	تحت الطبع
التثقيف الذاتي	» »

يطلب الكتاب من

دار الكتب بالدار البيضاء — مراكش

دار الكتب الشرقية — تونس

مكتبة النهضة السودانية — الخرطوم

مكتبة الثقافة — مكة المكرمة

طبع الغلاف
دار الشناء للطباعة
شارع الجيش ت : ٤٤٣٨٦